محمد المجذوب

الطريق السوي إلى وحدة المسلمين

دار
الشواف

الطريق السّويّ إلى وحدة المُسلمين

* محمد المجذوب: **الطريق السوي إلى وحدة المسلمين.**
* **الطبعة الثانية**، ١٩٩٥ م ـ ١٤١٥ هـ.
* **الناشـر**: دار الشـوّاف للنشر والتوزيع.
ص.ب ٤٣٣٠٧ الرياض ١١٥٦١/ هاتف ٤٦٢٢٦٣٠ ـ ٤٦٢٢٦٦٧
تلكس ٤٠١٢٤٩ إس. جي / فاكس ٤٦٢٢٨٦٦
شارع الثلاثين العليا ـ الرياض.
المملكة العربية السعودية.

الطريق السّويّ إلى وحْدة المُسلمين

محمّد المجذوب

دار الشواف

بسم الله الرحمن الرحيم

وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢)

صدق الله العظيم

سورة الروم

الإهـــداء

إلى كل مؤمنٍ باللّه
عامل لإعلاء كلمة اللّه
ولإقامة شريعة اللّه
في أرض اللّه

أقدم هذا الكتاب
ابتغاء مرضاة اللّه

محمد المجذوب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة... من غير تقديم

بقلم: حسان محمد المجذوب

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم... والصلاة والسلام على هادي الأمم... إلى الطريق الأقوم.

وبعد: خلافاً للمألوف ما كان ينبغي أن أكتب أية مقدمة من غير استئذان، خاصة من ابن لأبيه؛ ولكن كانت فرصة لي ـ على الرغم من مشاغلي التي لم تدع لي وقتاً ـ أن أعيش أياماً مع سيدي الوالد أستاذي، ومرشدي، في كتابه السفر العظيم «الطريق السوي إلى وحدة المسلمين» حيث كان عليّ أن أعيد طباعته على الكومبيوتر، لأسلّمه إلى المطبعة، لعدم صلاحية النسخة الأصلية للتصوير والطباعة... وكان عليّ الإشراف على ذلك مقارنة بالأصل.

وحرصت ما استطعت أن يكون الكتاب خالياً من كل خطأ... ومحافظاً على عباراته.. فأنا أعلم دقّة سيدي الوالد بتعابيره، وغضبه ممّن يحاول إبدالها... وكانت تشغلني معاني الكتاب، وعمق مراميه والغوص في أعماق إشاراته عن كثير من ذلك، مما اضطرني للعودة لقراءة الكتاب مرة بعد مرة...

وكنت أعيش مع ذاكرتي لعشرات من السنين خلت، إبّان كنت طالباً في حلب، وأنا في السابعة عشر من عمري، عندما كنت أبعث إليه رسائلي، أسأله حاجتي من المال وغيره.

وأنتظر الجواب مع بغيتي على أحرّ من الجمر. . . فأفاجأ بعودة بعضها خالية من حاجتي، وقد وَضَعَ خطوطاً حمراء تحت بعض العبارات والكلمات، وذيّلها بما لا أنساه ما دمت حيا: «صحّح. . . وأعِدْ. . .» فاضطرّ أحياناً لعرضها على أستاذي باللغة العربية للاطلاع، وتقويم عباراتي حتى لا تعود لي رسائلي مرة ثانية.

كان لذلك الأثرُ العميق في كل فضل بعد الله في استقامة لساني وكتابتي. . . وترعرعت في ظلّه فصيحاً، لا يتكلم العامية أبداً، ويعاقبُنا إذا فعلنا، كان لا يتكلم إلا الفصحى في المنزل والطريق وبالبيع والشراء. . . مع الصغير والكبير، بل كان يحدّث عن نفسه بقوله: لو أردت أن أتحدث العامية لتكلّفتها. . وكان كثير الغضب ممن يتكلم العامية، وبالأخص مدرسي اللغة العربية.

أجل. . . هذا ما كان يراودني وأنا بين دفتي «الطريق السوي إلى وحدة المسلمين. .» أتذكّر ذلك الماضي البعيد السعيد. فإن ورد فيه ما يحتمل أنه خطأ أو خروج عن عبارته أحياناً فأنا المُلام، ولكن لن يستطيع إعادة آلاف النسخ، ليقول لي عبارته التي ما زالت أخاديدها محفورة في أعماقي: صحّحْ. . وأعِدْ. . . ويمكنه ذلك في الطبعة الثانية إن شاء الله.

أجل. . ومع وصول كتاب سيدي الوالد إليّ للإشراف على طبعه كنا قد انتهينا من إعداد كتاب «هيا. . إلى الخلافة الراشدة، على منهاج النبوة. . .» بإشراف مجموعة من الأخوة؛ وكأننا الأب والابن يغرف من معين واحد. . .

فأنا أعلم أن المسلمين لم يصلوا في تاريخهم الطويل إلى ما وصلوا إليه في عصرنا هذا من ذل ومهانة، وفرقة وتشتت عظيم إلا بسقوط الخلافة. . حيث صار وطن الإسلام أوطاناً. . وأمة المسلمين أمماً وجماعتهم جماعاتٍ. . . وأصبح لهذه الأمة رؤوساً سرطانية، أصبحت بالتالي تصرفاتها «هيستيرية» شيطانية تتخبطها. . . لا اتزان فيها ولا مسؤولية. . . !!

لماذا سنّة الله باقية مستمرة في هذا الجسد الذي تتداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمّى لأي شكوى من أي جارحة من جوارحه، وتغيّرت في هذه الأمة... والأمة كل الأمة في مشارق الأرض ومغاربها تئن وتشكو وتبكي.. وأعداؤها يلتهمونها التهام الهرّ قطع الجبن قطعة قطعة... فلا ودّ... ولا تراحم... ولا تعاطف... ولا نفير ولا استنفار... لا حمى ولا سهر....؟!... لماذا لم تتغير سنّة الله في كل جسد، وتغيرت في هذه الأمة...!؟.

لأن لهذا الجسد رأساً واحداً ينتظم أموره كلها... ولهذه الأمة رؤوساً متعددة...!!

لأن لهذا الجسد رأساً واحداً فهو يعيش باتزان وترابط وتنسيق، فتصدر الأوامر منه، فتستجيب له سائر الجوارح بالسمع والطاعة، دون تردّد... أما هذه الأمة برؤوسها السرطانية فتستجيب لها بحركات هيستيرية، وانفعالات متنافرة، فهي تعيش باضطراب وفوضى وقلق...!! فانقلب الودّ عداوة وبغضاء... والتراحم جفاء وشماتة... والتعاطف تناحراً وتآمراً وحقداً ومكراً..

كل هذا لأنه ليس لهذه الأمة رأس واحد..

كانت أهداف الصليبية الحاقدة، والصهيونية الماكرة كما قال لورنس عام ١٩١٦م.. تفتيتَ الوحدة الإسلامية، ودحرَ الأمبراطورية العثمانية وتدميرهَا، وإذا عرفنا كيف نتقابل مع العرب، وهم الأقل وعياً للاستقرار من الأتراك، فسيبقون في دّوامة من الفوضى السياسية داخل دويلات صغيرة حاقدة غير قابلة للتماسك ولكنّها على استعداد دائم لتشكيل قوة موحدة ضد أية قوة خارجية.

هذا وتبقى وثيقة لورنس مفتاحاً لفهم التغيرات التي انتابت عالمنا العربي والإسلامي في العصر الحديث، وحتى الآن... وتفسرها شروط الوزير البريطاني «كرزن» الأربعة حول دولة الخلافة:

١ ـ إلغاء الخلافة الإسلامية نهائياً من تركيا.

٢ ـ أن تقطع تركيا كل صلة مع الإسلام.

٣ ـ أن تضمن تركيا تجميد وشل حركة جميع العناصر الإسلامية الباقية في تركيا.

٤ ـ أن يُستبدل بالدستور العثماني القائم على الإسلام دستور غربي.

أجل... لقد كان لإلغاء الخلافة آثار عميقة وبعيدة في العالم الإسلامي إذ ما لبثت هذه الأمة أن تقطعت أمماً... وأصبحت أحزاباً، كل حزب بما لديهم فرحون... وأصبحت الديموقراطية التي يُنادى بها، والتي تقوم على تعددية الأحزاب مكان شرع الله الذي يقوم على الجماعة الواحدة للمسلمين... **﴿ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون﴾**.

أجل.... استحق «كرزن» تصفيق البرلمان الحار الحاد عندما قال كلمته أمامهم: لن تقوم للإسلام وللمسلمين قائمة بعد اليوم؛ فقد قطعنا رأسهم... قضينا على خليفتهم....!؟.

صيحةُ سيدي الوالد صادقةٌ... من قلب حزين مكلوم.. عاش الفصول الأخيرة من حياة الخلافة، استظلّ بظلّها الوارف شبابه... يرى أبناء هذه الأمة الإسلامية من الهند والسند والصين وخراسان وفارس والمغرب وإفريقيا يتنقّلون كيف يشاؤون... ويسكنون حيث يشاؤون... يتاجرون ويتصاهرون... لا جوازات سفر... ولا تأشيرات ولا عقبات... ولا جنسيات... ولا حدود... من استنبول وحتى اليمن... من طنجة وحتى دَلهي ... الكلّ يستظل بسحابة الخلافة الممطرة بركة ورحمة .... رأى هذا وعاصره .... رأى بعينيه الدامعتين بعد ذلك حدوداً وقيوداً وردماً وسدوداً... لا يستطيع أن يزور شقيقته وشقيقه وأمه في بلده، ولا يرى مسقط رأسه... رأى ما لم يره من قبل، ما يسمّى بجوازات سفر تحول دونه ودون زيارته ديار العرب والمسلمين إلاّ بتأشيرة!! ليرى لبلده إسماً جديداً أكل الدهر عليه وشرب ودُفن بين صفحات

التاريخ منذ الفتح الإسلامي الكبير لبلاده... «سوريا»... اسم لم يعرفه التاريخ الإسلامي قط، بل هو اسم فينيقي أحيته فرنسا المستعمرة عندما تآمرت والصليبية الحاقدة والصهيونية الفاجرة فقضت على خليفة المسلمين.

لقد كانت بلاد الشام ولم تكن سوريا... والآن «الشام» إنما تطلق على دمشق فقط.

شهد سقوطها... ورأى على إثر ذلك تمزق العالم الإسلامي تارة باسم القومية، وتارة باسم الوطنية، وتارة باسم الإشتراكية، وتارة باسم العلمانية... وها هو يعيش وهو ابن السادسة والثمانين صحوةَ الإسلام... يشهد استيقاظ المارد الإسلامي في العالم الإسلامي أجمع... وإنّي لأسأله تبارك وتعالى بأسمائه وصفاته أن يمدّ في عمره لتكتحل عيناه برؤية خليفة المسلمين... وليضع يده بيده بيعة له على كتاب الله وسنة نبيه، خلافة راشدة على منهج النبوة... وعندها تقرّ عيناه فيرسلهما بدموع الفرح؛ ويحتفظ عندئذ بجوازه وما فيه من أختام وتأشيرات لأحفاده وأحفاد أحفاده في مقبرة التاريخ... لأن هذه الجوازات رموزُ التشتت والتفكك والتمزق بين أبناء الوطن الإسلامي الواحد.

والآن أدعك أيها القارىء الكريم مع معالم «الطريق السوي إلى وحدة المسلمين» في فصوله الستة، لتعيش مع رجل قضى حياته كلها مجاهداً بنفسه أيام الحقبة الأولى من الاستعمار الفرنسي الذي كان حلقة من حلقات الإجهاز على الخلافة والخليفة، وكنت آنذاك دون العاشرة، وما زالتْ صورتُه شاخصة بين عينيّ، وقد علّق مسدسه بعنقه وتحت إبطه يصول ويجول مع رفاقه في الكفاح لتحرير بلاد الشام... وهو يتركنا الأيام والليالي... ولن أنسى قصته مع حاكم طرطوس الفرنسي الذي لَكَمَهُ على أنفه. والحاكم بنفسه مسح دمه عن أنفه بمنديله معتذراً مُكْبِراً موقفَه منه وليقول له: سأرسل هذا المنديل إلى باريس لأعلِمَهم أنه لا مكان لنا في بلاد الشام ما دام أمثالك فيه....

ومجاهداً ينتقل من افغانستان إلى الفلبين بين المجاهدين يصلح ذات بينهم. . . وعرفته مجاهداً بقلمه يذبّ به عن الإسلام؛ لا يبالي بسجن أو تعذيب وقهر. . . يقود التظاهرات، ويسهر الليالي يعدّ بياناته في أيام عبد الناصر وما بعده. . . عرفته مجاهداً بماله لا يضنّ به مقِّلاً كان أو غنياً . . . رافقته إلى طيبة الطيبة في أوائل الستينات وحدي من الأسرة، أخدمه، وأشعر السعادة بخدمته.

لن أنسى ما دمت حياً يوماً آثارهُ ستبقى في نفسي حتى ألقى ربي عندما صلّينا الفجر ذات يوم في حرم رسول الله ﷺ وقد رأيته والدموع في عينيه متغيراً، يتبعه إلى سيارته عجوز شاحب الوجه، غائر العينين، بإزار عار من وسطه إلى أعلاه وبلا رداء، وبسيارته يخلع والدي ثوبه لهذا العجوز ليعود بالقميص والسروال إلى البيت، دامع العينين، مما لفت نظر والدتي وإخوتي. . . وعرفته وقد تقاعد بالعمل من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة لعامل السن نشيطاً أضعاف نشاطه فيها. . . بل اعتبر التقاعد عن العمل الروتيني فرصةً عظيمة ليتدارك ما فاته. . . عرفته ببرنامجه اليومي لا فراغ فيه البتّة. . . بل يصدُقُ عليه القول من غير أي تردد: الواجبات أكثر من الأوقات، بل يتساءل: عَجِبتُ لمن يشكو الفراغ كيف!؟ وأنا أشكو ضيق الوقت. لا يكاد يترك نشرة أخبار إلا ويسمعها، ولا كتاباً إسلامياً إلا ويقرأه ويعلّق عليه بحواشيه ما يزيد أحياناً عن المتن. . . عرفته يَلْتَهِبُ حماساً أكثر من الشباب لنصرة الإسلام في كل مكان. سخيّ الدموع في كل ما يعترضهم. . . وكأنّه يحمل هموم العالم الإسلامي بأجمعه على كاهله. . . فكم هي المرات التي نسمع نشيجه وبكاءه بصوت مرتفع، فنظنّ أن مصيبة وقعت في الأسرة ثم نعلم: لمصيبة حلّت في بقعة من العالم الإسلامي. . .

يتفاعل تفاعلاً عجيباً مع أحداث العالم الإسلامي وكأنّ العالم الإسلامي يعيش بين اضلاعه، وفي قلبه وعقله، ويجري مع دمه مما يلهبه ويبكيه ويؤرقّه. . . لم أر له مثيلاً في هذا العصر. . . ـ والله ـ لا أقول هذا لأنه أبي ـ وأنا أعتزّ بأنه أبي ـ ولكن الحقيقة لمستها، وما زلت ألمسُها منذ أكثر من خمسين عاماً

معه . . . : شامخ الرأس، عزيز النفس . . . سوطاً لاذعاً على أعداء الإسلام، بكّاءً نشّاجاً تخنقه الدموع لآهات المسلمين.

فكيـف تكـون تجـارب هـذا الشيـخ العمـلاق الـذي تجـاوز الخـامسـة والثمانين . . .؟! لا بدّ أنها قمة في العطاء . . . غاية في التفاعل. تراها بين طيّات هذا الكتاب. إنها تجارب قرن جمع في طياته قروناً.

لك يا سيدي الوالد كل ذلّ بجناحي اخفضهما لك إجلالاً وتواضعاً . . . راجياً المولى عز وجل أن أقضي ما بقي من عمر أحدنا في خدمة قدميك كرامةً وحباً، ماداً إليك يدي لتتصدّق عليّ بالرضى والدعاء . . . واعتذر أن أقحمت نفسي بسفْرك العظيم، وأنا بعيد عنك منذ سنوات في ساحات الجهاد . . .

﴿ ربِّ أغفر لي ولوالدي. ربِّ إرحمهما كما ربياني صغيراً ﴾

ولدك المحب المخلص

أبو وائل

مدير مدارس المنارة الإسلامية ـ باكستان

المستشار الديني للاتحاد الاسترالي للمجالس الإسلامية

بين يدي الكتاب

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾

[طه: ١١٥ ـ ١٢٧]

هذه نصوص من الوحي الإلهي تضع العقل المؤمن أمام قصة الوجود الإنساني من مبدئه إلى مختتمه، في تكثيف يشبه تركيب الذرة تلوح للفكر كياناً متناهي الصغر حتى إذا هُدي إلى مفاتيح أسراره تكشف له عن عالم من

العجائب، فيه المدمِّر الذي ينسف الحياة، والمبشِّر الذي يبدد الظلمات، ويبعث الروح في الموات.

إن هاهنا مجسَّماً يعرض للعاقل مشكلة هذا المخلوق العجيب في خطوطها الكبرى التي إليها يرجع كل تحركات الجنس البشري، منذ أن كان سراً مكنوناً في عالم الغيب، وبعد هبوطه إلى ساحة العمل الأرضي، ليبدأ رحلته الطويلة مع محتوياتها المختلفة من الناميات والجامدات..

وذلك الإنسان الذي خصه خالقه الكريم بالتكريم المميز، ومنحه القدرة التي تمكّنه من التصرف في مادة الكون، يصنع منها وبها ما يحقق الخير الذي يحبه الخالق، والشر الذي يكرهه، ويدمر هناءة الإنسان وأمنه في الوقت نفسه، فله أن يختار أحد السبيلين، وعلى نوع اختياره تجري مشيئة ربه:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾

[الليل: ٥ ـ ١٠]

بيد أن هذا المميَّزَ ما لبث أن شغله المتاع الزائل عن الحق الخالد فإذا هو فريسة للغفلة التي أنسته فضل ربه بالتكريم الذي خصه به يوم أسجد له ملائكته، وبلغ به النسيان أن أطاع عدوه الذي استنكف عن مشاركة الملأ الأعلى في تكريمه، على الرغم من تحذير الله إياه من ذلك الخبيث المتربص..

لقد أدرك هذا الغدار أن شهوة البقاء والمُلك هي نقطة الضعف في نفس غريمه الذي آثره الله عليه، فآلى ليَفسُدَنَّ عليه حياته ونسله إلى الأبد. ومن هنا كان تسلل الشيطان إلى نفس الإنسان الأول من خلال هاتين القناتين: الرغبة العارمة في استمرار الوجود (شجرة الخُلد) ثم الإستحواذ على المنافع التي تمكنه من التفوق على غيره (وملك لا يُبلى).

وهكذا صدر حكم الباري بهبوط النوعين إلى الأرض ليواصلا مرحلة

الصراع الذي وَفْقَ نتائجه يتقرر مصير الجنسين: النعيم المقيم، أو العذاب العقيم.

على أن رحمة الله لم تُزايل الإنسان قط إذ تاب عليه وهداه واجتباه، ليعلمه كيف يتطهر من أوزار المعصية كلما استجره إليها ذلك العدو الألدّ. .

ولقد أخذ الإنسان يومئذ سبيله المنحدر إلى موطنه المؤقت وهو يردد في قلبه إعلان ربه الذي حمله إلى ذريته كلها بأنه سيزودهم، عن طريق رسله المصطَفينَ، بالهداية العاصمة لهم من حبائل الشيطان، فلا يعتريهم ضلال ولا يمسهم شقاء ما استمسكوا بعُراها. . ولكن الويل كل الويل لمن يرفض هدايته ويستسلم لمغريات ذلك الغرَّار ليخرجه من الجنة الموعودة كما أخرج أبويه من قبل فيستحيل نعيمه شقاء، ويتبدل أمنه الرحب معيشة ضنكا، لا ينفك يكدح فيها حتى يصير إلى يوم الحساب أعمى لا يهتدي سبيلاً، ويسأل ربه متعجباً لِمَ حَرَمَه نعمة الإبصار؟. . فيأتيه الجواب القارع: ذلك بما قدمت يداك نتيجة إعراضك عن النور الذي تعامَيْتَ عنه، فكان جزاؤك من جنس عملك، تحقيقاً للقانون الأعلى الذي قضى بأن يكون العمى في الآخرة حصيلة العمى الذي اختاره الزائغ لنفسه أثناء حياته الأولى:

﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٧٢﴾

[الإسراء: ٧٢]

وذو البصيرة الحية لا يغرب عن علمه أن الهدى الذي وعد الله به الإنسان مطلعَ ذلك العهد لا بد أن يكون شاملاً كل الأسباب التي تضمن له السلامة من كل أنواع الشقاء والضلالة، وفي رأس تلك الأسباب أسس النظام العاصم من البغي والعدوان، إلى جانب الفطرة السليمة التي لا تجد سبيلاً إلى الإستقرار إلا بالتلاحم مع أحكامه الحاسمة، فهما مجتمعين كقطبي الكهرباء لا يؤديان مهمتهما البناءة إلا بالتعاون المحكم بين كل منهما والآخر. . والويل كل الويل

لمن يحاول التفريق بينهما أو استعمال أحدهما في غير الإتجاه الذي فُطِرَ عليه، إذ تكون النتيجة تدمير الحياة والإنسان جميعاً.

وبقليل من التأمل الرشيد في واقع إنسان اليوم يدرك المفكر الحصيف أن جميع الكروب التي عاناها ويعانيها الجنس البشري إنما مردها إلى الخلل الطارىء على طبيعة العلاقة بين ذينك القطبين.. ولكنه الخلل الذي لم يبلغ حتى الآن حد الإنفجار الكامل، لأنه لم يصِرْ بعدُ إلى الفِصام التام بين الجانبين، إذ لا يزال هنا وهناك هداة ترتفع أصواتهم الحنون من مختلف أرجاء العالم الأرضي مهيبة بقادة القاطرة البشرية أن انتبهوا.. إن الهاوية تتأهب لابتلاع الجميع!!

إنه صوت الفطرة التي توشك أن تتلاشى في صخب الإندفاع المجنون الذي تموج به الدنيا في سباقها المحموم نحو المتاع الوهمي من المشتَهيات، التي شغلت القادة بمغرياتها الزائفة عن الحقائق التي خُلقوا من أجلها، فنسوا في غمرات الجنون أن لهم رباً يدعوهم لخيري الدنيا والآخرة، وأن هؤلاء الذين يستبيحون دماءهم وأموالهم وأعراضهم من عباد الله إنما هم إخوتهم في الآدمية، منحهم الحياة ليتعارفوا ويتعاونوا، وليتعاملوا بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى - وكلهم ذوو قربى - وينهاهم عن الفحشاء والمنكر والبغي رحمة بهم وصيانة لهم من نزغات الشياطين.. ولكن غلبتهم الأهواء فنسوا ما ذُكِّروا به، ورفضوا شريعة الله التي هي الضامن الوحيد لأمنهم وهناءتهم، فجنوا على أنفسهم وانطلقوا يتخبطون في أسداف الظلمات ومزالق الشهوات، حتى انقلبت الأخوَّة تفانياً في العداوات و:

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾

[الروم: ٤١]

ولقد كان من حكمة الله، جلَّت حكمته، أن ينزل هديَه وفق حاجة عباده وتدرجاً مع تطورها الفكري، وكان من طبيعة هذا التطور أن يتوزع الجنس

الإنساني شعوباً وقبائل تتقاسم سطح الأرض، فكانت الرسالات الإلهية مراعية ذلك كله.. فلكل مجموعة منهم نبيُّها الخاص يقوم بتربيتها وتوجيهها إلى التي هي أحسن، ويُبلغها من التنظيمات الربانية ما يتلاءم مع أوضاعها، مذكراً إياها أبداً بوحدة المنشأ ووحدة الدين، آخذاً عليها العهد بوجوب الإعداد والإستعداد لاستقبال النبي الرسول الذي قدّر سبحانه أن يختم به رسالاته إلى أهل الأرض، فيعيدهم إلى وحدتهم الأصلية في نطاق التعاون على البر والتقوى، في تنظيم متكامل يتسع لكل التطورات الصاعدة المتواصلة إلى نهاية الدورة الأرضية، وبذلك يصلون إلى المستوى الذي يجعل منهم خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، وقد أكمل لهم الدين وأتم عليهم نعمته ورضي لهم الإسلام ديناً، يجمعهم على الأخوّة ويمدهم بكل عوامل التقدم..

والدين في لغة القرآن العظيم هو النظام الشامل الذي لا يفرّط بشيء من مصالح الإنسان، ويقيم التوازن الدقيق بين متطلباته الروحية والمادية على السواء، وهو في قوله تعالى:

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾

[الماعون: ١]

بمعنى الحساب والدينونة يوم تُسأل كل نفس عما أسلفت.. ثم هو المنهج الأمثل الذي يجب أن تُنَشّأ على مثاله الأجيال المؤمنة لتستمر مسيرتها النورانية:

وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾

[آل عمران: ٨٥]

لأنه كلٌّ لا يتجزأ، وكل رفض لأي من أحكامه مخرج لفاعله عن دائرة النور.. وأخيراً هو القانون الذي يحكم تصرفات الجماعة المسلمة فتُسلم إليه قيادها في رضاء تام حتى لا يكون لمؤمن ولا مؤمنة من خَيْرةٍ إذا قضى الله ورسوله أمراً.. لأن كل انحراف عن قضائه سقوط في حمأة الجاهلية:

﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾

[المائدة: ٥٠]

وحكم الجاهلية يشمل كل تقنين يضعه الرافضون لشريعة الله، معلنين بلسان الحال أو المقال أنهم أعلم بمصالح العباد من خالقهم، على الطريقة التي أعلنها فرعون موسى من قبل حين قال لقومه، وهو يثير عصبيتهم للإلتفاف حوله بوجه دعوة نبي الله:

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ۝٢٦﴾

[غافر: ٢٦]

وإنما يريد فرعون بالدين هذا نظام الجاهلية الذي يتسلط به على رقاب أولئك الذين استخفهم فأطاعوه، وهي نفسها الشنشنة التي يرفع شعاراتها دعاة الجاهلية الحديثة باسم العلمانية والوجودية والشيوعية والوطنية والقومية، وما إليهنّ من ضروب المضلات التي تكاد تأتي على بقية الروابط الإنسانية، والتي بها يشنون الغارات على دعاة الهدى، الذين يريدون لإخوتهم في الآدمية ان يتبينوا طريقهم فيعودوا إلى ربهم فيستردوا ما سلبهم إياه الطواغيت من نعمة الأمن، التي لا سبيل إليها إلا في كنف شريعته الرحيمة المحررة للإنسان من نزعات الشيطان ونزوات الطغيان، ويأبى أولئك إلا صدهم عنهم بدفعهم إلى أعماق الهاوية.. وها هم أولاء ورثة الجاهليات يشحنون الفضاء بأخطر الغازات السامة يريدون بها أن يُطفئوا نور الله بأفواههم، ويخنقوا أصوات أوليائه بترويعهم، فيصبوا عليهم سيول العذاب حتى يخيّل للرائين من بعيد أنها النهاية، ولكن الله يمد المظلومين بالصمود الخارق على ذلك النكال يقيناً منهم بوعده الحق الذي أعلنه من فوق سبع سموات أن العاقبة للمتقين، وأن الخزي الفاضح للظالمين وإن تأخر ذلك إلى حين..

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾

[المعارج: ٦ ـ ٧]

أجل.. تلك هي قصة الإنسان، بل قضيتُه التي حُمّل عبء الدفاع عن حوزتها قُبيل أن تطأ قدماه ظهر هذا الكوكب، فنهض بها المختارون، ونكص عنها الخائرون المثبطون، في ملحمة شاء الله أن تصل حلقاتها حتى يرث الله الأرض ومن عليها..

وما هذا الكتاب سوى محاولة لتقديم صورة مصغرة من معطيات هذه الآيات الباهرات عن قصة الإنسان، التي قُدّرَ لنا جميعاً أن نكون بعض أشخاصها العاملين في هذا الجانب أو ذاك من حلبة الصراع.. والله المسؤول أن يجعله في الصفحات المقبولة عنده.

محمد المجذوب
المدينة المنوّرة ـ خطّ الهجرة
١٤١٣/٥/١ هـ

الفصل الأول:

الأصول الروحية لمجتمعنا الإسلامي

الأمـة القائـدة

الحمد لله الحق المبين، وصلاته وسلامه على رسوله الأمين، المبعوث رحمة للعالمين، وآله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد فإن الحديث عن وحدة المسلمين موضوع ذون شجون فيه السارّ الطافح بالأمل، وفيه المؤسف المثير لواذع الألم، ولا يكاد يمر بالبال حتى يفجر كمين الذكريات فيتراءى من خلالها ذلك الماضي الذي تحقق فيه النموذج الأعلى للمجتمع الذي أخرجته التربية النبوية من ظلمات الجاهلية إلى أنوار الربانية، فكانوا الأسوة الحسنة لكل راغب في الحق والخير والسلام، بعد أن كانوا نموذجاً للعداء الذي جعل أرضهم كما وصفها النبي أشعياء (مربضاً للذئاب).

وجدير بمن يواجه مثل هذه الذكريات أن ترتسم في خاطره أشعة الآية الكريمة:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾

[آل عمران: ١١٠]

ففي هذه الكلمات الإلهية المحركة للأفكار والمشاعر تحديد للخصائص التي تؤلف بمجموعها أصول الكيان الإسلامي، وفي الوقت نفسه تحدد وظيفة هذه الأمة وهدفها الأعلى في نطاق الجنس البشري، فهي أمة أعدها الخالق

لمهمة الهداية، وزودها بالمقومات التي بها تحقق مهمتها، وبتدريبها على حقائق الإسلام وتمرسها بفضائله وقيمه المميزة أصبحت مؤهلة للأخذ بيد الإنسان إلى التي هي أقوم، وفي التعبير عن ذلك بلفظ «أخرجت» تذكير بالمصدر الإلهي الذي قدر لها هذا الإعداد لتلك المهمة الضخمة.

هذا إلى ما ينطوي عليه ذلك اللفظ من صلة بمعنى «التخرج» أي التأدب والتزود بالمؤهلات المساعدة على تحقيقها، فهي إذاً مهيأة بل مكلفة قيادةَ الجنس البشري إلى الحياة الآمنة السعيدة، التي يحب الله أن تنعم بها ذرية آدم على هذه الأرض.

ثم يأتي التفصيل بعد الإجمال، فأولى هذه الخصائص الإيمان بالله رباً وإلٰهاً وحاكماً... ولعل المراد بتأخير ذكر الإيمان في الآية توجيه النظر والفكر ألى أن من ثمرات الإيمان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن مجرد فقدانها دليل على فراغ الإيمان من حركة الحياة، بحيث يكون إيماناً نظرياً لا عمل له ولا أثر في سلوك صاحبه، وبالتالي لا أثر له في مسيرة الإنسان فردا أو جماعة.

أما ثانية هذه الخصائص فهي الأمر بالمعروف. وأول ما يسترعي الإنتباه من هذه الفقرة مضمونها اللغوي، فهنا أمر ثم معروف، وكلمة الأمر ترسم في الذهن نوعاً من التميز يسبغ على صاحبه صفة التفرد الذي يحفظه من الذوبان في الآخرين، ويمنحه صلاحية قيادتهم إلى المنهج الأقوم، ومن ثمّ تأتي كلمة «معروف» لتصور كل ما اتفقت على قبوله الفِطَر السليمة من قول أو فعل، والعُرف بضم العين مرادف المعروف، وبالفتح الطيِّب من الروائح، ولا جرم أن الجامع بينهما هو الأثر الكريم الذي يحدثه كل منهما، وحسبك في تعريف المعروف قول رسول الله ﷺ:

«من كان آمراً بمعروف فليكن أمره بمعروف»

لأن:

«الله يحب الرفق في الأمر كله ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف».

ومعنى هذا أن الأمر بالمعروف عبء ثقيل يتطلب من القائمين به مقومات خاصة حددها التوجيه الإلهي بقوله تعالى:

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾

[النحل: ١٢٥]

فبالحكمة تفتح مغاليق القلوب، وبالموعظة الحسنة تُحرّك المشاعر النظيفة فيتوافر الإستعداد لقبول البراهين العقلية الغالبة للأهواء، ولا جرم أن صاحب هذه المؤهلات هو الذي استكمل الخصائص التي تجعل منه الأسوة الحسنة، وتجعل لكلمته الأثر البعيد فيستجيب لها كل ذي قلب سليم، ولا يتنكر لها إلا الآثمون المعاندون، وتلك هي مهمة النبيين والتابعين لهم بإحسان في كل زمان ومكان.

أما الثالثة فهي النهي عن المنكر، والمنكر من حيث المدلول اللغوي هو كل ما يضادّ المعروف، فإذا كان من شأن المعروف أن يشمل كل فضيلة تستهوي الفِطَر السليمة، فالمنكر هو كل ما ترفضه من قول وعمل، ولذلك تكون كل دعوة إلى المعروف إنما هي تحذير من المنكر المضادّ له، بل إن القرآن الكريم ليجعل من أخصّ صفات المنافقين كونهم:

﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ﴾

[التوبة: ٦٧]

وهكذا يكون كل أمر بمنكر ملازماً للنهي عن معروف لفظاً أو معنى. وقد أنذر رسول الله ـ ﷺ ـ أمته بأن تعطيلها لهذين القطبين مدعاة لسخط الله، وتمكين للظالمين من إذلال المسلمين، وتجريدهم من عزة الإسلام، كما في قوله في الحديث الذي رواه ابن ماجة والترمذي:

«والذي نفسي بيده لتأمرُنَّ بالمعروف ولتَنْهُونَّ عن المنكر أو ليُوشكنَّ الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ثم لَتَدْعُونَّه فلا يستجيب لكم».

ولقد أدرك السلف الصالح حتمية هذا الخبر النبوي فأقبلوا على تنفيذه بكل ما وسعهم من الجهد، فأخذوا أنفسهم بفقه مدلولاته حتى لا يشتبه عليهم منكر بمعروف، ثم أقبلوا على تنفيذه بكل ما وسعهم من الجهد فحققوا مؤداه بأنفسهم وأهليهم وأوساطهم، فلم يُغفلوا معروفاً ولم يسكتوا عن منكر، فجنوا ثمرات جهدهم حياة طيبة ملؤها الأمن والعدل، حتى كانت كلمة الحق أحبّ إلى أولي أمرهم الراشدين من كل ما عداها، وكانوا أسرع إلى العمل بها من قائليها.. إلى أن جاءت التغيرات الطارئة على ذلك المجتمع إذ خلف بعد القرون الثلاثة خَلَف أضاعوا أمانة الأمر والنهي، واتسعت مسافة الإنفراج بين الماضي والحاضر، فكان لا بد من العقاب الموعود، فإذا بالرزايا تهاجم ذلك المجتمع بمقدار بعده وقربه من ذلك التوجيه النبوي الخالد.

أسس الجماعة المسلمة

ان مجرد استقرار القلب على الإيمان بالله رباً وإلهاً وبمحمد نبياً ورسولاً، وبالإسلام ديناً يدخل صاحبه في صميم الجماعة المسلمة، ويخرجه في الوقت نفسه من كل نحلة تخالف المضمون الإيماني، إلى ما توجبه العقيدة الإسلامية من التعاون في نطاق البر والإحسان:

لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ

[الممتحنة:٨٠]

ومن هنا كان الإسلام هو النسب الأعلى الذي يؤلف بين أفراد المجتمع الإسلامي، وقد رأينا مظهر ذلك النسب الإيماني في حياة أبي البشر الثاني - نوح عليه السلام - حين دعا ربه لابنه العاصي:

رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ

[هود: ٤٥]

وسرعان ما جاءه الجواب الأعلى مذكراً:

﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾

فلا يلبث أن يستيقظ من غفلته قائلاً:

﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٤٧﴾

[هود: ٤٧]

ثم رأينا ذلك في موقف إبراهيم عليه السلام من أبيه حين استيقن من إصراره على الكفر:

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾

[التوبة: ١١٤]

وشهدنا الوضع نفسه في موقف خاتم النبيين ﷺ من أقرب الناس إليه أبي طالب عندما أمسك عن الصلاة عليه، وعندما اكتفى بزيارة قبر أمه باذن من ربه، ولم يدعُ لها لأن الله نهاه عن ذلك[1]. وقد تجلت هذه الشواهد أشد ما تكون بروزاً في حياة الصحابة وبخاصة في ملحمة بدر، يوم قتل بعض المسلمين أمسّ الناس رحماً بهم من الآباء والأقربين، وهم الذين كانوا إلى وقت جد قريب لا يعرفون لهم صلة خارج حدود الأسرة والقبيلة، ولو أدى ذلك الى حروب الإستئصال كالتي كانت بين الأوس والخزرج قبل أن يتداركهم الله بالإسلام، وهو النهج الذي يؤكده دريد بن الصمة في عُمِّيته الجاهلية حيث يقول:

---

(١) من حديث أخرجه مسلم وغيره. انظر البداية والنهاية ج، ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠.

وهل أنا إلا من غزية.. إن غوت غويت، وإن ترشد غزية أرشدِ

فبالإسلام إذن تفاصل الكفر والإيمان، فكان ثمة داران لا ثالث لهما، ينضوي إلى كل منهما مناسبه من التصور والفكر والسلوك.

فهاهنا أمة أسلمت وجهها للّه فهي لا تعترف بغيره إلهاً ورضيت بمحمد ﷺ إماماً وقائداً فلا تحيد عن سبيله، إيماناً منها بأنها الطريق التي هي أقوم.. على حين قد انجرف الفريق الآخر في مزالق الأهواء تتنازعه أيدي الطواغيت، فهو لا يعرف رباً غير الهوى، ولا ديناً سوى ما يقرره هؤلاء المضللون من طرائق تجعل الحياة ميدان صراع يغرق الأرض بالرعب والموت والبغي، فلا تخمد للبلاء نار حتى تشب نيران ونيران.. وشتّان بين شعوب ألّفت بينها روابط الإيمان بالله الواحد والقائد الواحد والنظام الواحد، فهي على نور من ربها في كل تصرفاتها، وشعوب تتخبط في الظلمات ويتحكم في مصائرها عبيد الشهوات.

أركان الإسلام

في الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه من كتاب الإيمان يقول رسول الله ﷺ: «**بني الإسلام على خمس**».

ومعلوم أن أركان البناء ليست هي البناء كله، ولكنها الركائز التي تحمله، وله بعد ذلك أجزاؤه الكثيرة الأخرى المتممة له، منها الصغير والكبير، بيد أنها بمجموعها مع هذه الركائز تؤلف كيانه الكلي. وإنما خصّ الحديث أركانها الخمسة لبيان أهمية كل منها في وجوده واستمراره، بحيث لو إنهار أي منها لتعرض سائرها للخطر، وقد بدأها بركن التوحيد لأنه الأصل وبزواله يسقط البناء بأجمعه. وفي الحديث الآخر الذي يرويه مسلم في صحيحه تفصيل لبعض ذلك الإجمال، إذ يصف رسول الله ﷺ الإيمان بأنه:

«بضعٌ وسبعون شعبة ـ أو بضع وستون ـ فأفضلها شهادة ألّا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان».

«مختصر مسلم ٣٠»

ومن هنا كان من لوزام الإسلام والإيمان أن يعمل المسلم بأحكام الشريعة المفصلة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فيحلّ ما أحلّ ويحرّم ما حرَّم، ويقيم تعامله مع الآخرين وفق مقاصدها السامية من العدل والإحسان والأمانة والوفاء وما إلى ذلك من الفضائل التي تكوّن القيم العليا المميزة للمجتمع المسلم. ومن رواية البخاري ـ في الصحيح ـ عن عمر بن عبد العزيز: أنه كتب إلى عامله عدي بن عدي قائلاً:

«إن للإيمان فروضاً وشرائع وحدوداً وسنناً، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان» (كتاب الإيمان).

وما أحسن قول الشهيد صاحب الظلال في تفسير الآية الكريمة

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً

[البقرة: ٢٠٨]

(أول مفاهيم هذه الدعوة أن يستسلم المؤمنون بكلياتهم في ذوات أنفسهم وفي الصغير والكبير من أمرهم، استسلام الطاعة الواثقة المطمئنة الراضية.. لليد التي تقود خطاهم وهم واثقون أنها تريد بهم الخير والنصح والرشاد.. في الدنيا والآخرة..).

العقيدة والعبادة

إن العناصر التي منها تتألف وحدة العالم الإسلامي أوسع من أن يحيط بها بحث محدود، فلنقف منها عند منطلقها المركزي الذي هو العقيدة، فهي بمثابة

القلب السليم في الكيان الحي إذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله.. إنها عقيدة التوحيد التي تجمع بين أجزاء ذلك الكيان على أساس التصور الصحيح لكمال الخالق العظيم بأنه الواحد الأحد. الفرد الصمد. الذي لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفواً أحد، وأنه الحي الذي لا يموت، ولا تأخذه سنة ولا نوم، وأن ليس من شيء في هذا الكون إلا وهو ناطق بوجوده، وشاهد بوحدانيته، وخاضع لمشيئته، يتساوى في هذا الإيمان كل مسلم من أكمل العلماء إلى أجهل الجهلاء، وهي عقيدة متفردة تميز المسلم عن سائر المخلوقات الأرضية العاقلة، فترفض التثليث النصراني الذي ينظر إلى ألوهية الخالق من خلال ذاتية الإنسان، فينسب إليه الولد والعائلة المقدسة، وتنزهه عن التجسيم اليهودي الذي لا يتورع أن يدخله في حلبة صراع مع عبده يعقوب حتى ليصوره عاجزاً عن التغلب عليه أو التخلص منه[1] وينفي عنه الترهات الوثنية ووليدتها الباطنية، التي لا تستنكف أن تُحل ربها في أجسام المصطفين من خلقه آكلاً شارباً، يتبع الشهوات ويفرز الفضلات! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً..

ومع التوحيد تنتصب العبادات الإسلامية معالم هادية تتقدمها الصلوات الخمس دائبة العمل في تثبيت جذور الإنتماء في قلب المؤمن لتذكره أبداً بمسؤوليته الكبرى أمام ربه ونفسه وأمته والإنسانية... ثم تأتي الزكاة لتعمق صلته بإخوة الإيمان، وتطهره من الشح المدمر للحياة، وهكذا أمره مع الصوم الذي كرمه الله بالامتياز الخاص إذ يقول في الحديث القدسي الصحيح:

«كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به».

وللحج وهو خامس هذه الأركان عمله الكبير في القضاء على بقية الفوارق الإجتماعية في حياة المسلمين، ففي ظله تنصهر العصبيات وتذوب العنجهيات، ويستحضر المسلم مصيره يوم الحشر للجنة أو للنار... ناهيك بما يثيره ذلك

---

(١) انظر قصة هذا الصراع في الإصحاح ٣٢ من سفر التكوين.

التجمع الهائل في صدره من الشعور بعالمية الإسلام، وما يزوده به من علم حيٍّ بواقع المسلمين في مختلف أنحاء العالم.. أضف إلى ذلك كله ما تحدثه رؤية المشاعر المقدسة في خياله من ذكريات سعيدة لا تفارقه مدى العمر، إذ يحس بملء كيانه أنه يتحرك على الأرض التي شهدت أبا الأنبياء وهو يودع ولده الحبيب إسماعيل وأمه هاجر أحضان هذه الرحاب التي خلت من كل مقومات الحياة.. ثم شهدته وفتاه إسماعيل وهما يرفعان قواعد هذا البيت تنفيذاً لمراد الله، الذي أمره أن يؤذن في الناس بالحج، فراح ينادي دون أن يرى سامعاً، ومع ذلك ينفُذُ صوته إلى كل سميع كان أو سيكون.. ومنذ ذلك اليوم يبدأ تاريخ جديد لهذه الأرض الحبيبة إذ تهوي إليها أفئدة المؤمنين من كل صوب مشاة وعلى كل ضامر وفوق كل سابح وطائر. فيحس هذا الحاج أنه فرد من موكب يبدأ امتداده من أبعاد التاريخ، ولا يتوقف إلى نهاية الحياة الدنيا. فها هي ذي الكعبة التي يتجه إليها خمس مرات في اليوم والليلة مع مئات الملايين من إخوانه الذين أخذ الله عليهم العهد أن يكونوا شهداءه على خلقه وحَمَلة رسالته إلى الثقلين.. وها هنا غار حراء الذي شهد أول دفقة من نفحات الوحي الذي نزل على إمام المرسلين وخاتم النبيين، يقابله غار ثور الذي أوى إليه مع صدِّيقه ليكون منطلقهما في الهجرة إلى المدينة، التي شرفها الله بأن جعلها مستقر حبيبه وقاعدة دولته ومنطلق دعوته إلى أنحاء العالم، ثم امتنّ على المؤمنين بأن جعلها الحرم الذي يأرز إليه الإيمان من كل مكان.. وكفى بهذه الحقائق الربانية معجزة تجعل من أمة محمد ﷺ تجسيداً منظوراً لمدلول الحديث النبوي القائل:

«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

«مختصر مسلم: ١٧٧٤»

المسجد هو المنطلق

ولكن هذه الأركان تظل أشبه بمخطط دراسي يعجب القراء والمفكرين،

دون أن يعرفوا الطريق إلى تنفيذه للحصول على ثمراته المنشودة. ومن خلال التأمل في مسيرة التاريخ الإسلامي يتضح لنا أن أهم الوسائل لإخراج هذا المخطط من دائرة النظر إلى حيّز الواقع موقوف على عمل المسجد والبيت جميعاً، ذلك لأنهما المعهدان الرئيسان لتربية الفرد والجماعة في الإسلام، ثم تأتي الأسباب الأخرى لتكمل مهمتهما في الشارع والمصنع والحكم وما إليها من العوامل المساعدة.

كان أول عمل خططه رسول الله ﷺ عقيب وصوله قباء مهاجراً تأسيسه مسجدها الذي كان أول مؤسسة عملية لتربية المسلمين وتثقيفهم، وبعد أيام قليلة من وصوله أخذ سبيله إلى قلب المدينة حتى إذا بلغ بطن رانوناء أدركته الصلاة فأقام هناك أول جمعة أدّاها بالمدينة، ومن ثم واصل سيره إلى مقره في طيبة الطيبة، فكان أول مشروع أحدثه هناك تخطيط مسجده المبارك الذي شارك في بنائه مع كبار صحابته، وبهاتين المؤسستين وضع أساس المجتمع الإسلامي الجديد، فكان ذلك إيذاناً بارتباط أمته بالمسجد ارتباطاً أبدياً، ومنذئذ بدأ المسجد دوره العظيم في ترسيخ الوحدة التي يريد الله أن تكون منطلق هذه الأمة حتى تقوم الساعة.. فهو ملاذ المسلم يناجي فيه ربه خمس مرات في كل يوم وليلة، وفيه يتلقى أصول العلوم التي تصحح تفكيره، وتبصّره بالهدف المشترك الذي عليه يلتقي مع إخوانه المؤمنين، وعلى أيدي الصفوة من عمّاره يتعرف معاني الإسلام، ويتزوّد بالمقومات الفكرية التي تؤهله للمشاركة في علاج المشكلات الطارئة على مجتمعه.. وعن طريق الإنتظام اليومي في صلوات الجماعة تنطبع حياته بروح التعاون، فيحس أنه عضو في جسم لا يطيق مفارقته، ولا يستشعر الطمأنينة إلّا في كنفه، حتى إذا انطلق إلى عمله من الضرب في الأرض حاكماً أو تاجراً أو موظفاً أو عاملاً أو مجاهداً، كان المسجد ورواده وعلماؤه هم رفاقه المؤثرين في كل تصرفاته، وبقدر تفاعل المسلم مع هذه الموحيات يكون ولاءه لله ورسوله وجماعة المؤمنين، على حين يكون تباعده عن ذلك المنهج التربوي سبباً لانسلاخه في النهاية عن كيان أمته. وأبرز ما يكون هذا

الفصام في نفوس الأفراد والجماعات الذين هجروا صلاة الجماعة فباتوا نهباً لكل فكر شيطاني، لأنهم فقدوا الحصانة التي تعصم المسلم من الزيغ ومن اتباع غير سبيل المؤمنين. . ومن هنا كان المسجد مصنع أجيال السلف الصالح، فيه تلقى مبادىء الوحي صغيراً ومن عمالقته اغترف علومه كبيراً، وعلى ضوئه انطلق في الدنيا مبشراً ونذيراً.

البيئة الربانية

والمجتمع المسلم كالطائر في حاجته إلى الجناحين لتحقيق وجوده في الحياة، فإذا كان المسجد هو أحد جناحيه فالبيت هو جناحه الثاني، ولا سبيل لنهوضه إلا بسلامتهما معاً، وإنما بلغ المجتمع الإسلامي الأول ذروة كماله لتعاون البيت مع المسجد في تكوين الفرد الصالح، ونحن لا نستطيع تصور المأساة التي يعانيها هذا المجتمع عندما تتعارض مسيرة الكيانين، فيقوم المسجد بمهمة البناء على حين يقوم البيت بمهمة التخريب والهدم! . ويا لشقاء المسلم الذي تتنازعه قواصم الصراع بين الطريقتين، فلا يهتدي سبيلاً إلاَّ مَنْ رحم الله فتداركه بهداية لَدُنيّة من وراء الأسباب، وهو الوضع الذي صارت إليه الشعوب الإسلامية منذ بدأ انحرافها عن الجادة، إذ نسيت وصية ربها بقوله الحكيم:

وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ

[الأنعام: ١٥٣]

ولا غرابة فالمجتمع المسلم الذي غلب الفساد على أفراده لا يعدو أن يكون مجموعة كبيرة من الأصفار التي لا عمل لها، ومن هنا كان اهتمام الإسلام بالفرد وهو حملٌ في بطن أمه إذ أوجب له الرعاية الصحية فأعفى أمه من الصوم إذا كان يعرضه للضرر، حتى إذا خرج للدنيا وجد هذه الرعاية بانتظاره، فهو في مأمن من الجوع، وفي كفاية من العناية الكريمة التي تحوطه بكل ما يؤمِّن له النشأة

الصالحة، فإذا ما بلغ عهد التعليم جاءه العلم متدرجاً مع نموه العقلي، ثم لا يفارقه ما دام على قيد الحياة.

تلك هي البيئة الإسلامية القائمة على التعاون بين المسجد والمنزل، وتلك هي الأسرة التي نشأت على المنهج نفسه، وقد جعلت نصب عينها قول ربها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾

[التحريم: ٦]

ولم تكن بدعاً في تاريخ الصدر الأول قصة تلك الفتاة التي سمعها الفاروق وهي تحاور والدتها حول الحليب الذي تريد الأم مزجه بالماء طلباً لمزيد من الربح، فتأبى ابنتها مزجه طاعة لولي الأمر الذي نهى عن ذلك، لأن طاعته من طاعة الله، وما كانت لتطيعه شاهداً وتعصيه غائباً.. بل يمكن الحكم بأنها قصة الأمة كلها أيامئذ، لا يشذُّ عنها إلَّا النادر الذي لا يغير من ذلك الواقع النظيف شيئاً.. ولعل تلك الأم وهي تغري ابنتها بالإقدام على الغش، إنما كانت تريد استكشاف طوية الفتاة لتتبين مدى استجابتها لتعاليم الإسلام، وهو أسلوب في التربية لا نزال نزاوله لاختبار آثارها في نفس المتلقي.. ولا غرو فذلك شأن الأسرة التي لا تسمح لنفسها بالتفريط في هذه الأمانة التي أودعها الله إياها، وحمَّلها مسؤوليتها في الدنيا والآخرة، ففي ظلها يتلقى الفرد كلمة الحق وحب الخير مع طعامه وشرابه، وفي هذا الجو السعيد يتعرَّف المبادىء الأولى من المُثُل العليا التي بُعث بها خاتم رسل الله محمد بن عبد الله، وحمّل رسالتها أصحابه الأكرمين إلى أمم الأرض، لتصحيح مسيرتهم في الطريق الموصل إلى سعادة الدارين.. وما إن يشب عن الطوق حتى يجد نفسه في وسط الأسرة الثانية الكبيرة التي تشمل مجتمع المسلمين، فلا يستشعر شيئاً من الغربة، بل يحس بملء كيانه أن له بكل فرد من هذا المجتمع صلة قرابة من الأخوَّة والأمومة والأبوة، لا تقلُّ

عن صلته بأبويه وإخوته في الأسرة الأولى. . لأن المنهج التربوي الذي تخرَّج عليه هو نفسه الذي درج في ظله هؤلاء الآخرون. فالقيم العامة واحدة، والهدف الأعلى واحد هو التوصل إلى مرضاة الله، والحفاظ على بنية المجتمع الرباني من كل ما يخالف منهج الله.

ليقرأ الدعاة هذه الكلمات

ومن جميل الإتفاق أن أتناول الآن العدد ٩٢٩ من مجلة المجتمع فيقع بصري على مقال (صورة من الداخل) وهو خلاصة مقابلة أجرتها مجلة لواء الإسلام مع السيدة (ثناء حسن البنا) تعرض من خلاله صوراً رائعة لنموذج من التربية الإسلامية لا نكاد نقع على مثلها في بيوتنا. . وكان بودي لو نقلت المقال برمته إلى هذه الصفحات. . ولكن إذا لم يتسع المجال له كله فلا أقلّ من أن أقتبس بعض فقراته، تقول السيدة ثناء: «كان والدي ـ رحمه الله ـ هادىء الطبع واسع الصدر هيناً ليناً لم أذكر أن صوته ارتفع على أحد في البيت. . كان يعاون والدتي في بعض أعباء البيت رغم انشغاله بأعباء الدعوة. . يغمرنا بالمودة والرحمة. . وكان عقابه يتراوح بين إشاحة الوجه وإيماءة الرأس أو إشارة اليد، وأقصى ما عاقبني به أنه ضربني ذات يوم على يدي بقلم الرصاص. . فكان درسا لي لم أنسه. . كان يجمعنا حوله ويعطينا المصاحف ويقرأ علينا القرآن. . ويتعمَّد تقديم آية أو تلاوة آية شبيهة ليختبر مدى انتباهنا».

هذه بعض النقاط اقتطعتها من صفحة كاملة، وللقارىء أن يعود إلى تلك الصفحة بنفسه إن أراد أن يستكمل مضمونها الكثيف اللطيف. . وإنها لجديرة بالمراجعة لأنها صورة فكر انطبع بما قرأ من سيرة رسول الله ﷺ في القرآن والسنة، فتفاعل بها حتى أصبحت جزءاً لا ينفصل عن كيانه النفسي، تحقيقاً للتوجيه الأعلى الذي يتلقاه المؤمن من قوله تعالى:

﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾

[الأحزاب: ٢١]

ومن حق هذه الصورة أن تبعث الأسى في نفوسنا حين نتذكر بُعد ما بيننا وبينها. ليس بالنسبة إلى عامة المسلمين بل إلى صفوتهم من العاملين في ميدان الدعوة، الذين يحرقون أنفسهم لإضاءة طريق الآخرين، ولا يكادون يمنحون أهليهم من جهودهم لا قليلاً ولا كثيراً...

في مثل هذا الجو العابق بالفضائل ولدت أولى بواكير الوحدة الإيمانية، ففي مكة المكرمة كان القائد المعصوم يؤاخي بين كل سابق ولاحق من المؤمنين، فلا يحس أحدهما فراغاً من فقدان الأهل. بل يجد أهلاً أرحم به وأحنى عليه من أولئك الذين فارق ضلالتهم إلى الهدى الذي أنار جوانحه بالمودة والحب في الله. حتى إذا أشرق فجر الهجرة إلى المدينة المنورة واصلت هذه الأخوة المباركة مسيرتها فانتظمت سائرَ الأمة بروح من التضحية التي لم تعرف لها الدنيا مثيلاً من قبل حتى ليؤثر أحدهم أخاه الجديد على نفسه ولو كان به خصاصة.

الموكب الخالد

ومعلوم أن للناس على اختلاف مشاربهم روابط تجمع بينهم على أهداف محددة، حتى اللصوص وتجار المخدرات لا بدَّ لهم من أسباب تضمن لهم وحدة العمل والتعاون لصيانة أنفسهم من المخاطر المحدقة بهم، وللأحزاب كذلك مبادىء لا بد من التزامها تأميناً للمصلحة المشتركة، وهكذا المجتمعات والقوميات والتجمعات الأخرى لا مندوحة لها عن حد أدنى لاستمرار التعاون والتفاهم، ولكن كلها لا تعدو كونها روابط صورية لا تمس الأعماق، ولا بقاء لها إلا مع المنفعة، والمنفعة وضع متقلب لا يستقر على حال، شأن اليهود الذين كشف الله

لنا أسرارهم الخلفية، يتراءون للناظر متحدين فيحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى، وقد آرانا الحق سبحانه مصير هذه الروابط الزائفة بإزاء الإخاء الإسلامي، إذ يحشر الخلق جميعاً لأداء الحساب يوم الفزع الأكبر، فتتساقط الأقنعة وتبلى السرائر فإذا:

ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾

[الزخرف: ٦٧]

وإنما هي حقيقة كل من الفريقين تتجلّى يومئذ للناظرين عارية عن الزيف الذي طالما حجب ما وراءه من الزور، فإذا المبطلون ساقطون لا تخفى منهم خافية، وإذا المتقون وحدهم الناجحون في ذلك الإمتحان الرهيب، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاَّ مَنْ أتى الله بقلبٍ سليم، وكيف لا ينجح هؤلاء المتحابون بالله في ذلك الموقف الهائل وهم كانوا حَمَلَةَ النور يضيئون به الطريق للخابطين في الظلمات، ويرفعون الصّوى الهادية للتائهين إلى الجادة التي ترد إليهم الطمأنينة المفقودة والسعادة المنشودة، وقد قضت حكمة الله أن تكون تلك الدار الآخرة:

لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا

[القصص: ٨٣]

ثم لا ننسى أن هؤلاء الذين يخصهم الله بكل هذا الإكرام لم يكونوا أمة جيل أو قوم يتجمعون على هذه الفضائل لأمد محدود، ثم ينفضّون فتتفرق بهم السبل، ولكنهم أمة العقيدة التي تنتظم الأولين والآخرين من معتنقيها، وقد بدأت مسيرتهم من عهد محمد ﷺ ولن تتوقف حتى ينتهوا إلى كنف الله في جنة عرضها السموات والأرض، وإليهم تشير الآية الكريمة في هذه البشرى السعيدة:

وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ

[الجمعة: ٣]

وفي التعبير بـ (لمّا يلحقوا بهم) توكيد على استمرار الموكب الإيماني حتى يرث الله الأرض ومَنْ عليها . .

بين الأمس واليوم

تلك هي المنطلقات الرئيسة التي ينهض على أساسها ذلك المجتمع الرباني، إنها الإيمان بالله الواحد، ثم الأخوّة التي جمعت المؤمنين على المنهج الواحد، فكانوا بذلك خير أمة أخرجت للناس، ولكن لِمَ لا تعود هذه الأخوة إلى مسلمي اليوم وفيهم كتاب الله الذي أخرج سلفهم من الظلمات إلى النور؟.. وفيهم سنة رسوله كاملة، وقد وُضّحا بالشروح البالغة، وأبرزت أحكامهما في مدارس الفقه التي استوعبت حاجة البشرية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها؟.. أذلك لعجزٍ طرأ على شريعة الله.. أم لقصور في مدارك المنتسبين إلى ذلك الدين؟!.

أما الشق الأول من التساؤل فلا حاجة للتوقف بشأنه بعد ما أثبتت وقائع التاريخ وتراث الأئمة وشهادات أولي العلم من عمالقة البشر، أن شريعة الله لم تزل وستبقى حجة الله على خلقه بما تنطوي عليه من كنوز المعرفة، والحلول الخارقة التي عليها وحدها يتوقف خلاص البشرية من مشكلاتها المستعصية، وأمراضها الفتاكة التي تهدد الكرة الأرضية كلها بالدمار.. فلم يبق إذن سوى البحث في الشق الثاني من التساؤل..

وأول ما يواجه الباحث في هذا الجانب هو ضرورة المقارنة بين منهج السلف في التعامل مع شريعة الله وما انتهى إليه أمر المسلمين في عهودهم المتأخرة من البعد عن معطيات الإسلام التي نعِمَ بها السابقون..

هناك قاعدة إلهية كثيراً ما يمر بها المسلمون دون أن يعطوها حقها من التأمل.. وهي التي كانت موضع تفكير عميق من أولي العلم من الصحابة والتابعين. يقول الله تبارك اسمه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾

[محمد: ٧]

فها هنا ميثاق يعقده الله مع هذه الأمة مقروناً بوعده القاطع لها بالنصر والتثبيت في الطريق المحقق للنصر. بيد أنه وعد مشروط بأن يقوموا هم بنصره أولاً، وليس نصرهم إياه سوى الطاعة التي التزموا بها منذ أعلنوا إيمانهم بنبيه وكتابه.

أما الصف الأول من هذه الأمة ومَنْ تبعهم بإحسان فقد عرفوا قيمة هذا الميثاق فأعطوه حقه كاملاً حتى كانو بسلوكهم الأمثل صورة طبق الأصل لحقائق ذلك الدين، فكانوا مؤهّلين لنصر الله لم يتخلف عنهم قط حتى في لحظات الضعف، فما خاضوا تجربة إلاّ كانت خيراً لهم أو درساً مؤدياً إلى خير.. أما كيف تمَّ لهم ذلك؟.

فعن أبي عبد الرحمن السلمي: «حدَّثنا مَنْ كان يقرئنا من أصحاب النبي ﷺ أنهم كانوا يأخذون منه عشر آيات فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل. قال فتعلمنا العلم والعمل»[1] وهذا يعني أنهم وَعَوا حقيقة الرسالة فالتزموا سبيلها من الجمع بين العلم والعمل، موقنين أنهما من الإنسان بمثابة الروح والجسد، فلا حياة لأحدهما إلاَّ في كنف الآخر، فبالعلم يدرك الحي الفرق بين الأشياء والأحكام، وبالعمل يحقق أثر العلم في مجال التطبيق، ولن يكون العمل صالحاً إلاَّ إذا استرشد بنور العلم، ولا جدوى من العلم إذا لم يثبت وجوده عن طريق العمل الصالح..

وقد تجلَّت هذه الحقيقة على أتمها في حياة الأمة الإسلامية في ظل النبوة ثم معظم العهد الراشدي الذي لم يقف عند حدود الصدر الراشدي الأول، ولم يتوقف عطاؤه على مرِّ العصور، بل استمرت أشعته عبر القرون على أيدي الصفوة من القادة، الذين ما انفكّوا يُطلون بآثارهم المضيئة على هذه الأمة بين الحين والآخر،

---

(١) أخرجه أحمد وهو في جمع الفوائد برقم ٢٥٣ ج ١ وهناك أكثر من حديث في هذا الموضوع أحدها في كنز العمال ٢/ ٤٦.

على امتداد الساحة الإسلامية من أقصى الشرق إلى أدنى الأرض، ومن زمن الشتات الأول بعد صفين إلى أيام الصليبيين السابقين واللاحقين.

وفي كل هذه العهود المتباينة كانت عناصر الوحدة الإسلامية لا تزال سليمة تلفُ برباطها الوثيق شعوب هذه الأمة على تباعد ديارها، ولا غرابة في ذلك ما دامت هذه الشعوب مستمسكة بأسسها الأصيلة من الإيمان بالله ورسوله، واليقين باليوم الآخر، والمواظبة على عبادتها اليومية وفق توجيهات الكتاب والسنة.. إلى وحدة المفهوم العام للقيم الإسلامية ومسؤولية المسلم عن أعماله أمام الله، وما وراء ذلك من الوعي المشترك للحقائق الأولية من دين الله، ثم ما يستتبع ذلك من مشاعر التعاطف الاجتماعي الذي يجعل من الأمة صفاً مرصوصاً، الواحد فيه للكل والكل للواحد.. يضاف إلى ذلك كل ما يولده في قلوب الأفراد والجماعات من وحدة التصور ووحدة الثقافة التي على الرغم من تفاوتها في الحجم تظل هي القدر الجامع بين الجميع..

في مهب العواصف

هذه الوحدة التي ردَّت الإنسانية التائهة إلى نور ربها، وقدمت للعالم الأنموذج الأمثل للأمة التي بناها الإسلام إذ تخرَّجت على منهج الله، ووقفت نفسها على الدعوة إلى الله، تذكِّر عباده بأصلهم الواحد، فيتعلمون لأول مرة أنهم أبناء الإسلام لا أبناء القبائل والأقوام، وأن وجودهم مستمر لا انقطاع له، وليسوا هم سوى حلقة في هذه السلسلة المباركة تتبعها حلقات.

ما الذي أضعف هذه الوحدة فخبت أضواؤها بعد إشراق، وتقلَّصت وشائجها بعد انتشار، حتى كادت الأمة تستحيل أمماً، وحتى أوشكت الدعوة إلى تجديدها وإحياء ما اندرس من معالمها تغدو غريبة حتى على مسامع الكثيرين من المسلمين!!.

أولى القوارع التي نزلت بهذه الوحدة كانت على أيدي المضللين الذين أقاموا

قواعدهم في حواضر الدولة الإسلامية الفتية، وقد ركّزوا دعايتهم السامة في أوساط الجيل الثاني من أبناء المسلمين، الذين لم يكونوا مزوّدين بالخبرة التي تعصمهم من السقوط في حبائل الدساسين، وبخاصة المتظاهرين بالإسلام من أبناء النِّحَل الهدّامة واليهودية، إلى جانب أوزاع من العرب لم يفهموا من الإسلام إلا أنه منافع ومناصب عليهم أن ينتزعوها بأي ثمن.. وفي هذا الجو نشأت المؤامرات على الإسلام فهوجمت الخلافة في عقر دارها، وتسللت عوامل الفساد إلى عقيدة المضللين حتى عميت عليهم السبل، وحتى اضطر رابع الراشدين إلى إحراق العديد منهم بالنار وهم مصرُّون على عمايتهم..

الزلازل السياسية

وقد ساعد الخلاف السياسي على تنامي تلك الشجرة الخبيثة، فإذا هي تتفرع وتتمدد، فتكون منها فرق وفرق. ثم تنظيمات إغتيالية حاولت القضاء على كل القيادات الإسلامية خلال القرون. واجتاحت في مسيرتها الإرهابية شعوباً إسلامية وحواضر كانت زهرة الدنيا، وها هي ذي بقاياها حتى الآن تقف بجانب الطواغيت الذين يريدون تدمير الإسلام فيعرقلون مسيرة المجاهدين، وينتزعون أسلحتهم، ويحتجزون الوافدين لإسعافهم من أبناء الإسلام، بل يغتالونهم.. تماماً كما كان أسلافهم يفعلون في تعاونهم مع أعداء الإسلام من مغول وصليبيين، لإيهان قوى المجاهدين من إخوان نور الدين وصلاح الدين، وكفى بذلك دليلاً على الحقيقة التي يتجاهلها الكثيرون، وهي أن وحدة العقيدة هي الأساس الأول في وحدة المسلمين، ولا سبيل لاستعادتها إلاّ بتنقية الصفوف من العناصر المشبوهة والدخيلة والمتآمرة على هذه العقيدة..

وطبيعي أن يكون لهذه الزلازل السياسية أثرها البعيد في بنية المجتمع الإسلامي. فتنتشر الفوضى، وتتكاثف الفتن، وتتغلب المطامع الفردية على المصالح العامة، فتضعف روابط الأخوة في سواد المسلمين إلاّ مَنْ رحم الله. وقد شجع هذا الوضع المتداعي أعداء الإسلام المتربصين به على اقتحام دياره بأفكارهم

وأسلحتهم. ثم لم يغادروها مؤخراً إلاّ بعد أن أحالوها مِزَقاً لا تكاد تتلاقى إلاّ في كنفهم وبإشارتهم وعلى مناهجهم. وقد أَلِفَ المسلمون هذه الأوضاع حتى أصبحت في حساب بعض مسؤوليهم هي الأصل الذي لا يرتضون عنه انفكاكاً!.

وإذاً فماذا بقي من وحدة المسلمين بعد هذا التمزق المهين؟!.

بين التشاؤم والتفاؤل

يُقال إن المتشائم ينظر إلى النصف الفارغ من الكأس فيحكم على الكأس كلها بالفراغ، على حين ينظر المتفائل إلى النصف الآخر فلا يرى سوى الماء، فيحكم عليها كلها بالإمتلاء، والمتشائم إذ يفكر في واقع المسلمين وما يكتنفه من الأرزاء والجمود والفقر والتخلف العام، لا يلبث أن يستسلم لليأس من قدرته على النهوض للحاق بموكب المتسابقين في ميادين التقدم.. وأنّى له ذلك والمسافة فارقة بينه وبين أولئك مستمرة الإتساع، فإذا قدّر له أن يتقدم خطوة واحدة في الطريق الصاعد، فبمقابل الميل الذي يقطعونه أثناء هذه الخطوة.. فليس أمام المسلمين والحال هذه إلاّ الرضى بالواقع، وأن يظلوا عالة على منتجات الأمم التي استولت بنشاطها الحي على أزمة الحياة، ووصلت بإمكاناتها العلمية إلى مدارات الكواكب. مكتفين بالنظر إلى تحركها الجبار، فاغري الأفواه، يرددون مع ذلك الشاعر اللاذقي قوله الحزين الذي يصور به المأساة قبل نصف قرن:

ماذا يضركُمُ يوماً بني وطني	لو اخترعتم بهذا العصر (ماكينا)!
هذي أوروبة بالبالون قد عرفت	ما في السماء ولم نعرف أراضينا!
لسنا نقلدهم علماً ومعرفة	لكن نقلدهم (بوطا) و(بسطونا)!

ومن حق المفكر أن يغمره اليأس وهو يواجه واقع أمته، فيرى كل شيء فيها على غير الوضع الطبيعي، فالفكر الذي عليه يقوم بناء النهضات العلمية مقيد في حدود التقليد المحض، يردد مَقولات الآخرين دون تعمق لحقيقتها، وبذلك يفقد قدرة الإبداع التي هي أولى مهام التفكير الحر.

والأنظمة التي أول واجباتها تمهيد السبل لإطلاق الطاقات البناءة، قد جعلت مهمتها إقامة العقبات في طريق هذه الطاقات، فلا تسمح لها بالتحرك إلاَّ في خدمة الأهواء التي تضمن لها البقاء. . وقد نسيت أو تناست أن البقاء لله، وأن الأرض له، وأن الخلق عباده، ولو أمكن بقاء شيء من ذلك في يد مخلوق لما وصل إلى أيدي الآخرين. . .

وينظر هذا المفكر إلى أسباب الفقر الذي تعانيه أمته في ظل هذه الأنظمة، فيرى العجب الأعجب، فهي تعيش في أوسع المساحات، وأخصب البقاع، وأغناها بالثروات على اختلاف أنواعها، وتملك الفيض الهائل من الأيدي البشرية الصالحة لبناء الحياة، ومع ذلك فهي:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

فبدلاً من أن تستغني بهذه الثروات الطبيعية عن الآخرين، وتكون لها اليد العليا في إمداد المحتاجين، إذ هي أو معظمها ينوء تحت أثقال الديون الأجنبية التي تربطها بإرادة المستغلين، فلا يسمحون لها بالتحرك إلا في الإتجاه الذي يؤمن مصالحهم في أرضها، واستمرار سلطانهم على ثرواتها وأفكارها.

حتى في نطاق السياسة يحولون بينها وبين العمل بشريعة ربها، وفي نطاق المعاملات المالية لا يدعون لها حرية التصرف خارج حدود النظام الربوي، الذي يُعتبر من أكبر الجرائم في حكم الإسلام. . وها هم أولاء يصدرون أوامرهم إلى حلفائهم بعرقلة كل مشروع يقوم على أساس النظام الإسلامي وبخاصة بعد أن أثبتت التجارب الكثيرة نجاح هذا الإقتصاد في كل بلد برز على أرضه. . لأنهم واثقون أن استمرار هذه المؤسسات الإسلامية في سبيلها الموفق يهدد إقتصادهم الإستغلالي، وينذر بتحويل الأموال الإسلامية كلها إلى بلاد الإسلام، فيكون سبباً لتحريرها من (صندوق النقد الدولي) الذي يلعب بمقدراتها ومصيرها، ثـمَّ من براثن البنوك الربوية التي أثقلت كواهل الدول النامية بجبال الديون حتى عجزت عن الوفاء بفوائدها فضلاً عن أصولها!.

حركة الإحياء في الأمم الحية

وفي تجارب الأمم التي مُنِيَت بالخلل في كيانها الإجتماعي ما يؤكد أن السبيل الوحيد لمعالجته إنما تكون بالثقافة العلمية الصحيحة والبناء النفسي. وأمامنا أمثلة ذلك من اليابان وألمانيا الغربية، فقد خرجت كلتا الدولتين من الحرب العالمية الثانية محطمتين في كل جانب من حياتهما، ففي اليابان ذهبت التجارب الذرية الأميركية بمئات الآلاف من الضحايا، ولا تزال آثار تلك التجارب تعمل عملها الرهيب في بقية سكان المدينتين من أثر الإشعاع الذري. هذا إلى ما أصاب اقتصادها ومصانعها من أنواع الدمار. وهكذا القول عن ألمانيا الغربية التي فقدت الملايين من خيرة شبابها في تلك الحرب الطاحنة، وبلغ بها الإنهيار أن المرأة الألمانية اضطرت إلى بيع أولادها على الجانب السويسري بما يسد حاجتها وأبنائها من الطعام!.

كان من لطف الله بشعوب الدولتين أن استبقى لها بعض المواهب والقواعد الفكرية التي لم تأت عليها بوائق الحرب، فعلى مجهود هؤلاء قامت حركة الإحياء هنا وهناك. وكان عليهم أن يختصروا الزمن فلا يضيعوا أعمارهم في قال وقيل، وطبيعي أن أقصر السبل إلى هدفهم هو التركيز على الجانب العلمي الذي يصل طالب العلم مباشرة بأسرار المادة، فيدرس مركباتها ويخضعها للتجارب الفاعلة المنتجة. وفي الجانب النفسي يتجه المربون إلى إحياء الثقة بالنفس ثم بمواهب الجنس وقدرته على إعادة البناء وتوكيد الذات. وسرعان ما آتى هذا الكفاح الدؤوب أُكله، فإذا الأمتان تستعيدان مكانتهما العالمية والإقتصادية بالقليل من عمر الزمان، وإذا بإنتاجهما المتفوق يكتسح أسواق غالبيهما إلى حد يهدد اقتصاد هؤلاء بالبوار!.

والمفكر المسلم بخاصة عندما يطالع أنباء هذه التجارب الخارقة في حياة ذينك الشعبين، ومردودهما العظيم في مسيرتهما الدولية، لا بد أن يستغرقه الأسى العميق على واقع أمته وهو يرى إلى تخلفها العام.. ولن يتردد طويلاً حتى يضع

يده على السر في ذلك التخلف، إذ يراه أكثر ما يكون في التربية والتعليم، حيث المناهج المتناقضة، وليس بينها واحد يعبر عن شخصية أمته، بل ليست ـ في معظمها ـ سوى رُقَع من هنا وهناك، وهي في معظمها إنما تمثل تبعية أصحابها لشرق أو غرب أكثر مما تمثل حاجة المسلمين إلى الثقافة الصحيحة. . وكان مأمولاً أن يتولى القسمُ الديني من تلك المناهج عملية التصحيح لأخطائها لو عُهِدَ بها إلى مؤلفين أكفّاء ومدرسين ثقات يراعون حق الله وواجبهم نحو أمتهم فيما يقولون ويعملون. . ولكن ما أقلّ هؤلاء وأكثر العقبات التي تحول بينهم وبين ما يبتغون! . ولن نجد عجباً في ذلك إذا تذكرنا أن معظم هؤلاء وأولئك إنما يُنفِّذون في كتاباتهم ودروسهم مبادىء أحزابهم وأساتذتهم من تلاميذ المنصِّرين والمستشرقين، وكان الله في عون تلك الأجيال التي وضعت أزمتها في قبضة أولئك التائهين! .

غارة على البيت المسلم

ونظرة واعية إلى التغيرات الكبيرة التي اعترت المجتمعات الإسلامية منذ القرن الثالث عشر وحتى الآن، من مخلفات هذه الطوارىء، ترينا آثارها العميقة في ضعضعة الروابط الروحية المعهودة في ذلك الكيان. . فقد تسلل إليه غير قليل من العادات الأجنبية، وتكاثرت أعداد المنحرفين عن المنهج السليم الذي امتازت به الأمة طوال القرون، على الرغم من كل الأحداث والكوارث التي ألمّت بها.

ولعل أقرب هذه التغيرات إلى البصر ما طرأ على البيت المسلم والمرأة المسلمة من تطورات عميقة، فقد كثر دعاة التغريب في الأوساط المسلمة، واستطاعوا بإلحاحهم ودأبهم ووسائلهم الإعلامية المتجددة أن يُغروا الكثير من النساء المتعلمات بالخروج عن الطرائق الإسلامية إلى تقاليد الغرب من السفور والتبرج والإختلاط، زاحفين إلى أغراضهم تحت غطاء من المزاعم الدينية أول الأمر، حتى إذا حققوا بعض النجاح راحوا يعلنون تجاوزهم للأصول الإسلامية نفسها باسم التقدم والتحضر. وكان للإعلام الرسمي المتطور في معظم ديار

المسلمين أثره البعيد في تعميق هذه الإتجاهات حتى كادت تحجب كل صوت يعارضها. . فكان طبيعياً أن تترك هذه الفوضى طابعها على كثير من المسلمين، فيجاروها رغبة في التكيف المدني دون نظر إلى عواقبه، وهكذا نشأت شريحة من الأسَر المسلمة، والأفراد المسلمين، لا تقف من التغير عند حد معقول، بل تندفع بقوة للأخذ برأي القائلين: «إذا أردنا اللحاق بموكب الحضارة الغربية فلا مندوحة عن ممارستها عملياً بكل ما تحتويه من صلاح وفساد»(١).

وقد أصبح من بداهة المعلومات أن وراء هذه الهجمات الشرسة على أخلاقيات الإِسلام وثوابته الصريحة في الكتاب والسنة الصحيحة، عملاء المنصرين والمستشرقين من أبناء المسلمين الذين نُشِّئوا في محاضنهم وذابوا في بواتقهم فلم يعودوا بقادرين على التفكير والتنظير إِلاَّ من خلال ايحاءاتهم!.

وأسبق الظواهر الدخيلة إنما نبع من أسبق أقطار المسلمين إلى الوقوع في حبائل الإستعمار وأقدمها تمرساً بسلوكياته ومناهجه، وحسبك أن أول تجمع نسائي ضد الحجاب إنما انطلق من قلب مصر العزيزة تحت مظلة الإحتلال الفرنسي(٢) وأول صوت بالدعوة إلى السفور كان صوت قاسم أمين، وأول المنفذين لخطته تلك هي هدى شعراوي. ثم جاءت الدعوات التغريبية تترى من الغرب الإفريقي، الذي صدر منه أول صوت رسمي أعلن علمانية الحكم، ثم تبعته على الأثر أصوات أخرى من الجهات نفسها تدعو للتنكر للسنة النبوية، وهي نصف الإسلام، وأخرى تقرر انتزاع موضوع الجهاد الإسلامي من مناهج الدراسة، ويعلن غيرها شرعية السفور، وإلغاء إجماع الأمة والأئمة من الصدر الأول حتى اليوم على وجوب الحجاب الإسلامي الذي أثبتت تجارب العالم الغربي أنه صمام الأمن

---

(١) أنظر كتاب: مستقبل الثقافة في مصر لطه حسين. أو محاكمة فكر طه حسين لأنور الجندي ص ٣٤٢.

(٢) أنظر كتاب ـ ودخلت الخيل الأزهر ـ لجلال كشك.

الحائل دون انهيار المجتمعات البشرية. . ناهيك بتلك الأقلام المسمومة التي سبقت المرتد سلمان رشدي إلى محاولة تشويه الإسلام بما أصدرت في الغرب من كتابات ومؤلفات تفيض بالجهل والإفتراء على دين الله، الذي لم يبقَ سواه منقذاً للإنسان من مجاهل الضياع الذي ساقته إليه حضارة المادة، التي أغرقت العالم في مستنقعات البغي والتميز العنصري وأوحال الشهوات.

ولكن يأبى الله إِلاَّ أن يتم نوره فينهض العملاق الإسلامي من غفوته ـ كما أسلفنا ـ ليواجه تلك الهجمات الحاقدة بما يأتي عليها من القواعد، وها هي ذي الأقلام المؤمنة تقتحم الساحة بالنور، الذي يطارد الديجور، ويفضح دعاة الضلال.

بشريات من الجزائر

وما أبركها لحظة عندما وقع بصري في العدد ٩٥٣ من مجلة المجتمع على رسالة مكاتبها الجزائري المصورة بعنوان (النساء الجزائريات في أكبر تجمع من نوعه) يصف تظاهرة شملت قرابة المليون من فضيلات القطر الذي شرى حريته بمليون شهيد، نصرة لدين الله ورغبة في استعادة شريعته، ورداً على محاولات سبقت لعميان التغريب الذين سلختهم التربية العلمانية من فطرتهم الربانية لتضرب بهم الإسلام ولغة القرآن، ولتوهم المضللين أن المرأة الصِّيِّنة قد انتهى دورها في الجزائر المجاهدة، وبات الدور لأشباه نوال السعداوي الداعيات إلى تعدد الأزواج، واللاتي لم يجدن مكاناً يؤوي مؤتمرهن في بلد إسلامي فلجأن إلى كينيا قاعدة التبشير النصراني، ولم يلقين مَنْ يمول حركتهن الشيطانية إِلاَّ خزائن المنصِّرين!.

وقبل الأخوات الجزائريات شَرَعَت ابنة النيل في انتفاضتها المباركة بوجه الحملة المسعورة على مقومات الإسلام، فهي تزداد كل يوم عزماً وتصميماً فتبعث الأمل بتوسيع القاعدة الإسلامية وإيقاد الشعور المؤمن حتى تشمل الإنتفاضة كل مكان من إفريقيا العزيزة إن شاء الله.

وليس هؤلاء المؤمنات المنتصرات لشريعة الله إلاَّ نماذج للملايين من الأخوات المجاهدات لصيانة مجتمعاتهن المسلمة من عوامل التحلل والفساد، على الرغم من كل المعوِّقات والعقبات التي ينصبها في طريقهن الطغاة العتاة من أعداء الفضيلة والمروآت، والمضللات المخدوعات بزائف الدعوات. .

ولَتَعلمنَّن نبأه بعد حين. . .

الفصل الثاني:

الشورى الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة

من الأسرة إلى القبيلة فالحزب

ليس بالمستطاع تصور أي جماعة من الناس مهما قلّ عدد أفرادها تعيش على هذه الأرض مطلقة السراح يفعل كل منها ما يشاء دون ضابط أو وازع ينظم علاقة بعضها ببعض، ويكف عدوان بعضها على بعض.. ففي الأسرة وهي أول المجتمعات البشرية يتولى الأب المهمة أو الأم، فيوجهان أبناءهما إلى ما يتراءى لهما أنه الأصلح، فإذا ما تكاثرت هذه الأسرة تفرعت عنها أسر وأسر، ومضت على الطريقة الموروثة نفسها يحكم كلاً منها كبيرُها سواء كان الأب أو مَنْ يخلفه من أبنائه بعد موته.. حتى تتكون القبيلة فيرأسها الشيخ الذي يقع عليه اختيارها لما خبرته من صفاته التي تؤهله للقيادة والثقة كما يؤكد ذلك أحد شعرائهم بقوله:

وما سودَّتني عامر عن وراثة　　أبى الله أن أسمو بأم ولا أبِ
ولكنني أحمي حماها وأتقي　　رداها وأرمي مَنْ رماها بمنكبي

وفي ظل هذا الوضع تتكون المواصفات والتقاليد التي تشكل نظام القبيلة الذي يحدد لكل فرد منها مسؤوليته بإزائها فلا يحيد عن إجماعها قيد شعرة.

ثم يأتي دور تفرع القبيلة نفسها إلى مجموعات قبلية، لا تلبث أن تتحول إلى أوضاع حزبية فتستبدل بولائها للقبيلة ولاء للمنفعة تدور معها حيث دارت.

وهنا يبدأ التنافس على المناصب القيادية، ولكن سرعان ما يحسمه التجمع الغالب الذي عن طريق القوة يفرض تنصيب من يختاره..

صور الحكم بين الفرد والجماعة

وأياً كانت صورة الحكم في هذه المراحل فلا بد لرب الأسرة، أو شيخ القبيلة أو رئيس الحكومة من الإستعانة بآراء المقربين إليه من ذوي التميز والخبرة، ومع التطور المستمر تتركز أسس الدولة على قاعدة التخصص، فتُقسّم السلطات تسهيلاً لإدارتها، ويقوم على رأس كل سلطة مَنْ يتولى شؤونها بإشراف الرئيس الأعلى.. ومن الطبيعي أن تتصادم الأفكار والمصالح بين هؤلاء المسؤولين حتى يضطروا إلى الإتفاق على نوع من التنظيم يخفف من أخطار ذلك التصادم.. ومن هذا المنطلق تبرز صورة جديدة لأنواع الحكم لكل منها خصائصه المميزة. فقد تتغلب على أحدها عصبية قاهرة، فتجمع السلطات كلها في أيدي الرئيس وجماعته، فيكون الإستبداد، وقد ينتصر أولو الرشد فيكون التعاون.

ذلك عرض مجمل لمسيرة الحكم من أبعاد التاريخ البشري، فإذا مضينا في تعقبها ببعض التفصيل رأينا أن تجارب الإنسان في عملية الحكم لم تخرج حتى اليوم عن الأنواع الثلاثة التالية:

الأسلوب الإعتباطي المستند إلى القوة فلا سند له ولا منظور له إلا ما تمليه الحاجة الطارئة إلى جانب الموروث من تجارب الآخرين، وهذا النوع البدائي صائر إلى التواري بفعل التطور الحضاري. ويبقى التنافس بين الإثنين الآخرين، أقدمهما في الزمن ذلك الذي تَلَقَّاه الجنس البشري منذ اللحظة التي أشرف فيها على مرحلته الأرضية، مزوداً بالتوجيه الإلهي الذي يحدد له المسلك الآمن في ضوء التعاليم التي وعده الخالق الحكيم باستمرارها..

ثم يأتي الثاني الذي انطلق من زاوية الإنحراف عن ذلك المنهج، فما زال في تباعده عن الأصل حتى قطع صلته به، ومن هذا المنطلق كل الأنظمة التي أدارت ظهرها إلى الوحي واكتفت بتجاربها الخاصة في التعامل مع الكون، فهي تستقيم حيناً وتضطرب أحياناً. فلا تزداد إِلاَّ إيغالاً في المجاهل وبعداً عن الأمن المنشود، لأنها قررت أن لا إله وألاَّ سلطان لله على الأرض، وأن ليس في الحياة سوى

المادة. فمن أجل الظفر بمتاعها يتواصل الصراع الذي يحيل الأرض غابة ضوار.

وطبيعي أن تكاثر الآخذين بهذا الأسلوب الإنحرافي لم يخفت صوت الآخرين لأنه صادر من أعماق الفطرة التي لا قرار لها إلاَّ في ظلٍّ الكيان الذي جعله الخالق مناط الأمن والسلامة والاستقرار، فهم أبداً عاملون لتثبيته في الأرض، ولردِّ الشاردين عنه إلى ساحة النور.

ومن هنا كانت العلاقة بين هذين الإتجاهين علاقة تضادٍّ كل منهما يريد انتصار منهجه، فإذا صرخ الماديون بشعار الجاهلية المتمثل بقولها (أعلُ هُبل) قابلهم صوت المؤمنين بالكلمة الخالدة (الله أعلى وأجل).

وبينما نرى أولئك الإنحرافيين سادرين في حيرتهم لا يزيدون الحياة إلاَّ اضطراباً وشقاء ورعباً، نشاهد هؤلاء الربانيين يواصلون مسيرتهم النيرة على ضوء الوحي الذي يقرر في كتابه المحفوظ:

وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ

[الحج: ٤٠]

ويحدد مهمة أوليائه بقوله في وصفهم:

ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾

[الحج: ٤١]

فهم على أتمِّ الثقة بنصر الله، مهما تأخر في ظاهر الأمر، وقد ملأهم اليقين بأنهم هم المسؤولون الوحيدون عن هداية عباد الله إلى التي هي أقوم، بعد أن فقدت الرسالات المحرفة فاعليتها في تبديد الظلمات، واقتصر عمل الإله عند أهلها على الرمز العديم الصلاحية، كشأنه في نصرانية شاؤول التي اعتبرت ربها محبةً فقط!

ومن هنا كان الحديث في موضوع الحكم الإسلامي، والمنهج الذي يحدد معالمه من خلال الكتاب والسنة، لتجلية ما غمض من أصوله، في رأس الواجبات وبخاصة في هذه الأيام التي انبعثت من خلالها مزاعم العلمانيين والمضللين تحاول إقناع المغفلين بأن الإسلام لا يعدو أن يكون رسالة توجيه وتأديب فلا صلة له بالحكم والسياسة، جاهلين أو متجاهلين تقرير الله من فوق سبع سماوات في خطابه لرسوله القائل:

إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ

[النساء: ١٠٥]

وهل يكون هذا الحق الذي أنزله الله في قرآن ليحكم به بين الناس، سوى الأصول التي تؤلف نظام الحكم الأمثل!!. فكيف إذا علمت أن المراد بقوله سبحانه ﴿بما أراك الله﴾ هو العلم الذي زوّد الله به نبيه فعلّمه ما لم يكن يعلم، وبه يعلم المؤمنين ما يجعلهم أئمة الأمم في الحكم الرشيد والقضاء المحكم..

الشورى قمة التطور

وقد شاء الله جلت حكمته أن يكرم أمة محمد بالشورى أساساً لإدارتها السياسية والإجتماعية فأمر رسوله المعصوم أن يستعين بآراء أهل الخبرة من حوله. ومما يسترعي الإنتباه أن أول توجيه إلى الشورى في الكتاب المجيد أثناء الحديث عن معركة أحد وما صاحبها من أحداث خطيرة في سورة (آل عمران: ١٣٩ ـ ١٨٠) حيث جاء العرض القرآني مصوراً للمواقف المختلفة التي تميز بها جماعة المسلمين الذين خرجوا للقاء العدو، فكان بينهم المترددون الذين (استزلّهم الشيطان ببعض ما كسبوا) فغادروا ساحة المعركة هائمين على وجوههم من صدمة النبأ المعلن عن مقتل رسول الله ﷺ، وكان فيهم الرماة الذين غلبهم حب الدنيا فتركوا مواقعهم في الجبل حين رأوا الكفة تميل ضد صالح المسلمين، مخالفين وصية نبيهم الذي أكد عليهم ألّا يزايلوا مكانهم مهما تكن النتائج.

في هذا الجو المشحون بالأهوال وبالتناقضات يتنزل قول الله الحكيم العليم:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾

[آل عمران: ١٥٩]

هذا الأسلوب العجيب من التربية الربانية لا يتصور مثله في أي نظام وضعي، بل الذي يتوقع من أي نظام في مثل هذه الظروف أن يصدر أمر القيادة باعتقال كل المسؤولين عن نتيجة المعركة، ثم يقدموا إلى محكمة عسكرية تطيح برؤوسهم ليكونوا عبرة لا تُنسى.. ولكن حكمة الله قضت بأن تعالج أخطاء المؤمنين يوم أحد على هذا النحو الذي يربط الحاضر القريب بالمستقبل البعيد، فيجعل من تلك الأخطاء مناسبة لتقويم عوجهم وتصحيح تظرتهم، وتدريبهم على التفكير السديد، الذي ينسجم مع رسالتهم الربانية، فلا تستهويهم مغريات الحياة الدنيا، بل يكون تصرفهم كله باتجاه مرضاة الله. وعلى هذا الأساس جاء الأمر الإلهي بالعفو عن زلتهم وبالإستغفار لهم، ومشاركتهم في علاج المشكلات العارضة، لأن صفة الإيمان شفعت لهم في ما اقترفوه في لحظات الضعف وأهلتهم للمشاركة في شؤون أمتهم.

الشورى سلوك ومنهج

ولكن هذه الشورى لا تقف في الكيان الإسلامي عند حدود الإدارة العليا فحسب، بل هي صالحة لسائر التنظيمات الإجتماعية، يؤكد ذلك مفهوم الحكم الإلهي بقوله تعالى في وصفه ذلك المجتمع:

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾

[الشورى: ٣٨]

فهو وصف مطلق صالح للتطبيق في كل مناسبة، ففي الأسرة يمكن للأب أن

يستشير أهل بيته في كل طارىء يحتاج الى الرأي، فإذا اتسعت فروع الأسرة أمكن تأليف مجلس عائلي للنظر في كل نزاع يعتريها، كالذي يشير به القرآن العظيم من إحالة الخلاف الزوجي إلى حَكَمَين من أهل الزوجين، وكذلك الشأن في المصانع والشركات وما أشبهها.

ولقد كان رسول الله أكرم العاملين بمبدأ الشورى في كل ما يواجهه من المشكلات خارج نِطاق الوحي، ومن كلامه المشهور في هذه الأحوال:

«أشيروا عليَّ أيها الناس»[1].

وهل ننسى موقفه قُبيل ملحمة بدر إذ جمع كبار أصحابه يستشيرهم في ما ينبغي عمله، وبعد الملحمة عمد إلى استشارتهم في أمر الأسرى، ومن قبل كان قد نزل بالصحابة وراء الماء، فأشار عليه الحباب بن المنذر بالتقدم حتى يحرم العدو منه، فما لبث أن أخذ برأيه..

وقبل الخروج إلى أحد أقبل على الصحابة يستمع إلى آرائهم، وكان يميل إلى الإعتصام بالمدينة، ولكنه تخلَّى عن ميله، وأخذ برأي الأكثرين الذين يؤثرون لقاء العدو خارجها.

وقد استمر سلوك الصحابة على منهج نبيهم بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، فكان للصدِّيق مستشاروه من كبار الصحابة، وكان للفاروق بعده مستشاروه، بل إنه ليستشير في شؤون الحكم الشيوخ والشباب والنساء بغية الإفادة من تجارب الجميع.

وعلى الرغم من تسرب الاضطراب إلى عملية الحكم خلال الأحقاب التي تلت عهد الراشدين، فقد ظلت الشورى تتفاعل في صدور الصالحين من الحكام وبخاصة أثناء القرون الثلاثة الأولى، إذ كان لأئمة العلم الشرعي أثرهم في توجيه

---

(١) قال ذلك يوم بدر ـ ابن هشام ١/٦١٥ وقبلها في قصة الإفك قال (أشيروا عليّ معشر المسلمين) تفسير ابن كثير ١/٤٢٩.

دفة السلطة إلى التي هي أقوم، وكان من الخلفاء والقادة مَنْ يسارعون للإفادة من خبرات أولئك الأئمة فلا يتجاوزون توجيهاتهم في معقدات الأمور.. وقد ساعد على استمرار ذلك الإتجاه ترفّع العلماء عن شهوات الدنيا، وجرأتهم البالغة في الصدع بكلمة الحق، ثم تجاوب الحاكمين مع هذه الكلمة بما تحمله نفوسهم من خشية الله، وبتقديرهم العميق لفضائل هذه الفئة المؤتمنة على دين الله، وبخاصة أن بين هؤلاء الحكام رجالاً عرفوا بالمشاركة العلمية فلا يكادون ينقطعون عنها حتى في ساحات النزال..

ولقد حدثنا ثقاتٌ من أصحاب الملك عبد العزيز آل سعود بما يؤكد أن هذا النهج لا يزال له بقايا صالحة من مخلفات السلف، ويتجلى ذلك بأن سراياه لم تخلُ قط من فقهاء وهبوا أنفسهم للعمل وللحق فإليهم يعود النظر في كل معضلة تستدعي الفقه، فإذا ما أصدروا القرار أحيل إلى القادة لتنفيذه.. وهكذا يتحقق المنهج الشوري في تعاون تام بين السلطتين التشريعية والتنفيذية حتى في ظل المعارك. فإذا ما التفتنا إلى سيرة الملك في أيام السلم وجدنا أنموذجها ماثلاً في مجالسه التي لا تخلو البتة من قراءات ومذاكرات في التاريخ والتفسير والحديث والفقه، وهي الظاهرة التي لا تبرح ديدن أهل العلم في هذه المملكة لا يكاد يتخلى عنها مجلس فيما علمنا. ولقد كان من فضل الله علينا أن أتاح لنا معايشة هذا النهج على مدى اثني عشر عاماً قضيناها في صحبة الإمام عبد العزيز بن باز أمدّ الله في حياته، وفيها العلم والنقاش وفيها الكثير من مميزات الشورى الإسلامية إذ تُعرض المشكلة في الإجتماع الأسبوعي الذي يعقده مجلس الجامعة برئاسة الشيخ، فلا ينسى أن يؤكد علينا بوجوب الصراحة في إبداء الرأي، ولو أدى ذلك إلى مخالفته في ما يذهب إليه.

بين اجتهادين

وحتى الان لم نكد نتجاوز في موضوع الشورى نطاقها العام القائم على التناصح بين أفراد المجتمع تحقيقاً للمبدأ القائل (ما خاب من استشار، والمستشار

مؤتمن).. فأين موقع هذه الشورى بالنسبة إلى النوع الخاص الداخل في عملية الحكم؟..

ومعلوم أن غير قليل من الباحثين في الجانب السياسي من الفقه الشرعي قد ذهبوا إلى القول بأن على ولي الأمر أن يستشير ذوي الخبرات المختلفة في الشؤون العامة إلا أنه غير مكلفٍ العملَ بما يبدونه من آراء، فاستشارته إياهم لا تتعدى حدود الإستئناس دون الإلزام! وحجتهم في ذلك قوله تعالى لنبيه:

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾

[آل عمران: ١٥٩]

فعلى ولي الأمر أن يشاورهم تدريباً لهم على التعاون في الشؤون العامة على أن يبقى له الحكم وحده في كل ما يطمئن قلبه إليه.

يقابل ذلك الإتجاهَ اجتهاد آخر يقول بأن رسول الله ﷺ لا بد أن يكون فوق مقررات مستشاريه المعرَّضين للخطأ والصواب على حين يظل هو في رعاية الوحي يسدده بالتوجيه الأعلى، الذي يعصمه من أي شطط قد يتعرض له الآخرون، وقد انتهت تلك المرحلة بوفاته صلوات الله عليه وسلامه، فليس لأحد أن يدَّعيها من بعده، ومن هنا يتعين أن يكون للمسلمين المنهج الذي يحدد مسؤولية الولاة فيقيد تصرفاتهم في الحدود التي تمنع انزلاقهم إلى مهاوي الطغيان.. ولن يكون ذلك إلَّا في نطاق الشورى الخاصة التي تحقق مقاصد الشريعة المتمثلة في قوله تعالى في وصف مجتمع المسلمين:

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾

[الشورى: ٣٨]

بين الاستشارة والشورى

وعلى ضوء ذلك التحديد نستطيع ملاحظة الفرق بين قوله تعالى:

﴿وشاورهم في الأمر﴾ وقوله: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾.

ففي الفقرة الأولى نجد أنفسنا أمام وضعين يمثل أحدهما «المستشير» وهو الرسول القائد ويمثل الآخر «المستشارين» ـ وهم أهل الرأي والجماعة ـ المدعوين لتقديم خبرتهم لصالح الأمة، على حين نشاهد في الفقرة الثانية مجموع الأمة ممثلة في هؤلاء المؤهلين لتقديم المشورة في كل أمر يستدعي التعاون بينهم للوصول إلى الحل الأمثل الذي يتطلَّع إليه الجميع.. فليس ثمة واحد يستشير وآخرون يُستشارون، بل الكل في انسجام تام جاهدين للبحث حتى الظفر بما يحقق مصلحة الكل...

وهي الصورة التي تذكِّرنا بتجمعات الشعوب السويسرية في ساحاتهم العامة للنظر في ما يقترحه نوابهم من قوانين تساعد على تطورهم الصاعد في مختلف جوانب الحياة العامة.. ثم ينفضّون وهم على أتمّ الثقة بالنظام الذي يتولى تحقيق مصالحهم العليا لأنه منبثق من إرادتهم وتطلعاتهم جميعاً.. وما حاجتنا إلى النموذج السويسري وأمامنا المثل الأعلى في عمل الرسول ﷺ إذ يواجهه الأمر الهام فيبعث مَنْ ينادي بالناس (الصلاة جامعة) فيتدفقون على المسجد فيطرح الموضوع عليهم، فيدلي أولو الألباب بما يرون فيه...

هذا مع استمرار هذه السنة في الجُمَع العادية، حيث يتولى الإمام معالجة قضايا الساعة في خطبة الأسبوع، ولم تتعطل هذه السُنَّة إلا في ظروف الفتنة التي ضربت حصار الغوغاء على ثالث الراشدين وإلا بعد أن تكاثر سواد الأمة، وانتشر المسلمون في الآفاق، حتى استحال تجمع الناس لمعالجة قضاياهم العامة في المسجد..

ولعل أهم ما يعوزنا هذه الأيام من مؤشرات ذلك العهد النموذجي تلك المعالم التي رسمتها لنا أحداث الصدر الأول عقيب غياب القائد المعصوم، فحددت لنا المنهج الذي يجب سلوكه لمعالجة المشكلات المتجددة.. وفي رأسها قضية اختيار القيادة الصالحة لمواصلة المسيرة نحو التي هي أقوم...

إنها المعجزة... فكيف حصلت؟!

كانت الفاجعة بوفاة رسول الله أخطر حدث تواجهه الأمة على امتداد التاريخ الإسلامي، إذ كان الجو مهيئاً لفتنة تذهب بكل شيء لو كان الأمر مقصوراً على بشر يتنافسون على منافع الأرض، فلا ترضى مجموعة بتفوق غيرها فيلجأ الجميع إلى السيف يدفعون به عن مطامحهم ومصالحهم، كالذي نشهده هذه الأيام في عاصمة الصومال التي ما إن حطّ المنتصرون رحالهم داخلها، ليستردوا بعض أنفاسهم عقيب المعارك الطاحنة مع الطاغية المهزوم، حتى تحركت نوازع العصبية والقبلية لتقسمهم فريقين يقتل بعضهم بعضاً دونما رحمة ولا تقدير للعواقب. وليست هذه العصبية الصومالية بأشد خطراً على القوم من عنجهية الأوس والخزرج قبل إسلامهم، وقد زادتها حوافز الفتنة قوة بما يحوكه اليهود من المؤامرات على كلا الفريقين ولا سيما المهاجرين، الذين طالما عملوا للإيقاع بهم والنبي بين ظهرانيهم.. فكيف يفوّتون على أنفسهم هذه الفرصة المغرية بتحريش كل على كل، لتعود الجاهلية كأمسها المظلم لا ترى العين فيها طريقاً إلا تحت بوارق السيوف!...

ولكن وراء الأحداث عين الله الذي يأبى للحمية الجاهلية والمؤامرات اليهودية أن توقف المسيرة النبوية، فترد المؤمنين على أعقابهم وهم الذين:

﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾

[الأعراف: ٢٠١]

لقد استطاع الشيطان أن يوقظ نزعات الجاهلية في بعض صدور المؤمنين للحظات، فانطلقوا يهددون بالعودة إلى أيام بُعاث وأخواتها ليعيدوها جذعة.. بيد أن الإيمان كان أقوى من همزات الشياطين فإذا بتلك الأصوات تخرس، وإذا بحمية الجاهلية تنطفىء، وإذا بالإسلام يسجل أكبر انتصاراته على محاولات المردة من اليهود والمنافقين، فينتهي الخلاف الفكري إلى الوفاق الإيماني الذي ما لبث أن فتح لهم أبواب الدنيا يضربون فيها فاتحين ومعلمين ومنقذين...

فكيف تمت هذه المعجزة؟!! . . .

البيعة التي كانت فلتة!

كانت جموع الصحابة تنتشر حول المنزل الذي يضم الجثمان الأكرم يتقدمهم كبار المهاجرين العاملين في تجهيزه حين جاء من أقصى المدينة مَنْ يخبر الشيخين الصدِّيق والفاروق باحتشاد جمهور من الأنصار في سقيفة بني ساعدة عند كبير الخزرج سعد بن عبادة رضوان الله عليهم، فلم يتلبثا أن مضيا ومعهما أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح. . وقد ساورهم القلق من أن يحدث في ذلك الإجتماع ما ليس في مصلحة الجماعة، وقدر الله أن يدركوا إخوانهم يتداولون الرأي في المصير الذي ينبغي أن يستقبلوه عقيب الصدمة. . وما إن أطلوا عليهم حتى فسحوا لهم السبيل وأقبلوا عليهم بأبصارهم وآذانهم يتطلعون إلى ما عندهم من الرأي. وكانت المناسبة أضيق من أن تتسع للتردد، فأخذ المبادرة أبو بكر فعالج الموقف بأفضل ما أوتيه من الحكمة، وبذلك تهيأ الجو لإطلاق الحل الذي لا متسع لغيره، فبدأت مبايعة الصديق، وتتابع الحضور عليها حتى لم يتخلف عنها سوى كبير الخزرج سعد، الذي كان أسير المرض فلم يتوافر له الوعي الكافي لتقدير الموقف، ولما ثاب إليه وعيه ورأى نفسه منفرداً بواقعه عن الجميع لم يجد بداً من مفارقة المدينة إلى الشام حيث قضى نحبه بعيداً عن أهله وإخوانه جميعاً رضوان الله عليهم.

يقول الفاروق رضي الله عنه «كانت بيعة الصديق فلتة وقى الله شرها». . . فهو يحذِّر المسلمين أن يقدموا على مثلها فيتعرَّضوا لما لا يتوقعون من العواقب. وحقاً إنها لَفَلتة ولكنها فلتة أوجبتها الظروف التي لم تدع لذلك الحشد مجالاً للتحرك في غير الإتجاه الذي صارت إليه. أما كونها فلتة فعائد إلى ما كان ممكناً حدوثه من ارتفاع بعض الأصوات للإعتراض والخلاف، ولو قُدّر ذلك لعمّ الهرج، ولطاشت الأحلام، ولانفتح باب الشر على مداه. . وإنما وصفها الفاروق بذلك لأنها لم تكن جامعة لسواد المسلمين، وقد غاب عنها غير قليل من شيوخ المهاجرين والأنصار، بيد أنه لم ينكر شرعيتها، إذ كانت موقفاً استثنائياً أشبه

بجراحة اقتضاها طارىء من حدث مهلك فلا مخلص منه إلاَّ بالجراحة، وأين للمسلمين مثل أبي بكر تُجمع القلوب على حبه وتوقيره، حتى لتنقطع إليه الأعناق ـ كما يقول الفاروق ـ هذا إلى أن في ذلك الجمهور المبايعِ ما يمكن القول بأنه يمثل الرأي الغالب لمجموع الأمة. وفي الحديث:

«المؤمنون يد على من سواهم ويجير عليهم أدناهم. .»(١)

فكيف بهم وفيهم وزيرا رسول الله ﷺ الصدّيق والفاروق، وأبو عبيدة الذي سماه أمين الأمة... وقد تأكدت تلك الشرعية فيما بعد بإقبال الأمة كلها على متابعة البيعة حتى لم يتخلف عنها أحد...

ومع ذلك فنحن اليوم في غنى عن مثل تلك المغامرة التي اضطر إليها أهل السقيفة رضوان الله عليهم، إذ نكون في أمان من الفلتات بما قد أُعِدّ لتأمين مصلحة الأمة في ظل النظام الشوري الممثل في مجلسه الذي يجسِّم إرادتها الحرة..

فأعضاء هذا المجلس هم أهل الحل والعقد، وفيه يجري اختيار الرئيس الأعلى للدولة، ومن ثم تؤخذ له البيعة العامة من أفراد الأمة.

وبهذا المنهج المتكامل يتركّز النظام الأساسي لإدارة الدولة العليا، وتنعم الأمة بالإستقرار الآمن، إذ يكون كل شيء قد وضع في محله، وعرفت كل هيئة مسؤوليتها المحددة.

وهكذا يرتفع لنا من خلال تلك التجربة الرائدة المعلم الذي يرشدنا إلى أفضل الطرق لاختيار إمام المسلمين..

ولئن حالت بساطة التركيبة الإجتماعية أيامئذ دون تدوين تلك العملية في أساسيات الحكم فقد آن لأمناء الأمة من كبار علماء الإسلام أن يتداركوا ذلك بالنص الدستوري على أنها دون غيرها هي الواجبة التنفيذ في اختيار الإمام اللاحق

---

(١) رواه أحمد والبغوي والترمذي وهو في درجة الحسن.

كلما خلا مكان السابق، وبهذه الطريقة تسد الأمة منافذ الفِتَن التي من خلالها يتسلل المخربون إلى سدّة الحكم فيسلُّطون على مقدراتها وكرامتها وقيمها من لا يرقب فيها إِلاًّ ولا ذمة. . .

المبدأ المنطلق من يوم العقبة الثانية

والحديث عن مجلس الشورى يقتضي بيان الخطة التي على أساسها يتم تكوينه. . وعلى دأبنا في استنباط القواعد الحكمية من خلال المسيرة السلفية نحاول الوصول إلى هذه الأصول.

كان عدد الوافدين من أنصار الله لمبايعة رسوله يوم العقبة الثانية كبيراً إلى الحدّ الذي يستحيل معه الحوار المنتج، لذلك جاء التوجيه النبوي الحكيم بأن يختاروا من بينهم نقباء ينوبون عنهم ويكون قرارهم نافذاً على جميعهم. وهكذا تحقق المطلوب على خير وجه، وجرت المفاوضة بين الرسول القائد ومجموع النقباء الإثني عشر حتى انتهى الأمر إلى البيعة فتتابعوا على أدائها في صيغة حكيمة تعتبر المنطلق الأول لروح النظام الذي سيحكم المسلمين على اختلاف مواقعهم وهوياتهم وأزمانهم. .

ومن المعلومات البديهية لدى أولي الألباب أن كل حكم يصدره رسول الله ﷺ أو يقـ ء فهو شريعة لا مناص من الأخذ بها. واختيار نقباء الأنصار للتعاقد باسمهم إنما كان بأمر من رسول الله ﷺ، فهو إذن مؤشر صريح إلى الخط الذي يجب على الأمة انتهاجه في كل المناسبات المشابهة. ولا مناسبة أحق بالتزام ذلك الخط النبوي من قضية النظام الذي على أساسه يقوم بناء الدولة الإسلامية:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾

[الأحزاب: ٣٦]

وأي ضلال أضل مما انتهى إليه المسلمون بمخالفتهم لمنهج رسول الله. .

ولا حاجة إلى الإسهاب في التفصيلات الجزئية لهذا المنهج النبوي، فالمهم هو تحديد الأسس التي يقوم عليها «البناء» ويبقى تحديد الجزئيات الضامنة لاستكماله من صلاحية أولئك النقباء الذين سيؤلفون المجلس المنشود تحت عنوان «مجلس الشورى» أو «الجمعية التأسيسية» أو «مجلس الأمة» أو أي مسمى آخر يتفقون عليه. ويلحق بهذه الصلاحيات تعيين الصفات التي يجب توافرها في الأفراد المؤهلين لتمثيل الأمة وطريقة الإنتخاب والضوابط التي لا مندوحة عنها لصيانته من التزوير الذي ألفناه من تُجّار الحكم. .

ومن الطبيعي أن يتولَّى هذا المجلس عن طريق لجانه المختصة تزويد الدولة بالتنظيمات الإدارية والحقوقية التي تستوعب منطلقاتها وتؤمِّن حاجاتها، على النحو الذي بلغته أرقى التنظيمات الدولية، فلا يبقى في كيانها مجال للتصرفات الإستثنائية القائمة على مجرد الإجتهاد والإرتجال بل كل شيء مقيد بالنصوص الهادية، وبذلك تُسَدُّ الثغرات التي سبق أن ضيعت على المجتمع الكثير من عوامل الإستقرار، وتتفادى الأمة كل المخاطر التي تصاحب الإنتخابات النيابية العامة عادة، إذ تقطع أيدي الإنتفاعيين عن التلاعب بمقدراتها، علاوة على المميزات التي ستنفرد بها تلك المؤسسات من حيث احتواؤها على كل الخبرات التي تملكها كل الفئات، مع الحفاظ التام على الطابع الأصيل الذي يبرز امتيازها على سائر التنظيمات.

ولحماية هذا الكيان من عبث المخربين لا بد من النص على اعتباره أحد الأركان الهامة في البنيان الأساسي لسياسة المجتمع بحيث لا يقبل أي تبديل أو تعديل.

النقابات لا الأحزاب

من هذ المنطلق الحكيم تتحرك قافلة الحكم الإسلامي المتميز. فهي وفق طابعها العام وسط بين الديمقراطية المتفلتة والإشتراكية الخانقة، فلا مجال فيها

للمتاجرة بأصوات الناخبين سواء عن طريق المال أو الإغراء، ولا مكان فيها للإستبداد المغلف بالحزبية المتفردة . .

ولكن للإنتخاب أشكال وصور، فأيها هو الأقرب إلى الخط الإسلامي، الذي يحقق مصلحة الجميع، وبخاصة إذا راعينا الفروق الهائلة بين مجتمع الصدر الأول المحدود بالمئين ومجتمعات اليوم التي تضم الملايين . .

ولقد حاولت الإجابة على هذا التساؤل من حلال معاصرتي الطويلة للأوضاع الدولية القريبة والبعيدة فانتهيت إلى القطع بأن أصلح الوسائل وأشبهها بروح الإسلام هو التنظيم النقابي الذي يتسع لكل فئات الأمة دون أن يحيف بعضها على بعض .

لقد عرفت الحضارة الإسلامية أسلوب النقابات منذ أقدم عصورها إذ كان لكل حرفة تجمعها الخاص، على رأسه من تختاره لينوب عنها في علاج مشكلاتها الطارئة وإصلاح كل خلاف يحدث داخلها، وهو الذي يمثلها أمام المؤسسات الحكومية .

وقد شمل التطور الحديث هياكل هذه المؤسسات الإجتماعية، فنقابة للأطباء وأخرى للصيادلة، وثالثة للمهندسين، ورابعة للتجار وخامسة للزراع وسادسة للعمال . . إلى آخر السلسلة . ولكل منها مجلسها المنتخب ورئيسها الذي كان يسمى بالشيخ، كشيخ الساعاتية وشيخ العطارين وما إلى ذلك مما لا يزال بعض مظاهره في المدينة المنورة حتى الآن . .

وما أحسب ثمة تمثيلاً أشمل لجماع فئات الشعوب من مثل ذلك الأسلوب النقابي، وهو ألصق ما يكون بتراثنا الأصيل الذي تحقق ليلة العقبة الثانية، فإذا حان موعد الإنتخاب العام قامت كل نقابة بتقديم ممثليها الفائزين بأكثر الأصوات عن طريق الإقتراع، ومن مجموع الممثلين لسائر النقابات يؤلف مجلس الأمة الممثل بحق لجميع فئات المجتمع .

وسيكون من صلاحيات ذلك المجلس الأساسية انتخاب رئيس الدولة ونوابه

لمدة معينة أو لمدى الحياة، وللرئيس أن يختار معاونيه ـ الوزراء ـ ثم يعرضهم على المجلس للموافقة، وللمجلس حق الرفض أو القبول لكل منهم أو لبعضهم، وعند وفاة رئيس الدولة أو عجزه يحل محله نائبه الأكبر سناً. وفي ما يتصل بالرئيس الذي تم انتخابه لمدى الحياة لا بد من مراجعة الأمة بشأنه مرة كل خمس سنوات وذلك في استفتاء عام يوضح موقفها منه سلباً أو إيجاباً، ويكفي لتثبيت ولايته حصوله على خمسين بالمئة فأكثر من مجموع المشاركين في الإستفتاء. . بشرط أن لا يتولى هو عرض نفسه على الأمة للتزكية، بل يتولى تقديمه المجلس بصفته الهيئة التي تمثل أهل الحل والعقد. .

ولا حاجة للتذكير بمردود هذا الإتجاه الشوري بالنسبة لصالح الأمة أفراداً وجماعات، وحسبه من الخيرية إشعار المسلمين على اختلاف مستوياتهم بأن لهم وزنهم وكرامتهم ومسؤوليتهم في توجيه الحياة العامة. . . ونحن لا نستطيع الإحاطة بعظمة هذا النظام الشوري إلا بعد مقابلته بالأنظمة المباينة. . فمن الحقائق التي لم تعد تتسع للخلاف أن الماركسية ووليدتها الإشتراكية ليستا سوى وسيلة لإذلال الفرد وسلخه من هويته الإنسانية بما تسلطان عليه من فنون الإرهاب والكبت، حتى لا يصلح إلا للإنتظام في مواكب المنافقين، الذين لا يحسنون سوى الهتاف لمذليهم، وليست الديموقراطية بأقلّ شراً من ذينك العدوين في نهاية المطاف، ففي ظلها تنطلق الغرائز البهيمية لتحيل المجتمع مستنقعاً للقاذورات، وباسم الحرية الشخصية تصبح الفاحشة المثبرة ديناً يتنافس الأفراد في طاعته، والمال رباً يتسابقون إلى عبادته، وتنقلب المعايير حتى يسود المجتمع الرقاصون والمهرجون والمفسدون في الأرض. .

هذا درس من الحديبية

لقد زحفت المئات الأربع عشرة من الصحابة بقيادة نبيهم إلى مكة المكرمة بنية العمرة، وقد ملأ قلوبهم الأمل بدخولها بعد أن بشرهم بذلك، إثر رؤيا أوحت إليه بهذا الفتح الذي كانوا في أحرّ الشوق إليه. ولكن حمية الجاهلية قد أهاجت

شباب المشركين فأصروا على الوقوف بوجه ذلك الموكب، وبدلاً من مواجهة الشدة بمثلها جنح رسول الله صلوات الله وسلامه عليه إلى السلم، فآثر سلامة البلد الحرام ورضي بعقد هدنة مع قريش لمدة عشر سنوات. وقد انطوت وثيقة الهدنة على شروط ظاهرها مجحف بحق المسلمين ومثير لألمهم، وكان أحرصهم تعبيراً عن ذلك الفاروق إذ لم يطق كتمان شعوره فأقدم على مراجعة رسول الله ﷺ قائلاً: «ألست برسول الله.. أولسنا بالمسلمين!. فعلام نعطي الدنية في ديننا»؟!.. فيجيبه المصطفى صلوات الله عليه وسلامه:

«أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني».

وكان الصدّيق أقوى الجميع تجلداً أمام هذه الصدمة، إذ قال لعمر: «إلزم غرزه فإني أشهد أنه رسول الله». فالسادة النافون لإلزامية الشورى يستخلصون من هذه الواقعة أهم حججهم، إذ يرون أن قبول رسول الله للهدنة رفض قاطع لإجماع الصحابة على رفضها.. وفي ذلك ـ على رأيهم ـ أكبر دليل على أن ولي أمر المسلمين غير ملزم بإنفاذ الرأي المعارض إذا اقتنع هو بضده!. ولا ندري كيف يوفق هؤلاء الفضلاء بين موقف الرسول يوم الخروج إلى أحد نزولاً على رأي الكثرة من المسلمين، وموقفه هذا يوم الحديبية وهو يرفض النزول عند رغبة الكثرة في مواجهة المشركين بالسيف.. مع أن كلتا الحالتين متشابهتان إلى أبعد الحدود في ظاهر الأمر.. فهناك كثرة تدعو إلى القتال فيستجيب لها ويرجع عن رأيه، وهنا كثرة يرفض رغبتها مصراً على رأيه...

على أن الغريب في هذا الأمر أن تغيب الحقيقة عن أعين هؤلاء السادة وهي ماثلة في جوابه ﷺ للفاروق:

«أنا عبد الله ورسوله ولن أخالف أمره».

فالأمر بالنسبة إليه ليس أمر اجتهاد بشري، بل هو أمر إلهي لا مناص من الخضوع له، ولو اجتمعت الأمة كلها على مخالفته. وهكذا لم نجد صوتاً يرتفع بمعارضة الرسول عند كتابة العقد، وإنْ لم نتصور أن المناسبة خلت ممَّنْ يحمل

رأياً موافقاً لعمر، ولا تفسير لذلك إلاَّ اقتناعهم بأن الأمر منوط بالوحي فلا دخل للشورى به.

ومن سواد العراق

ولكي يُستوفى النقاش في موضوع الشورى حقه نرى أن نضيف إلى ما تقدم من المناسبات المتصلة بهذا الحدث الهام الذي واجهه المسلمون إثر فتحهم العراق، وما تبعه من اختلاف الصحابة حول أراضي السواد، إذ كان الأكثرون منهم يرون تقسيمها كغيرها من أنواع الفيء حسب النسب المقررة في الكتاب والسنة، وقد انفرد الخليفة العظيم بمعارضة ذلك الإجتهاد بأقوى منه، وجعل يجادلهم في حق الأجيال القادمة بتلك الأراضي. واستمر الخلاف أياماً حتى استقر الجميع على رأي الفاروق بعد أن جاءهم بالبينة الحاسمة من قوله تعالى في سورة الحشر:

وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ

[الحشر: ١٠]

وإنك لترى في هذا الخلاف واحداً من أروع المشاهد لحرية الفكر والتزام ولي الأمر بالشورى الحافظة لكرامة المسلمين، وحقهم الحاسم في إبداء الرأي الآخر..

ثم إن في هذا الموقف جانباً هاماً لا يُحْسَن إغفاله وهو أن المشكلة الطارئة جديدة لم يسبق لها مثيل في حياة الجماعة الإسلامية، ففي بدر وهي التي حددت فيها نسب الحقوق في غنائم الحرب، كانت عوائدها من المنقولات الزائلة، على حين كانت في العراق من الثوابت الباقية، فلا مندوحة للمسلمين عن استفراغ الوسع لاستنباط الحكم الشرعي في شأنها، ولو كان الأمر إلى ولي الأمر في مثل هذا الموقف لحسمه عمر برأيه، ولأقرَّه الجميع عملاً بحق الطاعة التي أمرهم الله بها.. ولكنه كان على يقين بأن الحكم في مشكلة اليوم هو من حق الجماعة دون

غيرها، لذلك اقتصر على جانب الحوار حتى هداه الله إلى حلها في تلك الآية الحاسمة من كتابه الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاَّ أحصاها.. وبها انقطع كل خلاف عملاً بأمر الله القائل لهم:

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ

[الأحزاب: ٣٦]

وبهذا الحكم القاطع المانع يتحدد الفرق بين الشورى العامة التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي في كل ما ينتابه من طوارىء وبين الشورى الملزمة التي عليها ينهض النظام الحاكم في عالم الإسلام، وفي ضوئه الساطع يعرف كل من الحاكم والمحكوم حدَّه الفاصل فلا يتعداه... ومن هذا المنطلق جاء طلب الفاروق إلى المسلمين إذا علموا فيه اعوجاجاً أن ينبهوه إليه، فأجابه أحدهم «والله لو علمنا فيك إعوجاجاً لقوّمناه بسيوفنا».. وما كان أسعد الفاروق بسماع هذا الرد القاطع الدلالة على أن في ذلك المجتمع رجالاً يراقبون تصرفات حاكمهم ولا تنقصهم الجرأة على تحذيره من الشطط عن سواء السبيل.. وما أروع تعقيبه على تلك العبارة الصارمة بقوله الراشدي: «الحمد لله الذي جعل في المسلمين مَنْ يقوِّم عمر بسيفه».

وبهذا وذاك كان المسلمون خير أمة أُخرجت للناس، وبإنحرافهم عن ذلك المنهج الشوري فارقهم الأمن وتكالب عليهم الذئاب فأصبحوا كالشياه الضالة في الليلة المطيرة. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قراءة في ألفاظ البيعتين

ولعمر الحق إن في هذه المواقف الحاسمة لما يزيل كل لبس في الموضوع الذي طالما اختلف حوله المتكلمون بشأن صلاحية الحاكم أمقيدة هي أم مطلقة.. ولو أن القائلين بإطلاق هذه الصلاحية تذكروا وقائع الماضي وملابسات الحاضر لما توقفوا لحظة عن الإنحياز إلى الجانب الآخر، وحسبهم في ذلك ما طالعوه من

أنباء الأهوال التي طالما جرها على أمتهم الحكام المطلقون فأوردوها المهالك وجرّعوها المرائر... وأمامهم الأمثلة الراهنة في ورثاء طريقتهم الذين أغرقوها بالنكال والإذلال والوبال.. ومن الديون بما يضاهي الجبال!.

ومع ذلك فلنعد قليلاً إلى بعض الأصول التي لا تزال تنتظر أعين الباحثين لاستخراج مكنوناتها المؤكدة لأخطاء أولئك الإخوة المصرِّين على نفي الإلزام حتى الآن.. وسنقتصر من هذه الأصول على مَعْلمين أثنين ولكنهما كافيان لإقناع كل مَنْ كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

أما أول المعلمين ففي بيعة العقبة الثانية حيث نرى عقداً يجري بين طرفين أحدهما رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، وقد أعطى الطرف الثاني عهداً بأن لهم الجنة إذا هم وفّوا بما يعاهدونه عليه، يقابله عهد يؤديه الأنصار ـ في الصيغة التالية ـ التي يرويها أحد نقبائهم الإثني عشر عبادة بن الصامت، عليهم رضوان الله ـ إذ يقول: «بايعنا رسول الله ﷺ بيعة الحرب على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأثرة علينا، وألاّ ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم»[1].

فها هنا عقد يلتزم به كل من الجانبين، إيجاب يقابله قبول، فالجنة أقصى ما يتطلع إليه مؤمن، والجود بالنفس مع التصميم على احتمال كل شيء في سبيل تحقيق ذلك العهد هو الثمن الوافي لتلك السلعة الغالية..

وإذن فالمسؤولية مشتركة ومتكافئة، وقد وفَّى كل من المتعاقدين بما تعهد به فكانت الجنة، وكان الجهاد الذي هزَّ أركان العالم وأعاد بناءه من جديد..

ولنمعن الفكر قليلاً في بعض ألفاظ البيعة لنتبين حجم التبعات التي ألقتها على كاهل المصطفين الأبرار من الأنصار.

إنها الطاعة المطلقة من كل قيد أو شرط في حدود الرسالة التي اعتنقها

---

(١) ابن هشام ٢/ ٧٢.

المبايعون، ثم التجرد من كل حظوظ الدنيا إيثاراً لما عند الله.. فهل فوق هذا الإلتزام من إلزام!..

وتستوقفني بخاصة في هذه الألفاظ تلك العبارة البعيدة الغور: «وألّا ننازع الأمر أهله...» وأي أمر هذا سوى ولاية الأمة التي تعهد بها إلى مَنْ تراه أصلح لرعايتها، فإذا وقع اختيارها بالطريق الشرعي على أي كان، كان كل خروج عليه هو الخيانة العظمى لحقوق الأمة وكرامتها، وكان الإقدام على أي تبديل أو تغيير في حقه نذيراً بفقدان الإستقرار وما يستتبعه من الإنهيار.

وأما ثاني المعلمين ففي خطبة الصدّيق التي ألقاها على المسلمين في أعقاب أعقاب بيعته العامة بعد السقيفة، وفيها يقول: «قد وُلّيت عليكم ولست بخيركم فإنْ أحسنت فأعينوني، وإنْ أسأت فقوِّموني... أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم». ابن هشام ج ٤/ ٢٢٨.

وأشد ما يسترعي انتباهنا في هذه الفقرات أن خليفة رسول الله يقطع للأمة عهداً بالتزامه العمل بدستورها الأساسي الماثل في كتاب الله وسنة رسوله، وقد جعل التزامه هذا شرطاً في استحقاقه طاعتها، وأقرّ للأمة بحق الرقابة على وفائه بذلك الشرط، فيعينونه إذا أحسن تطبيقه، ويقوِّمونه بردِّه إلى الحق إذا لمحوا منه أي تقصير أو إنحراف عنه، وقيّد طاعتهم إيَّاه بطاعته هو لله ورسوله، بحيث يفقد حقه بطاعتهم لمجرد خروجه عن العقد الذي بايعوه عليه وهو التزام العمل بالدستور الأساسي: الكتاب والسنة..

وذلك هو مضمون العقد نفسه الذي التزم به الفاروق عقيب توليه الخلافة فكان منه قوله آخر ذلك الخطاب: «إنْ كان بيني وبين نفر منكم شيء في أحكامكم أن أمشي معه إلى مَنْ أحب منكم فينظر في ما بيني وبينه.. فاتقوا الله عباد الله، وأعينوني على أنفسكم بكفها عني، وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحضاري النصيحة في ما ولاَّني الله من أمركم..»[1].

---

(١) مختصر تاريخ دمشق ج ١٨/ ٣١٥ برواية التابعي الجليل سعيد بن المسيب.

والملاحظ أن الفاروق لم يكد يزيد في هذه الفقرات عن معاني أخيه الصدّيق رضي الله عنهما من حيث تقرير منهج الحكم، فهو يذكِّر المسلمين ما عاهدوه عليه من الطاعة في حدود التقوى، كما يذكِّرهم بحقهم المقابل المتمثل في مراقبة تصرفاته فلا يمسكون عن توجيهه بالمعروف إلى التي هي أحسن، ونهيه عن الشطط الذي رأيناه آنفاً في موقفه من ذلك الناصح الأمين الذي أعلن استعداد الأمة لتقويم عوجه بالسيف عند الحاجة، فلم يزد في رده على أنْ حَمَد الله الذي أراه في أمة محمد مَنْ يقوِّم عمر بسيفه..

على أن في أولى هذه الفقرات وما قبلها إشارات نحس من خلالها ثقل العبء الذي ألقي على كاهله، مما لم نلمحه في بيان الصدّيق، وذلك طبيعي لاختلاف ما بين الخليفتين في نوع المزاج، فبينا يستشعر جمهور الصحابة كل الإرتياح إلى نعومة أبي بكر، يتخوَّف الكثير منهم شدة الفاروق التي طالما وصفوها بالغلظ، وهم يُسِّرون ذلك أحياناً ويعلنه بعضهم حيناً، فكان من حق الفاروق أن يتأذَّى من ذلك، ويعبر عنه بمثل هذه الكلمات التي تشبه الزفرات «فاتقوا الله.. وأعينوني على أنفسكم بكفها عني..» وليس هذا فقط بل إنه ليدعو أولئك النفر إلى التحاكم أمام من يختارونه لإظهار البريء من المذنب!....

ويا لله لخليفة تمتلىء القلوب من هيبته ثم لا تمنعها مهابته عن نقده.. ومع ذلك لا يحول بينهم وبين ما يرتأون فيه، وهو الذي يقول لعبد الرحمن بن عوف «**والله لو أنهم يعلمون ما لهم عندي من الرأفة والرحمة والشفقة لأخذوا ثوبي عن عاتقي**»(١).

فما الذي يدعو الفاروق إلى كل هذا الصبر على تلك الأقاويل الموجعة.. وكان بوسعه أن يوجه إلى أهلها إنذاراً صغيراً فيكفوا ألسنتهم عن إيذائه!. ولكنها الشورى وما في الشورى الإسلامية من الشعور بالمسؤولية ثم الإعتراف النبيل بحق الرعية في التنفيس عن صدرها ريثما تتضح لها الحقيقة..

---

(١) المصدر السابق ١٨/ ٣١٥.

فهل ترك الشيخان بعد هذا كله مجالاً للقول بغير الإلزام؟.

وهل يجد أولئك السادة مؤيدو الإطلاق أي سند لهم بعد هذه الصراحة القاطعة لقول كل خطيب!...

أليس في ذينك الإعلانين الدستوريين تعهد من الشيخين بالتزام التطبيق الكامل لما أعطياه الأمة من عهد!...

لعمري لئن بقي هؤلاء السادة بعد كل هذا على موقفهم المضاد للإلتزام ليكونُنَّ قد أعلنوا أن من حق الشيخين أن يتخليا عن عهدهما وأن من حق الأمة أن تتخلى عن حقها في الرقابة على تصرفاتهما، وذلك هو المحال عينه لأن مسيرة الشيخين طوال حكمهما السعيد كانت المثل الأعلى للإلتزام بما عاهدا الله والأمة عليه.

أمراء من أهل جهنم

في الحديث الشريف الذي رواه ابن خزيمة في صحيحه وابن حبان يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه:

«أول ثلاثة يدخلون النار أميرٌ مسلَّط وذو ثروة لا يؤدي حق الله في ماله، وفقير فخور».

وقد استوقفتني من هؤلاء الثلاثة المفتتحين لدخول النار أولهم فوجدتني أجيل الفكر ملياً في صفتيه فهو أمير، وهو مسلَّط، بصيغة المفعول وفي رواية أخرى متسلط وقد أطلق نبي الله هاتين الصفتين دون أن يلحق بهما أي تعليل لأي جريمة استحق بها المسلّط أن يتقدم كبار المجرمين إلى أشد العذاب!

فأما الإمارة من الطبيعي أن تسوق صاحبها إلى النار إذا لم يؤدِّ حقوقها في طاعة الله وخدمة عباده فلم يفقه عنها سوى أنها مطية الكبرياء والجبروت والإستعلاء، فلم يعرف لله حقاً، ولم يُقم لعباد الله وزناً، فمثل هذا الطاغية الذي أذلّ عباد الله وطوّعهم لأهوائه أحق الخلق بمباشرة العذاب:

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾

[الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩]

هذا شأن الأمير الجائر عن منهج الحق مطلقاً..

فما وراء وصفه بكونه مسلطاً ـ أو متسلطاً ـ..

إن الإنسان لا يصل إلى الإمارة إلا بإحدى ثلاثة: أن يرث السلطة عن أسلافه فهو يحكم عشيرته بحق الوراثة المدعومة بالعصبية القاهرة، فإمارته قائمة على رضا العشيرة أو أكثرها، ومثل هذا قلما يشذُّ عن مصلحة المحكومين، ولكن علة هذه الإمارة في الالتزام القبلي الذي لا يبالي صاحبها سوى منفعة قومه ولو على أشلاء آخرين..

ثم يأتي الضرب الآخر الذي تدعمه القوة المنظمة كالإستعمار، وكالضغط الحزبي الذي تقوده الغوغائية التي تحركها شهوة المنفعة. وكلا هذين النوعين صائر إلى النهاية التي صارت إليها الإعتباطية البدائية، لأن التطور البشري كفيل كذلك بإعادة الوعي إلى رؤوس الناس، فلا بزالون يتحركون حتى يشقوا الطريق لإثبات ذواتهم.. وهنا يأتي دور الإختيار الحر فلا يسمح لأحد بالتسلل إلى مراكز القوة إلَّا بإرادة الجميع أو الأكثرين.

وهذا ما تقوم به الديموقراطية السليمة في الحقبة الراهنة..

فعلى أي هذه الأسس تم اختيار الصديق لخلافة النبوة؟...

وقبل أن تقذف بالجواب أعد النظر في وقائع ذلك اليوم، ثم لك أن تقارن الآن بين تلك البيعة وبين الطريقة التي يُنتخَب بها رئيس الولايات المتحدة مثلاً، وهي من أبرز صور الديمقراطية في العالم الحديث..

إنك لترى هنا أشد المحرِّضات الإعلامية تأثيراً في عقول الجماهير هي التي توجهها يمنة ويسرة في حين ترى إلى بيعة الصدّيق شامخة تنتصب مكللة بتاج الوقار والحب المتصل بالسماء.. يباشرها صفوة من الثقات المُجْمَع على

تقديرهم، ثم تليها البيعة العامة التي سجّلت رضاها التام عن ذلك القرار الحكيم.

ولقد مدّ الله بحياتنا حتى شهدنا نماذج من أولئك المسلّطين لا يملكون من أمرهم شيئاً إلاَّ تنفيذ ما يخطط لهم مسلّطوهم، وهكذا يتضح للمفكر أن في إطلاق الحديث الشريف على الواحد من هؤلاء المسخرين صفة المسلَّط أو المتسلِّط إشارة ساطعة إلى أنهم لم يصلوا إلى الإمارة بالطرق المشروعة بل بالغصب والقهر، ويندرج تحت ذلك أن ولاية المسلَّط باطلة لا يقرُّها الشرع الحكيم، لأنه لم يأخذها بحقها ولا يستطيع القيام بحقها، وفي الأثر النبوي - وقد رواه أبو داود -:

«لا يحل لرجل يؤمن بالله واليوم الآخر أن يؤمّ قوماً إلا بإذنهم..».

والأَمُّ هنا ليس مقصوراً على إقامة الصلاة كما يتوهم بعض الناس، بل يشمل كل ما يتناوله الإشتقاق اللغوي من معاني الإمامة وأهمها الرئاسة العامة. وفي التشديد الذي تنطوي عليه ألفاظ الحديث ما يرجِّح هذا الإتجاه، لأن المقدم على قيادة المصلين بغير إذنهم قد يرتكب مكروها ربما لا يتكرر، بخلاف الولاية المرشحة للزمن الطويل.. ومن أجل ذلك كان الإقدام على تقلد الولاية بغير رضا الرعية مغامرة قد تجرُّ وراءها ضروب الخطوب والكروب. ومن أجل ذلك جاء في الحديث الشريف:

«إنّا والله لا نُولِّي على هذا العمل أحداً سأله ولا أحداً حَرِص عليه».

[مسلم بشرح النووي ج ١٢ ص ٢٠٧]

والنبي ﷺ إنما يعلن هذا المبدأ بصفته نائب الأمة ومبلِّغ الرسالة..

وفي ما عرضناه حتى الآن من مقومات الحكم الشوري ما يؤكد للمفكر المؤمن حرص الشريعة المطهرة على تحصين المجتمع المسلم من كل الأخطار والأخطاء التي تتعرض لها الأمم في ظل الفوضى التي تشجِّع المغامرين على تجاوز إرادتها في سبيل الحصول على تحقيق المغانم والأمجاد الزائفة.

أَوليس من المفارقات العجيبة بعد ذلك أن يقدم مسلم على اغتصاب أمر المسلمين بغير رضى منهم ولا تفويض صحيح؟!.

أو يقدم على انتزاعه من أهله الشرعيين بحق التسلط وحده!!.

التعددية وما وراءها

في المرحلة الطارئة اليوم على أفكار الناس وبخاصة في العالم العربي والإسلامي ترتفع الأصوات في الدعوة إلى تصحيح الأوضاع عن طريق الأنظمة الديمقراطية، بعد استغراق طويل تحت كابوس الإستبداد السياسي، وكرد فعل على حكم الفرد أو الحزب المتفرِّد تتركز الدعوة إلى التعددية الحزبية التي تتيح للناس أن يتجمعوا تحت مظلة الأفكار المتشابهة، بحيث يكون لكل نمط فكري حزبه الخاص وبمنهجه المتميز يخوض غمار الإنتخابات.. وتلك هي النتيجة الطبيعية للإنقلاب الفكري الذي أعقب الأوضاع غير الطبيعية التي قُدِّر للشعوب المسحوقة أن تعانيها في ظل الكبت والإرهاق والنفاق..

وفي تقديري أن الوقت لم يتسع بعد أمام المفكرين لاستجلاء العواقب البعيدة لهذه الطفرة الفكرية، فهم في وضعهم هذا أشبه بأناس ضاربين في الصحراء القاحلة بحثاً عن الماء، ثم فأجأهم من حيث لا يتوقعون، فلم يتمالكوا أن اندفعوا إليه يعبّون في غير وعي.. فلا غرو أن تكون عاقبة ذلك العبء مساوية أو زائدة عن حالة الحرمان التي كانوا عليها..

وأقرب مثل على هذا الواقع هو ما انتهت إليه الشعوب التي كانت حبيسة الإضطهاد السوفياتي عقيب إنهيار سدوده، فلم تتمالك أن تلقي بنفسها إلى فضاء الحرية دون تخطيط ولا تفكير، وإذا هي فريسة أنواع من التعاسة والحرمان الجديد يفوق كل ما كانت عليه في جحيم الماركسية، ذلك لأن المعقول في حالة الإنتقال من طور الحرمان الصارم إلى الطور المضاد، أَن تعامل تلك الشعوب بمثل عمل الطبيب الحاذق الذي يواجه مريضاً أوشك على الموت عطشاً وجوعاً فراح يمدّه

بوسائل الحياة في جرعات محسوبة لا تتجاوز قدرته على الإساغة والهضم. . وإلاَّ كانت النتيجة هي القضاء عليه بدل استنقاذه. ولقد كان في وسع يالتسين ومتابعيه أن يقوموا بدور ذلك الطبيب الحكيم فيفتحوا لجماهيرهم السجينة منافذ الحياة بالمقادير التي تفرضها الخبرة الواعية، فما يزالون ينتقلون بهم مرحلة بعد أخرى حتى يبلغوهم مأمنهم دون عقبات أو انتكاس. .

ونحن ـ العرب والمسلمين ـ تحت ضغوط هذه الدعوة الجديدة إلى التعددية الحزبية، إنما نواجه الوضع نفسه الذي فوجىء به السجناء الآخرون فنفتح آذاننا وصدورنا لها دون أن نمنح عقولنا أي فرصة للتفكير في مضمونها وعواقبها. . ولو نحن تأملنا في الأمر على ضوء تجاربنا القريبة والبعيدة لأدركنا أنها ليست سوى استئناف للمسيرة الحزبية التي أكرهنا عليها فُسَّاقُنا إلى أوخم العواقب.

إن توزيع الأمة على أساس الحزبيات ـ كما يريد العلمانيون ـ إنما هو ترسيخ للتمزق الفكري الناتج عن فقدان الهدف الأعلى الذي لا حياة للمسلم بدونه. . ذلك لأن هذا المسلم لا يخرج عن كونه خلية حية في جسم أمة يتبادل معها التأثر والتأثير، وقد حدّد الله علائقهما بقول رسوله الأمين:

«مثل المؤمنين في توادهم وتحابهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»

[للشيخين]

وانفراد الخلية عن موضعها في الجسم موت لها وإيهان له. فإذا ساغ تجزؤ الأمم الأخرى فلفقدانها الترابط المركزي بسبب فقدان الهدف الجامع بينها. وإنما أتيت الأمة المسلمة من التخلخل الذي ألمّ بكيانها فأضعف مناعته وفتح السبيل لتفتيته إلى فرق وكيانات حتى تحقق فيها إنذار الله:

إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ

[الأنعام: ١٥٩]

وإذا بالأصوات الناشزة تتصاعد من كل صوب داعية للتسابق إلى «جحور

الضِباب» لترتفع فوقها رايات الشيطان من القوميات والحزبيات والتبعيات وما لا يُحصى من التيارات الهدامة. جتى كادت تنسى في هذه الغمرات الطائشة أنها الأمة التي اصطفاها الله للشهادة على الخلق ولإخراجهم من الظلمات إلى النور، فهي بغفلتها عن رسالتها توشك أن تستجيب لكل ناعق «حتى لو دخل جحر ضب لدخلوه وراءه»...

أولى المدوَّنات السياسية في الإسلام

وما دمنا في خاتمة الحديث عن مقومات النظام السياسي اللائق بحضارتنا الربانية، فحقيق بنا أن نعيد الإشارة إلى إغفال السابقين موضوع التدوين للكثير من أعمالهم التنظيمية التي كان متوقعاً لها، لو أُعيرت الإهتمام اللازم، أن توفر على الأجيال الحديثة غير قليل من المتاعب.

لقد أتى على المسلمين من الدهر كان معظم أعمالهم الإدارية تقوم على الإرتجال والحفظ، وقد أدركنا بقية من أهل العلم ورثوا هذا الإتجاه، فهم يرفضون مبدأ التدوين للأصول التي خبروها حتى في نطاق القضاء، ويقولون إن على القاضي أن يكون مجتهداً يستنبط الحكم من كتاب الله وسنة نبيه مع الإستعانة بمدوَّنات الفقهاء السابقين، ويحتجون لرفضهم بحديث معاذ يوم وجهه رسول الله ﷺ إلى اليمن، ناسين أن قضايا الناس لم تكن من التكاثف والتداخل إلى الحد إلى الحد الذي بلغته من بعد وبخاصة في هذه الأيام، وأن الحكام والقضاة ليسوا كلهم على مستوى معاذ في الفقه والإستنباط..

لقد ساقنا الكلام مع بعض هؤلاء الإخوة أحياناً إلى مناقشة أفكارهم، وحاولنا عبثاً إقناعهم بضرورة تدوين الأحكام الفقهية بعد تصنيفها في كشوف محددة تيسِّر على القاضي والحاكم مراجعتها، على نحو ما أحدثته الخلافة العثمانية بتصنيفها الفقه الحنفي في «مجلة الأحكام» فلم نجد لديهم سوى الإصرار على موقفهم حتى شاء الله أن يحقق تلك الأمنية أخيراً على يد هيئة كبار علماء

المملكة العربية السعودية في قرارها رقم ٨ والمنشور في العدد الحادي والثلاثين من «مجلة البحوث الإسلامية» تحت عنوان «قرار هيئة كبار العلماء تدوين الراجح من أقوال الفقهاء لإلزام القضاة العمل به».

وبهذا القرار الرائد بدأت مرحلة جديدة في التنظيم القضائي سيكون لها أثرها الطيب في توجيه المراحل التالية إن شاء الله، وذلك على ضوء الهدي الذي بدأه رسول الله ﷺ في ما أملاه من التنظيمات الحكيمة التي تصوِّر هوية المجتمع المدني عقيب استقراره في طيبة المباركة، فكانت تلك الأمالي النبوية هي الأنموذج العالمي الأول لما يسمى اليوم بالحقوق الدستورية، إذ أبرزت أصناف السكان وحقوق كل منهم وواجباته والوسائل التي ينبغي ممارستها لحل كل مشكلة تطرأ على ذلك المجتمع، وكل خلاف يحدث في الداخل مع الآخرين، إلى تحديد المسؤوليات العامة للحفاظ على سلامته بإزاء كل الطوارىء والجوائح..

ولعمر الحق لقد كان في هاتيك العهدة كل الدواعي التي من حقها أن تحرِّك أولي العلم لاقتفاء آثارها في تدوين كل ما تثبت التجارب المستمرة أنه مساعد على وحدة الأمة وتنظيم كيانها السياسي، كما فعل كبار الفقهاء في تدوين الأحكام على اختلاف موضوعاتها، وكما صنع علماء الحديث في تدوينه وتصنيفه وبيان درجاته. ولو أن علماء اليوم فعلوا مثل ذلك في الجانب السياسي من نظام الإسلام لكفوا أمتهم شرّ المحن التي تعانيها هذه الأيام على أيدي المسلَّطين من العلمانيين وبينهم كثير ممَّنْ يدّعون الإسلام، ومع ذلك يلتزمون في تصرفاتهم السياسية قوانين أعدائهم من الذين يشركون قيصر في ملكية العالم، على أساس أن بعضها لله وأكثرها للمتسلِّطين، ولو هم فعلوا ذلك لما تركوا لأولئك المفترين من سند لادعائهم أن الإسلام لا يعدو كونه عبادة ورسالة تهذيب لا علاقة له بالسياسة، ولو فعلوا ذلك لما رأينا مثل كتاب «الإسلام وأصول الحكم» يتكىء عليه العلمانيون لتثبيت مزاعمهم، ولما أقدم متسلِّط في بلاد الإسلام على التقول بأن الأرض لم تعرف دولة خالصة للإسلام خارج حدود العهد الراشدي.. ولو هم حققوا ما

يُرْجَى منهم في ذلك كله ما جرؤ سياسي محدود الإدراك في نطاق الفقه الإسلامي على اقتحام ميادين الفتوى الشرعية إلى حد التفريق بين الفرد المسلم والجماعة المسلمة من حيث الإلتزام بأصول الدين، حتى ليرى أن التقيد بأحكام هذه الأصول خاص بالفرد وحده بخلاف الجماعة التي يعلن تحررها التام من ذلك الإلتزام!!.

ولا معنى لذلك سوى أن الدين من شأن الفرد وحده لا يتجاوزه إلى غيره ولا يجوز إلزام الشعوب بالدين.. وهو المبدأ الذي تنادي به العلمانية في الفصل بين الدين والسياسة (لأن الدين لله والوطن للجميع) بزعمهم.

هذا إلى جانب ما يثيره هؤلاء المضللون في كل مناسبة يدور فيها الحديث حول الحكم الإسلامي بإقحامهم موضوع الأقليات غير المسلمة تحريضاً لها على معارضة الموجة الإسلامية بادعاء أن قيام الحكم الإسلامي مضيِّع لحقوقهم ومعطِّل لمصالحهم، ومقصٍ لهم عن المشاركة في كيان ذلك المجتمع.. ولو أوتي هؤلاء المضللون نصيباً من الإنصاف وقليلاً من العلم برعاية الإسلام لرعاياه من غير المسلمين على امتداد التاريخ الإسلامي لترفعوا عن مثل هذه التهم الباطلة، وحسبهم أن يقرأوا بإمعان مضمون تلك الوثيقة النبوية التي أسلفنا الإشارة إليها آنفاً ليتجلّى لهم تفوق الإسلام على كل النظم السابقة واللاحقة في الحفاظ على كرامة الإنسان أيّاً كان لونه ومعتقده، إذْ يرون كيف ساوى رسول الله ﷺ بين كل طوائف المدينة وفيهم المسلمون من مهاجرين ومدنيين، وفيهم اليهود والمنافقون وبقايا المشركين، فجعل منهم مجتمعاً متكاملاً يقوم على التعاون وينعم بكل أسباب الأمن الداخلي والخارجي.

ولو وعى هؤلاء المرجفون هذه الحقائق لاستيقنوا أن الحكم الإسلامي سيوفِّر للأقليات المواطنة كل الحقوق التي تشركها في سائر التنظيمات بما فيها النقابات والإنتخابات على قدم المساواة مع إخوانهم المسلمين، بخلاف ما تعانيه الأقليات المسلمة في ظل الأكثريات التي تسلخها من كل الحقوق، ولو استطاعت

لسدت دونها منافذ الهواء. . ولو شئنا لقلنا صادقين إِن هذه الآقليات غير المسلمة ستنعم في كنف النظام الإسلامي بما تُحْرَم من بعضه الأكثريات المسلمة في ظل الحكام العلمانيين الذين يحظرون على المسلمين تأليف الأحزاب الإسلامية، ويسلبونهم حقوقهم التي أحرزوها بالإقتراع الحر، ويخصونهم دون غيرهم بالكابوس العنصري الذي يعتبر الإسلام هو الخطر الأكبر على وجودهم وحياتهم. .

الفصل الثالث:

لا استقرار ولا سلام إلا تحت راية الإسلام

الانحراف الذي أبعد الإنسان عن ربه

وطبيعي أن مثل هذه التصورات التي ختمت بها الصفحات السابقة إنما تسرَّبت إلى البيئة الإسلامية في غياب الوعي. ثم إن هذه النظم على تعدد أشكالها وأسمائها وتباين أزيائها إنما تلتقي على أصل واحد هو الذي صدرت عنه في منشئها البعيد. . والمفكر الحصيف الذي لا تصرفه البهارج عن الوقائع لا تفوته رؤية ذلك المصدر متمثلاً في الإنحراف عن الخط الإلهي الذي وجه الخالق عباده إليه، وجعل سعادتهم في الحياة الدنيا مقترنة به، ولم يدعهم لأنفسهم فزوَّدهم عن طريق الوحي بالهداية التي تذكِّرهم بمبدئهم ومصيرهم وعدوهم الذي أعلن تصميمه على تدمير جنسهم. . فثبت على هذا الخط مَنْ ثبت بفضل الله، وضلَّ عنه مَنْ ضلَّ بانصياعه لذلك العدو، فكان لكلٍّ نصيبه من عمله، وتمَّ ما أخبر الله به عز وجل في الحديث القدسي:

«إني خلقت عبادي كلهم حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم»

[صحيح مسلم]

ولا جرم أن مبتدعي هذه الأضاليل المدمرة لحياة الإنسان إنما يمثلون ذلك الفريق الذي اجتالته الشياطين، كما يمثل الآخرون الفريق الذي استمسك بحبل الله، فكان لكل منهم مصيره الذي صوره لنا الله في قوله تعالى:

﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾

[طه: ١٢٣ ـ ١٢٤]

وأي ضنك أكبر من الوضع الذي انتهت إليه البشرية منذ استولى أصحاب تلك الأضاليل على زمام الدنيا بغفلة أهل الحق وتهاونهم في أمر الله.. وها هي ذي البشرية تجني عواقب غفلتها في ما أفرزته حضارة هؤلاء الطواغيت استعماراً واستنزافا وتضليلا وحروبا وشقاءً لا نهاية له..

هذه حضارتنا وتلك حضارتهم

وأين هذه الحضارة التي تُمزّق فيها الأرحام، ويُمسخ فيها الإنسان، وتُسلب الأوطان، ويُكرم الحيوان، ويسيطر الطغيان، ويُحارَب الإيمان.. أين هذا كله من حضارة الرحمة والأخوة في ظل الشورى الإسلامية التي لا فضل ـ فيها ـ لعربي على أعجمي ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى، والتي يتساوى في ظلها الناس، حتى لو سرقت ابنة قائدها الأعلى لَقَطَعَ يدها، بل لو شعر أي فرد من رعيته بوقوع ظلم منه عليه لأعطاه حق القصاص منه. أجل.. إنها الشورى التي تمدُّ وحدة المسلمين بعناصر الدوام والنماء والحب فتجعلهم دائماً وأبداً خير أمة أخرجت للناس، الشورى التي تحقق للإنسان حقه في الكرامة التي خصه الله بها منذ اليوم الذي أسجد له ملائكته، والتي أعلنها الإسلام على لسان الفاروق منذ صرخ في وجه ابن الأكرمين بكلمته المدوية:

«متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!».

المظلة الغائبة

ولقد كان من أواخر ما نزل من الوحي القرآني على رسول الله قوله تعالى:

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾

[المائدة: ٣]

فالدين الذي اصطفاه الله لهذه الأمة قد أتـمَّ نعمته بأن جعله كاملاً لا إفراط فيه ولا تفريط، فهو غني بأحكامه وتنظيماته وآدابه عن الحاجة إلى أي مَـدَدٍ من خارجه، وقد استقبل السلف هذه الحقيقة بمنتهى اليقين فصدقوا ما عاهدوا الله عليه فحقق لهم وعده، فأقبل عليهم نصره من كل صوب، وما هي إلا سنوات حتى كانوا سادة الدنيا ورعاة الأمم يحكمونها بشريعة الله التي استهوت أفئدتهم بما وجدوا في ظلها من العدالة والأمان، حتى ليقفون إلى جانبهم يقاتلون معهم أهل دينهم الذين لم يذوقوا تحت سلطانهم سوى الظلم والعسف والهوان. .

ثم شاء الله لحكمة يعلمها أن يقف ذلك المد السعيد بسبب انحراف المسيرة عن الجادة الرشيدة، فتكالب عليهم العدو، ثم لم يتحرروا من كابوسه إِلاَّ بعد أن هيأ من أبنائهم جيلاً من «الرُّوَيبِضات» الذين أنشأهم على عينه فلا يكادون يعلمون شيئاً عن الإسلام سوى ما ورثوه من الأسماء. . وما أن تسنَّم هؤلاء سدة السلطة حتى شرعوا في تنفيذ ما كلفهم به من هجوم على شريعة الله، والتنكيل بأهلها. . . وهكذا وجد المسلمون أنفسهم فجأة مجردين من الوقاية التي أظلتهم ببركتها طوال القرون!.

عندما تتحرر السلطة
من ضوابط الشريعة

وبتعبير الأخ الشيخ أبي الحسن الندوي أثبت هؤلاء «الوكلاء» أنهم أشد على الإسلام من أعدائه المستعمرين أنفسهم، فلم يكتفوا بتعطيل الشريعة وإقصائها عن مجالها فحسب، بل أقدموا على إبطال أحكامها حتى في المواريث، واعتبروا تعدد الزوجات جريمة يُعَاقَب فاعلها بأقسى الأحكام، على حين أباحوا التعدد عن طريق

المخالَّة ـ الزنا ـ والويل لمَنْ يحرك لسانه بكلمة اعتراض على هذا العبث. . فأقل ما يواجهه التعذيب الذي يفوق التصور، والسجن الذي قد يمتد عشرات السنين، وقد وصلت هذه العقوبة في بعض ديار المسلمين إلى المذابح الجماعية، وإحراق العلماء في الساحات العامة.

وباستبعاد الشريعة الإلهية عن حياة المسلمين أصبح المجتمع الإسلامي مكشوفاً لكل رامٍ. فلا حلال ولا حرام، ولا منكر ولا معروف، ولكنها إرادة السلطة التي تحررت من كل ضابط شرعي. .

وليس أفضل من هذا الجو لتفتيت الطاقات الإسلامية، ولقطع الروافد التي كانت تمدّها بأسباب البقاء والنماء ووحدة الرؤية، وقد كان المتوقع أن تنتهي هذه الطاقات أخيراً إلى الإختناق فلا يبقى منها سوى المظاهر الجوفاء، التي يرى القابضون على أزمة الغوغاء أن بقاءها خير لهم من زوالها، ولا سيما بعد الهجمة القاصمة التي شنَّها الحكم العلماني في تركية المسلمة على لغة القرآن، بعد إقدامه على إلغاء الخلافة، حيث أبطل استعمال الحرف العربي في التعليم وغيره ليقطع صلة الشعوب بمنابعها الروحية، وليقضي على وشائج الأخوة التي تربطها بالعالم الإسلامي، ولكن إرادة الله كانت الغالبة لأن المقومات الإسلامية لم تخمد في أوساط هذه الشعوب بل تقلصت ثم راحت تتجمع في الأعمال كما تفعل فلول الجيش المهزوم لتسترد فاعليتها من جديد. . وهكذا واصلت الوشائج الروحية عملها في الحفاظ على وحدة هذه المجتمعات تحقيقاً للخبر النبوي:

«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»(١).

وليست الصحوة التي تعيشها جماهير المسلمين هذه الأيام في مختلف أرجاء العالم الإسلامي إِلاَّ ثمرة ذلك التماسك الروحي. . الذي لا تزيده الضغوط الهائلة

---

(١) أخرجه مسلم عن ثوبان ـ مختصر مسلم ١٠٩٥.

إلَّا قوة وامتداداً. ولو نحن جرينا مع منطلق الأحداث في متابعة هذه الصحوة لقدَّرنا أنها صائرة بإذن الله إلى قمة النجاح قريباً، لأن التجارب التي تمر بها الإنسانية قد انتهت إلى التأكيد بأنها في الطريق إلى النهاية[1]. ولئن كانت هذه النهاية مجهولة في حساب الآخرين فإنها لواضحة أشد الوضوح بالنسبة إلى أولي الألباب من مفكري الإسلام، إنها العودة إلى الله، والإعتصام بشريعته التي لم يبقَ غيرها وسيلة للنجاة..

الصحوة طليعة الغد السعيد

نقول هذا ونحن نعلم أن صحوة الضمير الإسلامي تقابلها صحوة مضادة في صدور الرافضين لشريعة الله، فهم متيقظون لكل تحرك في الطريق لإعادة أنوارها إلى الحياة العملية، فلا يدَّخرون وسعاً في التشويش على دعاتها، وإثارة العجاج في وجوههم، وفي الأعين التي بدأت تتفتح لاستقبال الضياء، يساعدهم في محاولاتهم أن في يدهم أهم وسائل الإعلام المقروءة والمنظورة والمسموعة، وتحت تصرفهم كل ما يعوزهم من أموال وأجهزة لا يحلم ببعضها أولئك الداعون إلى النور، وكل عتادهم في هذه المعركة غير المتكافئة إيمانهم الراسخ بالحق الذي يدعون إليه، والتصميم القاطع على احتمال كل بلاء في سبيله، ثم ثقتهم التامة بوعد ربهم القائل في كتابه الحكيم:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ﴾

[الأنفال: ٣٦]

وإننا لنشهد تباشير هذا الوعد الرباني بما نراه كل يوم وفي كل بلد إسلامي

---

(١) كُتبت هذه الكلمات قبل هُويّ الصنم الشيوعي في أوروبا الشرقية كلها وآخر ما تواجهه من ذلك تحرر رومانيا من طواغيتها شاوشيسكو وأذنابه وجلاديه.. والبقية في الطريق.

من أفواج العائدين إلى ربهم بعد أن تكشَّف لهم الزيف الذي كانوا يمارسونه في ظلمات الضلال، وقد صحَّت توبتهم حتى ليتقبلون بكريم الصبر كل ما تحوكه حولهم وسائل الإعلام الشيطانية من التهم الخبيثة لتنفِّر الغافلين من التأثر بتوجهاتهم النقية. ويأبى الله إِلاَّ أن يجعل من تلك الحملات الظالمة منبهاً يذكِّر الغافلين بحقيقتهم الضائعة فلا يلبثون أن يسلكوا سبيل أولئك التائبين المتطهرِّين. .

ثم ها هم أولاء أولو العلم من سائر أنحاء العالم ومن مختلف الجنسيات والنِّحل يبحثون عن الحق، وقد نفضوا أيديهم من كل النظريات والمذاهب والملل، فلا يجدون شفاء لصدورهم إِلاَّ في هذا الدين. . ولعلهم أن يكونوا طلائع شعوبهم لتكوين المجتمع الرباني الجديد، الذي تنتظره الدنيا فتتحقق بهم بشرى رسول الله التي تلقاها من ربه عن مستقبل المسلمين وأنواع التقلبات السياسية التي تتنازعهم حتى يعود الأمر إلى مستقره:

«خلافة على منهاج النبوة»(١).

وحتى يظلل الإسلام العالم فـ

«لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام بعز عزيز أو بذل ذليل»(٢).

ولا ننسى أن بين هؤلاء المهتدين مَنْ كان حتى أمس القريب في طليعة المتهجمين على الإسلام بدافع من مواريث الأحقاد، فإذا هم اليوم في مقدمة الداعين إليه. ولا عجب فقد سبقهم إلى مثل هذه المواقف أفراد من كبار الصحابة كانوا من أشد خصوم الإسلام عدواناً عليه، ثم بين يوم وليلة إذا هم عمالقته وأبطاله. . وهل ننسى تدفق المغول على ديار الإسلام آخر العهد العباسي وتدميرهم حواضره وإبادتهم جماهيره، حتى إذا أُتيح لهم الإطلال على بعض

---

(١) (٢)روى الحديثين وغيرهما فيالموضوع الإمام أحمد ولفيف من أئمة الحديث وكلها بإسناد يبلغ درجة الصحيح.

حقائقه لم يلبثوا أن انقلبوا إلى صفِّه فإذا هم من أخلص جنوده.. حتى كان بين أباطرتهم مَنْ يُحسبون في خلفائه الراشدين!.

مجتمعات فقدت هويتها

وكنت أتفصح العدد (٩٢٧) من مجلة المجتمع عندما وقع بصري على ذلك الحوار الذي أجراه مراسل المجلة مع المستشار الحقوقي الأستاذ محمود كمال عبد العزيز، فلم أدعه حتى أتيت على آخره.. وقد استهوتني بعض فقراته الغنية بالتجربة فأشرت إليها، وها آنذا أنقلها إلى هنا لصلتها الوثيقة بموضوع الشريعة الإسلامية والسبيل الأمثل إلى تطبيق أحكامها في المجتمع الإسلامي الراهن.

يقول الأستاذ: «إن رجوع المجتمعات الإسلامية إلى المعين الإسلامي لم يعد مجرد الإلتزام بأحكام عقيدتهم فقط، وإنما أصبح حاجة ملحة، وإن سبب نكبة المجتمعات الإسلامية بوجه عام أنها فقدت هويتها فضاعت، فلا هي بقيت مجتمعات مسلمة ولا تَقبَّلها المجتمع الغربي الذي أرادوا الإندماج فيه. فنقطة البدء هي الإحساس الحقيقي الكامل بحاجة المجتمع إصلاحياً لتطبيق الشريعة..».

ويمضي في إيضاح فكرته قائلاً: «إن التربية هي نقطة البدء، وأقصد بها التربية في البيت وفي المدرسة، فالإهتمام بالتعليم ودوره في المجتمع أمرٌ بالغ الأهمية، يواكب ذلك وسائل الثقافة العامة من تلفزيون وإذاعة وصحافة ومسرح وسينما.. كل هذه الوسائل لها أثر بالغ في تكوين توجهات الشعب، فلا تغني عنها العناية بالمناهج الدراسية وحدها، فنقطة البدء لا بد أن تتوجه إلى التربية في المنزل والتعليم في المدرسة، وتنقية وسائل الثقافة العامة في المجتمع..».

ورداً على سؤال آخر يقول: «إذا كان المقصود هو تحكيم الإسلام في الحياة فهذا أمر لا يقبل التجزئة.. فلا أتصوّر أن يُطبّق اقتصاد إسلامي في دولة لا تُحكِّم الإسلام في حياتها، ولا أتصور أسلمة مناهج التعليم مع ترك الإقتصاد ونظام الحكم في موقف مضادٍّ لمفهوم الإسلام.. إن التوجه الإسلامي لا بد أن يسود كافة مناحي الحياة...».

وفي أخريات هذا الحوار النفيس يقول الأستاذ: «فأنا موقن أن الشعوب الإسلامية والدول الإسلامية ستعود مرة أخرى إلى منبعها الأصيل وتطبق أحكام الشريعة الإسلامية، فهي حقيقة تاريخية تفرض نفسها أراد المعارضون أم لم يريدوا».

تجارب يجب أن يُنتفع بها

والذي يهمني من هذه الأفكار هو التركيز على اعتبار الشريعة المطهرة جزءاً لا ينفصل عن كيان الإسلام الكلي فالدعوة إلى تطبيقها دون تهيئة المناخ الصالح لقبولها جهد مهدور. ولمزيد من الإيضاح نفرض أن مجتمعاً أجنبياً قد أتيح له قائد قوي رأى أن صلاحه غير ممكن إلاّ عن طريق الشريعة الإسلامية ـ كما تصوّر برنارد شو ذات يوم ـ فأصدر قانوناً بتطبيق أحكامها على الفور.. فكيف يكون موقف ذلك المجتمع من هذا الإنقلاب المفاجىء!؟...

لقد خطر مثل هذه الفكرة في صدر هرقل يوم وصله خطاب رسول الله ﷺ فما إن لوّح برأيه ذاك حتى انقلب عليه أخلص أنصاره، وكاد يدفع عرشه ونفسه ثمناً لهذه المغامرة، لولا أن سحب رأيه بلباقة.. ولو هو عمد إلى التمهيد لما يريد فبدأ بتغيير الأوضاع المفارقة لدين الله بمثل تلك اللباقة لكان أقرب إلى النجاح في نهاية المطاف. وشبيه بذلك موقف النجاشي أصحمة رحمه الله إذ أعلن تصديقه للرسالة الخاتمة، فكاد يُسلَب بذلك مُلكَه، لولا انتهاجه أسلوب المَعاريض حين ناظر المخالفين، وقد أخفى تحت ثوبه الرقعة التي كتب عليها شهادة الحق، فلما سمع تبجحهم بالعقيدة الزائغة، جعل يده على موضع تلك الرقعة وأعلن أنه «يشهد أن عيسى بن مريم لم يزد على هذا شيئاً»[1] وبذلك تفادى المجابهة العسكرية مع خصومه من أهل التثليث بانتظار الوقت المناسب.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ط الحلبي ١٣٧٥ هـ.

وأمام أعيننا ما يعانيه أهل الإيمان من جمهور العلمانيين والحزبيين في مختلف الربوع الإسلامية من مقاومة للفكر الإسلامي وبخاصة ما يتعلق منه بطلب تطبيق الشريعة، فهؤلاء المنشقون عن دين الأمة مستعدون لإعمال كل الأسلحة لإخفات الأصوات الداعية لنصرة الشريعة ولو جاوزت ٩٠٪ في كل استفتاء رسمي!.

أضواء على تجربة السودان

وفي التجربة النميرية بالسودان دليل اخر على صحة ما ذهب إليه الحوار الآنف من وجوب المحافظة على وحدة العمل الإسلامي، بحيث لا ينفصل موضوع الشريعة عن موضوع البناء العام.

وفي ترجمتي للشيخ صلاح أبو إسماعيل، رحمه الله، من كتاب (علماء ومفكرون عرفتهم ج ٢) تعرَّضت لتلك التجربة.

وخلاصة ما ذهبت إليه هناك أن الإندفاع في ذلك التطبيق المبستر بإقامة الحدود الجنائية يجعل التجربة مبعث الإرتياب، ولو حسنت نية القائمين عليها، لأن الفساد الإجتماعي العام الذي أفرزته السنون الطويلة في حياة الإستعمار قد أصبح من الممارسات اليومية المألوفة التي لا تواجه بأي استنكار إلاَّ عن طريق القلوب السليمة والموعظة التي فقدت فاعليتها.. وفي مثل هذه البيئة ـ المشابهة لأمثالها في معظم العالم الإسلامي ـ لا بدَّ من التحرك بحذر، فَيُبْدَأُ بإصلاح مناهج التعليم، وتطهير الساحات العامة من مظاهر المنكر، وتوفير أسباب الحياة الفاضلة بإقامة المؤسسات الإجتماعية التي تخفف من البطالة، وتيسِّر سبل الرزق الحلال... وكلما نجحت التجربة في جانب تبعتها الحلول الشرعية اللازمة.. وهو نفسه الأسلوب النبوي الذي زُوِّد به معاذ رضي الله عنه يوم وجهه الرسول ﷺ إلى اليمن، بل هو الأسلوب القرآني الذي نزلت به أحكام الشريعة منجمة وفق الحاجة والإعداد الحكيم.. هذا مع العلم بأن سلوك مثل هذا المنهج التدريجي في

أي بلد إسلامي لن يستغرق إِلاَّ اليسير من الزمن، لأن الشعوب المسلمة في لهفة حارة للعودة إلى مَهْيَعِها الأصيل. . .

وإنها لمفاجأة سارة أن تواجهني الآن هذه الأسطر في صفحة ٣٩ ع ٩٣٢ من المجلة نفسها حيث يقول الفريق عمر البشير رئيس مجلس قيادة الثورة أن الشريعة الإسلامية ستطبق في المناطق السودانية ذات الكثافة السكانية المسلمة، مستدركاً بأن «الشريعة السمحة ليست فقط هي القطع والبتر كما طبقها النميري. . وعندما يتم تطبيق الشريعة الإسلامية فإن كثيرين من غير المسلمين سينبهرون بها ولن يعادوها كما حدث في السابق) وإنه لعهد كريم أن التجربة النميرية الساقطة ستنتج نوعاً آخر من العمل الصحيح الذي من شأنه أن يقنع أعدى أعداء الإسلام بأن شريعة الله هي الضامن الوحيد لإقامة المجتمع السعيد إن شاء الله، ويومئذ سيعضُّ الظالمون من أبناء المسلمين أكفهم ندماً على ما أسلفوا من حربهم لدين الله في ديار المسلمين، إذ أخروا تطبيقهم فأخروا عملية الإنقاذ.

من الوحدة الإسلامية
إلى الوحدة العربية

ومن حق هذه المذكرات أن تدفعنا إلى مراجعة حسابنا على ضوء التجارب التي خاضتها أمتنا في صراعها مع الأحداث، التي ترجع إليها عوامل التخلخل الذي اعترى وحدتها خلال القرون، وكان له عميق الأثر في التمهيد للقارعة الكبرى التي ذهبت بالخلافة، وهيأت الأسباب لتقليص ظلال الشريعة عن المجتمعات المسلمة، وما استتبع ذلك من بروز الحواجز المفتعلة بينِ أجزائها، مما لا يزال ماثلاً على الرغم من انتشار الصحوة الجديدة وعملها الفعَّال بتعميق الوعي في مختلف أرجاء العالم الإسلامي. . والقوارع في حياة الأمم الحية دروس، وفيها العبر لمَنْ كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

وفي غمرة هذا الحساب لا بد من وقفة متأملة للحلقات القريبة من عملية النضال التي قُدِّر لها أن تجابه هاتيك القوارع. .

لقد كان رد الفعل متناسباً مع حجم الهجمة الإستعمارية التي لم تخفِ عزمها على تدمير الإسلام وتمزيق صفوف المسلمين، وقد بدأ ذلك منذ مطالع هذا القرن، وكان من أوائل رواد هذا النضال السيد جمال الدين الأفغاني[1] ثم الذين تأثروا بدعوته على امتداد الوطن الإسلامي. وتتمثل هذه المرحلة النضالية في مجلة (العروة الوثقى) ثم مجلة (المنار) اللتين استقطبتا أقوى الأقلام المسلمة، وقد تلاهما ظهور (جمعية الخلافة) التي تألفت للغرض نفسه من أعاظم رجال الإسلام في القارة الهندية. . وكان لهذه المؤسسات الفكرية أثرها البعيد في تبديد بقايا الغَفْلة عن كثير من المسلمين الذين اعتراهم اليأس ـ أو كاد ـ من استمرار الكفاح ضد الإستعمار الصليبي الجارف، فإذا شرارة اليقظة تنتشر في كل مكان. وقد راعت تلك اليقظة قلوب الغزاة فراحوا يقدرون ويدبرون، ولم يدَّخروا وسعاً في محاولة القضاء عليها. . حتى واتتهم الظروف أخيراً بانتهاء الصف الأول من أولئك الرواد، ثم بروز الدفعة الأولى من دعاة التغريب الذين تلقوا تعليمهم على أيدي المستشرقين والمنصِّرين، ومن ثم أقبلوا يبثون أفكار أساتذتهم في أوساط المسلمين عن طريق الصحافة والتعليم، ثم الإذاعة ووسائل الإعلام المختلفة، وكانت البلاد العربية قد فقدت وحدتها السياسية وأصبحت تحت سلطان الأعداء خاضعة للغات وأساليب متعددة في أنظمة الحكم. وما هي إِلاَّ جولة وأخرى في ظل هذه التطورات العاصفة حتى ركدت حركة الوحدة الإسلامية، ثم تحولت إلى دعوة للوحدة العربية. . كما يتضح ذلك من مسيرة شوقي الشعرية، إذ بدأ قصائده السياسية الإسلامية النزعة يهاجم بها الضالعين مع الغرب ضد الدولة العثمانية، فلما سقطت الخلافة بكاها بأروع هذه القصائد، ثم لم يلبث أن تحول إلى تمجيد

---

(١) لا يزال السيد الأفغاني بنظرنا بريئاً من التهم التي وجهت إلى اسمه أخيراً ولا سيما بعد الذي سمعناه من شهادة الثقات من أبناء بلده أثناء زيارتنا للمجاهدين في بيشاور.

المظلة الجديدة للعروبة التي أمست هدف الآخرين من مفكري العرب، وتحت شعار العروبة واصلت دفقة اليقظة كفاحها للمحتل محددة هدفها بوحدة الجنس، ويشاء الله أن يتوِّج هذا الكفاح بخروج المحتلين، ولكنهم لم يغادروا الأرض إِلاَّ بعد أن هيأوا لها مَنْ يتولى مواصلة طريقهم في التشبث بالتقسيم السياسي الذي بدأوه، وعلى الرغم من كثرة المنظمات الحزبية والقومية التي قامت باسم العروبة والوحدة لم تقترب قيد شعرة من التوحد، بل ما زالت تقسيمات الأجنبي هي المتحكمة في كل إقليم، حتى أضحت هي الأصل، وبات الدفاع عن هذه الأوضاع الدخيلة واجباً يستحق أن تُرَاق من أجله دماء العرب! .

الإسلام أو الرجعة إلى القبلية

وهنا لا بدَّ من وقفة تأملية أخرى نستكشف من خلالها أسباب ذلك التعثر في طريق الوحدة العربية، بعد أن توافرت لها كل الوسائل المساعدة على تنفيذ ما تعهد به المسؤولون عن هذه المسيرة.

وبكلمة مختصرة نستطيع التوكيد بأن مرد هذا التعثر واحد لا ثاني له، هو استبعاد العنصر الإسلامي عن مكونات الوحدة التي يعلنون أنهم يسعون لتحقيقها، لأن كل تصور للوحدة بين الإحدى والعشرين من جامعة الدول العربية مجردة عن القيم القرآنية لا تعدو كونها رجعة إلى الحياة القبلية السابقة لفجر حراء، والتي يصورها الشاعر الجاهلي بقوله مفتخراً:

وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إِلاَّ أخانا

لقد كانت هاتيك القبائل أحوج شيء إلى التلاحم في وجه التخلف والفقر والأعداء المحيطين بها من كل جانب، وبخاصة بعد تجربتها مع جيوش أبرهة يوم تخلَّت له قريش عن حَرَمها المقدس، ولاذت بالجبال هرباً من ضرباته القاصمة. فما الذي منعها من التوحد المنقذ فآثرت عليه التعادي والتفاني حتى أنها:

تُقَطِّع من وِتر أعز نفوسها عليها بأيد لا تكاد تطيعها

كما يقول البحتري في وصف ذلك الصراع القبلي الذي امتد حتى أيامه، واستمر حتى شهدناه في أيامنا؟!

إنها العنجهية العصبية التي تأبى أي تعاون يؤدي إلى تفوق قبيلة على أخرى ولو في أتفه المظاهر.. وأي وحدة يمكن أن تتم بين جماعتين تصل القسوة بكبير إحداهما إلى حد الإقدام على ذبح فتى أرسله والده إليه ليفعل به ما يشاء، مقابل أن يكفَّ عن إيقاد نار الحرب المبيدة بين الفريقين، فيأبى إِلاَّ قتله بيده وهو يقول (بُوبْشسع نعل فلان)!

ثم لم تزل حروب الإستئصال بين الجماعتين، وهما أبناء عمومة، حتى صارتا مضرب المثل في العرب:

والظلم فرق بين حَيِّي وائل بكر تساقيها المنايا تغلبُ

وهذه التفرقة التي يشير إليها طَرَفة في هذا البيت إنما تصور الواقع الذي لا بد أن تنتهي إليه الحياة القبلية عندما تتكاثف أعدادها فتنقسم إلى عشائر وبطون وأسرَ، فتحل كل منها مكان القبيلة الأم.. وذلك هو الشأن نفسه في الواقع القومي الذي نعايشه هذه الأيام. إذ بدأ التحرك باسم القومية التي لا تفرِّق بين مغربي وشامي، فما أن استقرَّت أوضاع الإقليم الواحد عقيب جلاء الأجنبي، حتى تحولت المعركة إلى صراع وطني بين حكامه وحكام جيرانه الأدنَين من (إخوة العروبة) ثم ما لبث الأمر أن تطور إلى ملاحم لا تنتهي بين السلطة والفئات المعارضة لها في الإقليم الواحد، حيث امتلأت السجون وحيكت التهم، وأعمِلَت سياط التعذيب، وأصبح القهر والإضطهاد هما الغذاء اليومي للسواد الأعظم من (الرعية) الذين كانت جريمة معظمهم هي الدعوة إلى حكم الله، وشعارهم أن: لا أمن ولا عدالة ولا استقرار ولا وحدة إِلاَّ في كنف الإسلام!...

وبقليل من التفكير السليم في هذا الواقع الأليم سننتهي إلى اليقين التام بأن قيام الكيانات العربية على أساس التصور القومي الراهن مكرس للتقسيم بدل التوحيد، ومعمق للفرقة بدل التجمع.. وإذن فلا أمل باستعادة الوحدة بين هذه

الكيانات إلا بالعودة إلى النظام الإسلامي الشامل لكل جوانب الحياة.

وهنا تنطلق التساؤلات الحائرة:

أليس بالإمكان إعادة العناصر الغائبة إلى هذا المجتمع التائه؟! ولكن كيف؟!... ومن أين نبدأ التحرك!!

وأول ما يتبادر إلى ذهن المفكر المسلم بإزاء هذه التساؤلات هو استحالة الوصول إلى ذلك المرفأ عن طريق الطفرة لأن الشروخ الواقعة في جسم الأمة أعمق وأعصى على الجهد البشري من أن تُزال بجرعة واحدة من الدواء... إلاَّ أن يأتي الشفاء عن طريق المعجزة.

وإذن فلم يبق أمام المصلحيٖن سوى سبيل الأطباء في معالجة الأدواء.

تناقضات لا بد من إزالتها

والمتحدث عن ركائز الوحدة يشعر أنه كالناظر في مصور الجسم الإنساني لا يرى فيه من عضو إلا وهو متماسك مع الكل، وهكذا نجد الكلام عن هذا الجانب حافزاً للتحدث عن سائر المقومات الأخرى، كالأدب والتربية والثقافة والسياسة، فهنّ كعنصرَيْ الماء إذا فصل بينهما لم يعد ثمة من ماء.. وعلى ضوء هذا التداخل ننظر الآن إلى الناحية السياسية بوصفها أحد العوامل الفعالة في الإتصال والإنفصال بالنسبة إلى موضوع الوحدة.. وقد أسلفنا رأي المستشار الأستاذ محمد كمال عبد العزيز في هذه المشكلة، وهو رأي كل المفكرين الأحرار في العالم الإسلامي، فليس معقولاً أن تتكون أمة تحكم الإشتراكية أحد أجزائها ويخضع جزء آخر منها للنظام الرأسمالي، وبقيتها لنظام الإسلام مثلاً.. إذ تكون في هذه الحال على الصورة التي مَثَّل بها القرآن العظيم لواقع الشرك، حيث نرى مملوكا يتنازع رقبته شركاء متشاكسون فلا راحة له ولا استقرار. وهو الوضع نفسه الذي تعيشه الأنظمة العربية التي تحكم الأقطار الإسلامية في هذه الأيام. فكل محاولة للتقريب بينها ضرب من العبث. وقد أشرت إلى هذه الحقيقة ذات يوم في ندوة صحفية

شاركت بها مع اثنين من أهل العلم، إذ قلت بصراحة كيف نتوقع وحدة الصف من دول يقوم أحد ممثليها في مؤتمر لوزراء الأوقاف المسلمين بالخرطوم وقد دُعي للتوقيع على توصياته، وفيها وعد بالعمل لإحلال الشريعة محل القوانين الوضعية، يقول:«لا أوافق على الفقرة الخاصة بالشريعة الإسلامية. . » ولن يجد القارىء غرابة في تلك الصراحة عندما يعلم أن الناطق بها يومئذ هو وزير العراق، ولكن الغرابة كل الغرابة أن تكون هذه الدولة التي ترفض شريعة الله على لسان وزيرها هي التي تزعم فيما بعد أنها تعلن الجهاد في سبيل الله، ويدَّعي حاكمها مع ذلك أنه من أَسباط رسول الله!!

وكيف نتوقع مثل هذه الوحدة من دولة يصرِّح ممثلها الآخر لإحدى وكالات الأنباء وهو في طريقه إلى مؤتمر إحدى القمم الإسلامية: «نحن دولة غير إسلامية وإن كان أكثر سكانها مسلمين. . »!!.

أجل إن كل محاولة لاستعادة الوحدة بين المجتمعات الإسلامية لا بد أن تضع في حسابها ضرورة العمل الجادِّ لإزالة هذه التناقضات، تمهيداً لإقامة الشورى الإسلامية، التي لا يرفضها سوى العلمانيين والحزبيين والمستغربين، وهم لا يشكلون أكثر من ٥٪ كما أثبتت الإستفتاءات التي أجريت في أشهر هذه المجتمعات.

منهج الإسلام في التغيير

ومن المعلومات البديهية أن أوضاعاً قامت على مثل هذه التناقضات، لا مندوحة من التعامل معها وفق الطريقة التي قامت عليها في الأصل، وأسوتُنا في ذلك منهج الله الذي يبين لرسوله ﷺ الحكمة في تنزيله القرآن العظيم منجماً بدل إنزاله جملة واحدة كما يطلب المخالفون:

﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾

[الفرقان: ٣٢]

فاقتلاع الواقع المألوف من أصعب ما يواجهه المصلحون، شأنه في ذلك شأن المناهج التعليمية التي تنظم وفق سن المتعلم وتفتحه الذهني، ولو فرضت عليه دفعة واحدة لما كان لها من مردود سوى البلبلة والضياع. .

وقد سبقت الإشارة إلى هذه الحقيقة. . وبقي علينا أن نُتبعها ببعض التفاصيل بالنسبة إلى موضوع التغيير الذي لا مندوحة عنه في أنظمة الحكم. .

إن ثمة وسائل متعددة لتقريب الأفهام حول هذا الموضوع، يمكن أن يُبْدَأ بأكثرها تماسّاً مع الفكر البشري في العهد الراهن، فقد تعددت الأصوات التي ارتفعت مؤخراً للتنبيه إلى وجوب إعادة النظر في الأنظمة العالمية وضرورة تعديلها وفقاً لحاجة العالم المتطور، وهي مناسبة صالحة لعرض النظريات الإسلامية في كل الشؤون التي تدور حولها المناقشات الفكرية المعاصرة. وليكن ذلك في نطاق القانون المقارن، وقد سبق للإسلام أن لفت أنظار علماء الحقوق إلى تفوق نظرياته في هذا الجانب على كل الشرائع الوضعية في عدد من المؤتمرات العالمية، أحدها الذي عقد في باريس عام ١٩٥١ م وشهده من العرب الدكتور ـ معروف الدواليبي، والأستاذ مصطفى الزرقاء وآخرون من كبار علماء الأزهر، وقبل ذلك أعلن الأستاذ شبرل عميد كلية الحقوق في جامعة ڤيينا: «إن البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد إليها إذ أتى قبل بضعة عشر قرنا بتشريع سنكون نحن الأوروبيين أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمته بعد ألفي عام»(١).

إن مؤتمراً حديثاً في الموضوع نفسه وعلى ضوء التطورات البشرية الراهنة، سيستقطب الأفكار أكثر فأكثر إلى الشريعة الكاملة التي أودعها الله أصول الحلول التي تتطلبها حاجة البشرية على امتداد الزمان.

والمتوقع لمثل هذا المؤتمر أن لا يتردد في الأخذ بهذه الحلول ولا سيما بعد الكتب الكثيرة التي فصَّلتها أقلام المنصفين من الشرق والغرب. ويومئذ لن يبقى

---

(١) انظر كتابنا (مشكلات الجيل في ضوء الإسلام) ص ١٨٩ ط ٤.

للمسؤولين في العالم الإسلامي أي عذر في تأخير الإنتفاع بهذه الحلول لمصلحة أوطانهم وشعوبهم. .

إن نجاح مثل هذا المؤتمر العالمي في إبراز كمال النظام الإسلامي بالنسبة إلى الأنظمة العالمية الأخرى مؤد بطبيعة الحال إلى اقتناع أولئك المسؤولين في ربوع الإسلام بضرورة أسلمة قوانينهم، أو تقريبها خطوة بعد أخرى من الطابع الإسلامي. وقد تكفل بذلك مُنْزِل هذا التشريع الكامل في قوله الخالد:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾

[فصلت: ٥٣]

محكمة عدل إسلامية

وكدأب هذا الإسلام العظيم الذي لا يفرِّط في شيء من مصالح الإنسان تأتي حتمية الخطوة التالية لهذا التصور الطبيعي في الاتجاه الجماعي نحو نظام الشورى، النظام الذي تتجه نحوه الأنظمة الوضعية في كل مكان حتى في بؤرة الشيوعية، التي جثمت على صدور الملايين عشرات السنين، ثم بدأت بالإنقشاع مخلفةً وراءها آكداس الأشلاء وبراكين النقمة الجارفة من طواغيت الإستبداد الخانق. التوحد في النظام الشوري في كيانات المسلمين كافٍ لتوفير مناخ التآلف بينها، ولا سيما بعد أن تدرك مدى جناية التفرق على مصالح الجميع. وعلى الطريقة نفسها التي تُعقد بها مؤتمرات الدول العربية لبحث مصالحها في ظلال التطورات الإجتماعية والتنموية، من مؤتمر خاص بالزراعة إلى آخر خاص بالمحاماة، وثالث بالطب. . هكذا تعقد مجالس شورى الدول العربية والإسلامية، التي يجب أن تتألف من كبار علماء الشريعة وذوي التخصصات الشاملة لمختلف جوانب الحياة، والتي سينتهي أمرها في المراحل التالية إلى تحالفات إقليمية يعقبها مجلس اتحادي يمثل الأقطار المتحالفة جميعاً، على غرار السوق الأوروبية المشتركة التي قاربت الآن مرحلة الوحدة الشاملة في الحكم والإقتصاد والثقافة والدفاع. . وما إليها من أشكال

التجمع، ولو قُيِّض للمسلمين قادة سلمت رؤيتهم من التشتت لما سبقتهم تلك الدول في هذا الميدان، وبخاصة أن أسباب التلاقي بينهم أكثر عدداً وأشد رسوخاً منها بين أولئك الأوروبيين. ويوم يتم هذا التلاحم المعقول بين أقطار المسلمين فلن يكون هناك حرب يقتل فيها المسلم أخاه، كالتي نشهدها منذ سنين بين المغرب والبوليساريو، ولن نشهد مثل مأساة الأمس بين موريتانيا والسنغال، ولن نتوقع مثل حرب الماء المتحفِّزَة اليوم بين تركيا وجارتيها المسلمتين.. لأن أي خلاف بين حكومتين من المسلمين سيحال يومئذ إلى محكمة العدل الإسلامية، التي ستنظر في الخلاف كائناً ما كان في ضوء التوجيه الإلهي القائل:

وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾

[الحجرات: ٩ ـ ١٠]

وفي هذا التلاقي الأخوي سيتحول كل شيء إلى الإتجاه الصحيح، فالمناهج الدراسية والشركات الإقتصادية، والمنظمات الإجتماعية، حتى التشكيلات الرياضية ستمضي كلها في طريق التعاون على بناء الكيان السليم للأمة التي صممت أن تستعيد مكانتها تحت الشمس..

ظلمات وأشعة

ولقد أدرك المسلمون أهمية الوحدة في وجودهم فكانوا كلما نجح المفسدون في إيهانها بالدس وبثِّ السموم عمدوا إلى رتق الفتوق باستصلاح ما وَهَى من ذلك البنيان. وقد كان أول نجاح في هذا المجال تلك الأخوة التي أعادها للأمة سبط رسول الله ﷺ الحسن بن علي رضي الله عنهما، عقيب الفتن الهائلة التي زلزلت كيان المسلمين بمقتل الراشدين وملاحم الجمل وصِفّين، ثم اغتيال

المضلل ابن ملجم رابعَ المصطفين الأخيار، فكان تنازل الحسن لمعاوية تحقيقاً لبشرى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بأن الله سيصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين.

ثم تلاحقت الزلازل حتى تعرّض الإسلام كله للزوال تحت هجمات المغول من الشرق والصليبيين من الغرب، فكاد يستحيل خبراً يروى بعد أن كان عالماً يمد جناحيه على الشرق والغرب.. بيد أن الله جلّت حكمته وقد تعهد بحفظ هذا الدين إلى نهاية الحياة، قد أخرج النور من أسداف الظلام فهيأ رجالاً من خيرة عباده تقدموا لمواجهة ذلك السيل الجارف، فما فتئوا يتداولون الراية حتى ركَّزها في يد المجاهد القانت صلاح الدين يوسف بن أيوب. فلقد علم هذا العبد الصالح أَلّاَ خلاص من ذلك المأزق المدمر إِلاَّ بالعودة الخالصة إلى مَنْ بيده ملكوت السموات والأرض، ثم بالعمل المتواصل لرد القطعان الشاردة من أهل الإيمان إلى طريق الإيمان الذي فتح الله به العالم للرعيل الأول.. فحقق له مولاه من التوفيق كفاء ما علم من صدق نيته، ومن ثَمّ جاءه نصر الله والفتح، فإذا بأعداء التوحيد، وهم أمم لا يُحصى عددها تستحيل في معركة حطين غنائم للقائد الأمين، وإذا بالجموع المبعثرة المشردة من أمة محمد قد استعادت رشدها، وانتظم أمرها في مثل الوحدة التي حققها سلفها الصالح.

وتستمر هذه الوحدة في رعاية الله لا يعتريها من العثار إِلاَّ بمقدار ما يعترضها من مؤامرات الفرق الضالعة مع العدو، الذي لم تتوقف مكايده خلال القرون، حتى شاء الله أن يبتلي المسلمين ببعض ذنوبهم، ومن أكبرها إغفالهم الإعداد الذي أمرهم به، فكان عاقبة ذلك أن فوجئوا بعدو على أتمِّ ما يكون من التأهب، على حين كانوا هم على أَتَمِّ ما يريد لهم من الاستعداد للسقوط.. ومن ثم جاءت النتيجة الطبيعية لهذا التفاوت بين الفريقين، فإذا المسلمون شَذَرَ مَذَرَ يتقاسمهم أعداؤهم كما يتقاسمون أوطانهم وأموالهم.. ثم لم تتوقف هذه المرحلة الكالحة في حياتهم حتى وقعت الراجفة العظمى بالقضاء على الخلافة، التي كانت الدعامة الأخيرة في بناء الوحدة الإسلامية، فما أن توارت عن البصر حتى شرعت الصفوف

تتهاوى في إثرها، وكاد الرجاء ينقطع مرة أخرى بعودة الوشائج الأخوية إلى هذه المِزَق. .

مخاض البعث الجديد

على أن تدبيراً ربانياً كان يعمل عمله الخارق وراء هذه الأحداث فهيَّأ الظروف الحكيمة لدفقة جديدة من الحياة في أوصال هذه الأمة. . وقد تجلت بوادر هذا التدبير في عدد من الظواهر المبشِّرة لم تقتصر على جانب من أرض الإسلام بل انتظمت أكثرها، ولم تقف عند حدود الكفاح السياسي والعسكري بل امتدت إلى أعماق النفوس فهزت قواعد البِدَع والخرافات بالدعوة إلى تصحيح المفهوم وتطهير العقيدة الأصلية من الشوائب. فكانت هناك حركة الإحياء الكبرى التي أوقدها الشيخان أحمد بن عرفان ومحمد بن إسماعيل على مستوى شبه القارة الهندية، فأيقظت المسلمن من رقدتهم، ونفضت عنهم غبار اليأس، وردت إليهم روح الجهاد والأمل بالحكم الراشدي. . وعلى الرغم من النكسات التي أوقفت زحفها أخيراً بأيدي الغادرين من عملاء الجاهليات القبلية، فقد تركت آثارها عميقة في إشعار المسلمين بذاتيتهم وإعادة الثقة بطاقاتهم الفعالة. .

وفي تلك الأثناء كانت دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب تلهب مشاعر المؤمنين في قلب الجزيرة العربية، فتطهر النفوس من سموم الإنحرافات الداخلية، وتُبصِّرها بالحقائق التي غابت طويلاً عن الأعين والبصائر، فلا تلبث أن تنتشر أشعتها في مختلف أصقاع المسلمين، ويتردد صداها في أعماق القلوب التي طالما حركها الحنين للعودة إلى رحاب الفطرة السليمة، والتوجيهات الإلهية الحكيمة. . وتتتابع البوادر وتطلّ من خلالها حركة السيد جمال الدين الأفغاني التي أسلفنا ذكرها، وما أعقبها من النشاط الفكري والسياسي الذي ما لبث حتى عَمَّ أقطار المسلمين. .

وغير بعيد عن ذلك العهد انبثقت حركة العملاق الجزائري الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي ألف جمعية العلماء، وقاد مسيرة النهضة في التوعية الإسلامية،

التي إليها يرجع الفضل في إيقاد نار الثورة الكبرى ضد الإستعمار الفرنسي، والتي انتهت بالقضاء على الوجود الأجنبي وقيام الجمهورية الجزائرية على أشلاء مليوني شهيد. .

الإسلام يتحرك في كل مكان

وكانت رحم التاريخ تتمخض بالأحداث التي ولدت الجمهورية العلمانية بتركيا، حيث اندفع الإلحاد الموجه بأصابع الماسونية الدولية في حملته المسعورة للقضاء على قيادة البلاد الدينية، حتى إذا أخرس الهول الألسن، وظن أعداء الإسلام أنهم حققوا غايتهم في الخلاص من كل مقاومة، برز اسم البطل سعيد النورسي يحرك الضمائر ويثير المشاعر، ويواجه الباطل بالكلمة التي لا تخاف في الله لومة لائم، وقد فسح الله لرسائله السبيل إلى النفوس الظامئة للحق، فلم تحل تدابير المتسلطين دون تسربها من وراء السجون إلى أيدي المؤمنين، وبهذه الرسائل ردَّ الله الأمل إلى الأجيال الحائرة، فمضت تكافح سراً وجهراً لتثبيت روح الإسلام الحق في صدور الجماهير التركية، غير عابئة بما تلقاه من طواغيت العلمانية والإلحاد، وفي الوقت نفسه كان الإسلام يتحرك في كل مكان، حتى في قلب الإمبراطورية الروسية، حيث هبَّت كتائب الإمام شامل يَرُّجون الآرض تحت أقدام المعتدين، ثم في مصر والقارة الهندية حيث نشأت المنظمتان الشقيقتان «الإخوان المسلمون» و«الجماعة الإسلامية»، وقد أفادتا من سائر التجارب السابقة في تعبئة الطاقات، فخرجتا على العالم الإسلامي بضروب من التنظيم الذي شقَّ للأجيال سبيلها اللاهب لإقامة الكيان الأمثل.

وهكذا تلاقت مساعي المصلحين الإسلاميين على الرؤية التي عمل في إيضاحها وتعميقها رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فهم ومَنْ سلك نهجهم على نور من ربهم لا يزيغون عنه حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

الجهاد الذي أيقظ الدنيا

وفي جهاد أفغانستان المستمر منذ عشر سنوات مثل لا يكاد يضاهى للصمود الذي يستطيع أن يقارع بالإيمان الأعزل أشرس وأعتى قوى الإلحاد العالمي، وقد زُوِّد بأحدث ما تفتقت عنه مواهب الشياطين من ضروب الأسلحة الساحقة الماحقة، فلم تغنِ عنها من قدر الله شيئاً، وها هي ذي تندحر في هزيمة لم تقف عند حدود الإنهيار العسكري، بل تجاوزتها إلى بنيان الدولة الباغية كله، فإذا هو يترنح ثم يخرّ عليه السقف من فوقه، فيستحيل مِزَقاً تُغري به الشعوب التي كانت الماركسية تنيخ على صدرها فلا تسمح لها أن تتنفس إِلاَّ بمقدار، ثم يستمر الزلزال في زحفه، وها هو ذا يدمر اليوم كل الأنظمة التي فرضتها تلك النحلة الشيطانية في كل مكان امتدت يدها إليه من هذه البسيطة.. وكل ذلك ببركة الجهاد الإسلامي في أفغانستان الذي نرجو أن يجعله الله سبباً لتحرير الأرض من كل الطواغيت الذين شحنوها بالرعب والهلع..

وطبيعي أن تنال قضية الإسلام من تلك البركات نصيبها الأوفى فتحيي الآمال بعد أن شارفت الموت، وترد للأخّوة الربانية طاقتها الفعالة لتنشر من جديد وَهَجَها المتألق على امتداد الوجود الإسلامي مبشراً باقتراب العهد الذي يرد للأمة القائدة وحدتها السليبة، فتستعيد في ظله الوضع الذي وصفه نبيها صلوات الله عليه وسلامه حين مَثَّل لها بالجسد الواحد يتفاعل بعضه مع بعض ويشد بعضه بعضاً..

كلمة حق

وما أحكمها من مناسبة أن يقع بصري في ختام هذه الأسطر على تلك الخاطرة النبيلة التي أطلقها سماحة مفتي الجمهورية التونسية ونشرتها جريدة عكاظ يوم ٢٩/١١/ ١٤١٢ هـ بعنوان (كلمة حق) فكانت أبلغ رد على ذلك الطلب الذي قدمه إلى أحد المؤتمرات مسؤول عربي وفيه يقترح إلغاء ذكر الجهاد من حياة

المسلمين، على طريقة القاديانيين الذين ابتدعوا هذه النغمة إرضاء للإمبراطورية البريطانية التي أسبغت عليهم حمايتها وتأييدها!.

وقد آثرت إيراد هذه الخاطرة الحرة كاملة لأنها من الحقائق التي تستعصي على التجزئة.

يقول سماحته: «ربما يتساءل البعض عمَّا يحدث للمسلمين في العديد من البقاع من اضطهاد وتصفية»!! والحقيقة أن الإسلام من بداية الدعوة وحتى الآن هو دين الجهاد الحق في الله.. قال تعالى:

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾

[الحج: ٧٨]

ذلك أن العداء للإسلام هو صنوالعداء للحق وهو مظهر من مظاهر الصراع الكوني الأزلي بين الحق والباطل.

فقد لاقى رسول الله ﷺ وهو ينشر دين الله ما لاقاه من عنت الكفر، ولاقى المسلمون معه من الإضطهاد ما لاقوه.

ثم بعد ذلك وعلى امتداد تاريخ الإسلام الطويل وجدنا الحقد على الإسلام يتخذ أشكالاً ومظاهر كثيرة في تنفيذ آثار هذا الحقد من المؤامرات إلى التعذيب إلى الإستعمار إلى الغزو. فكل هذه المظاهر عاشها المسلمون ولا يزالون يعيشونها والمشكل الكبير هو في غفلة بعض الناس عن التقييم عندما يجعلون مبنى هذا العداء وهذا التسلط نواحي مادية واعتبارات اقتصادية.

فهذه النواحي والإعتبارات وإنْ كان لها اعتبار في دفع قوى الشر في التسلط على الحق الإسلامي فإنها ثانوية، وأَمَّا الأصل فهو العداء لهذا الدين. لأن الإسلام يقوم على أن السلطة لله ولله وحده وأن الإنسان في هذا الكون عليه أن يحقق إرادة الله وأن لا يسير حسب هواه، ولكن حسب تشريع الله.

ولهذا نجد القوى التي تريد أن تعتمد على نشاطها وعلى قوتها المادية ترى في هذا الدين الحاجز، أو المنافي لتطورها في الوجود. لذا فإن هؤلاء سواء كانوا جماعة تنتسب إلى الإسلام جغرافياً أو كانوا من غير المسلمين، تضيق صدورهم دوماً بهذه الفلسفة، وهذه النظرة لمنزلة الإسلام في الكون، من منظور إسلامي، فتراهم يسيرون على خط مختلف مع خط المسلمين.. ففرق عظيم بين سيادة الإنسان في الكون وبين منزلته في (الحضارة الغربية) التي تجعل منه إلهاً يفعل ما يشاء وتقر له بالحرية المطلقة في تصرفاته، هذه التصرفات التي لا يحدها إلاَّ القانون الظاهري. فإذا بالإسلام يؤسس تصوراً جديداً يختلف عن ذلك التصور اختلافاً كاملاً وهو أن الإنسان مؤتمن في هذا الكون على ما أودع الله فيه وأنه مسؤول عن إصلاح الكون لا أن يعمل على إفساده، وأنه لا يتسلط قوي على ضعيف لأن العباد كلهم عباده وأن مراتب الناس هي سواء أمام الله، وأنهم يتفاضلون بمقدار ما يستجيبون لأوامره ويطبقون أحكامه، فهذا السلب للتعاظم البشري هو الذي جعل الفلسفات والأديان والمغرورين من الناس يعادون الإسلام، واتخذ هذا العداء أشكالاً مثلما أسلفت القول: (مؤامراتٍ وغزواً وسخريةً واستعماراً وتكوين جمعيات تساند الكفر والإلحاد والطعن في الإسلام).

وما أعد به الإسلام المسلم لمواجهة هذه التحديات هو الجهاد، والجهاد معناه ملازمة اليقظة الدائمة إزاء هؤلاء الأعداء الذين يتربصون بالإسلام، وتتمثل هذه اليقظة في إعداد العدة الكافية لرد الإعتداء سواء كان ذلك باللسان والحجة وبيان الحقيقة، أو إزالة التزييف والشكوك التي يبثها عن الإسلام أعداء الإسلام، وذلك بالتكوين المستمر من العائلة للأبناء لتكوين الناشئة التكوين المستقيم على استقامة الإيمان، أو بجهاد الإنسان نفسه في حياته حتى لا ينساق مع عواطفه ومع مصالحه القريبة ومماراة الكفر والإلحاد والنفاق والشراهة، أو بالإستعداد الحربي الدائم حتى تكون بلاد الإسلام بلاداً ترهب العدو أن يقتحمها كما قال تعالى:

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾
[الأنفال: ٦٠]

فجرٌ من الجزيرة

ولا ننسى ونحن في صدد الحديث عن أثر هذه التطورات في وحدة الجماعة المسلمة أن نذكر من ثمراتها المرحلية تلك الوحدة النموذجية التي حققها الله بين الحجاز ونجد تحت راية (لا إله إلاّ الله محمد رسول الله) وفي ظلال الحرمين اللذين شرَّفهما الله بالإصطفاء لإضاءة الأرض بأنوار الرسالة الخاتمة.

ولقد وفَّر الله لهذه الوحدة من أسباب النماء والبقاء ما لم يُتح ولنْ يُتاح لكل المحاولات التي أريد بها تركيب وحدة عربية، وذلك لاختلاف مادة البناء بين النوعين.. وشتّان بين كيانات تقوم على العصبية القومية أو الاشتراكية المنافيتين لروح الأمة، وآخر يقوم على القواعد نفسها التي بُنيت عليها أول وحدة في الإسلام. فلئن أمكن للوحدة المصطنعة أن تستمر بين قطرين وتحت كابوس القهر إلى حين ثم تنتهي إلى الإنفصام والإنفجار، فللثانية مقوماتها الربانية التي لا تزيدها الأحداث إلاَّ رسوخاً لاستنادها إلى العقيدة التي تجمع قلوب المؤمنين حول الحرمين المقدسين، فتجعل من الأمة ذلك الكيان الواحد الذي لا يصح عضو منه إلاَّ بسلامة الكل.. وكل عدوان على أمنه دقَّ أو جلَّ مؤجج نقمته فموجهها إلى قلب ذلك العادي المستهين بحرماته..

ولعمر الحق إن في هذه الوحدة لفرصة الدهر أمام الدول الإسلامية التي تؤمن بضرورة التقارب، إذ هي السبيل الوحيد لإنقاذها من التيه الذي صارت إليه، والضامن الأوحد لاسترداد مكانتها المفقودة في الحضور العالمي، ولن يكلفها ذلك سوى الإقتناع بمبادىء النظام الذي قامت عليه هذه الوحدة، وهو الذي تنتظره الدنيا بعد أن أفلست سائر أنظمتها الوضعية، ثم تأتي الخطوة التالية بإعادة ترتيب أوضاعها الإقليمية على أساس هذه المبادىء، ويتلو ذلك تكوين المجالس الشورية المحلية وفق الأحكام الشرعية، التي تؤمِّن مصلحة الإنسان في جوانب الحياة كلها، ومن هذه المجالس المحلية يُنتخب المندوبون الذين يمثلون الأمة كلها في المجلس الشوري الأعلى.. وبعد هذا يكون لكل إقليم من «دولة الإتحاد

الإسلامي» هذه إدارته الخاصة غير المتعارضة مع نظامها العام. . وستكون أبواب هذا الإتحاد يومئذ مفتوحة لاستقبال كل تجمع إسلامي يؤمن بمبادئه ويلتزم بأحكامه، ولا غضاضة أن يشبه هذا التركيب هيكل الإتحاد الأميركي أو السويسري في تنظيماته ابنيوية إذا كان هو الشكل الأضمن للسلامة ولإدارة الكيان العام على النحو الأيسر والأقرب للكمال، والحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق بها. . .

تلك هي النماذج التي لا بد من استحضارها في الذهن ونحن في صدد البحث عن مثال للوحدة المرجوة، ولا بد إذا وقفنا أمامها ملياً نستوحي الخطوط الرئيسية للبناء المنشود، وذلك لأن وضعنا في هذا الكون بوصفنا الأمة المؤتَمَنة على رسالة السماء يفرض علينا الإلتزام بالمنهج الذي رسمته أشعة الوحي بيد خاتم النبيين. فلا نفارقه قيد أنملة إيماناً منا بأن آخر هذه الأمة لا يصلح إلاَّ بما صلح به أولها. . وقد أثبتت تجاربنا المنهارة سداد المنهج وخطأ مفارقته فلا حاجة إلى إعادتها من جديد.

نحن والتكتلات الدولية

على أن التزامنا بالخط النبوي لا يقطعنا عن الإنتفاع بتجارب الأمم الأخرى وبخاصة المعاصرة منها، وأقرب التجارب إلى الحس جامعة الدول العربية التي تعتبر مؤسسة تمثيلية كل وظيفتها التقريب بين وجهات النظر، ثم توحيد الأصوات عند بحث الشؤون العربية في مؤسسات الأمم المتحدة فإذا ما طُرحت القضايا الحساسة التي تتصارع حولها الأيديولوجيات رجعت كل دولة إلى منهجها الخاص فأخذت من التوجيهات ما يناسبها، وتركت ما يخالف طريقتها. . وذلك أمر طبيعي ما دام لكل من هذه الدول (الشقيقة) ارتباطاتها الخاصة. . وذلك ريثما يتم الله نعمته بعودة الجميع إلى كنف الإسلام.

أما بالنسبة إلى التجمعات الدولية كمجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة فالمصلحة الخاصة هي التي تسيطر عليها، كل قضية تعرض أمامها لا بد أن تخضع

للمساومات الخلفية، ويظل القول الحاسم لدول الفيتو الذي من صلاحيته آن ينسف كل قرار لا توافق عليه!. وبفضل هذا الفيتو تشن «إسرائيل» حروب الإبادة على الشعب الفلسطيني، وتقاتل فِرقُها الإرهابية كل مناضلٍ ترى في تصفيته مصلحة لها حيثما كان، وتقوم بتدريب القتلة من مجرمي المافيا في كولومبيا وغيرها، دون أن تخشى اعتراضاً أو قراراً يصدر من مجلس الأمن ما دامت تنعم بحماية الفيتو الأميركي. وقل مثل ذلك في منظمة «عدم الإنحياز» التي يمثل أعضاؤها مختلف الأيديولوجيات الغارق معظمها في التحيز.. وحتى منظمة الوحدة الإفريقية، وهي أقرب إلى المعقول من أكثر المنظمات الدولية، فإنها لم تستطع حتى الآن حل أي مشكلة إفريقية على امتداد السنين.. وليس الواقع المضطرب سوى تعبير مصور للتناقضات الرهيبة التي تمثلها هذه المنظمات وتعيشها كل منها في محيطها الخاص...

ومن هنا كان واجباً على المسلمين أن يحسنوا الإختيار فلا تصرفهم أخطاء تلك المنظمات عن الإفادة من صوابها، ولا يكونوا كحاطب الليل، بل يتخيرون من تجاربها ما لا يتعارض مع مناهجهم المنبثقة من تراثهم الروحي والثقافي، فيسدون المنافذ بوجه السموم الوافدة، ليس فقط بالنسبة إلى مثل تلك التنظيمات الدولية، بل في كل ما يواجهونه من هنا وهناك، وذلك هو التوجيه الإلهي الذي يقرأونه في كتاب ربهم حيث يصف الصالحين من عباده بأنهم:

ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ

[الزمر: ١٨]

فاتباع الأحسن في كل شيء هو المنهاج الوسطي الذي ميز الله به هذه الأمة منذ أسند إليها مهمة الشهادة على الخلق، وجعلها المسؤولة عن هدايتهم للتي هي أقوم، وهو التزام لا مناص منه للشعوب الإسلامية عند اختيار النموذج الأمثل للوحدة التي تحققت لها من قبل وتسعى لاستعادتها اليوم، وحجتها التي لا ترد في هذا الإتجاه سلامة هذا النهج من أنواع الخلل الذي يفسد التركيب النفسي والخلقي

في الكيانات الأخرى.. ولا يعني ذلك أن تكون هذه الشعوب في ظل الوحدة المرتجاة ضرباً من المجتمعات المغلقة الخيالية المعصومة من الخطأ، بل لأن أخطاءها تعالج بمقومات التعاون الأخوي الذي يذكِّر المسلمين بأنهم إخوة، وأنهم مكلفون إصلاح ذات بينهم بالحب والتوادّ والعدل الذي به قامت السموات والأرض..

هذه التجمعات الرشيدة

لا جرم أن الوقوف بالقارىء على ما تقدم من هذه الصفحات باعث له على التساؤل: وأين أنباء هذه التجمعات التي نشاهد قيامها بين الأقطار العربية هذه الأيام؟.. إِننا تلقاء عدد من هذه الوحدات تكاد تستوعب الشعوب العربية كلها.. أفلا يمكن اعتبارها خطوات مرحلية في طريق الوحدة العربية فالإسلامية؟

وإنه لتساؤل معقول وجدير بأن يجد القارىء جوابه في مثل هذا البحث، فليس بالشيء اليسير في تاريخ هذه الحقبة أن تتجمع أقطار المغرب الخمسة في اتحاد أخوي يضم نصف الجنس العربي، في الوقت الذي يشهد ترابط الدول الخليجية الست في مجلس تعاوني يرسِّخ وحدتها ثم يأتي فجر الوحدة المنشودة بين اليمنين الشقيقين.. إن مشهد هذه التجمعات يثير تطلعات المسلمين إلى استكمال هذه الحلقات بانضمام بقية الأجزاء العربية إلى أحد هذه الإتحادات، ليكون هناك عهد جديد يمكن تسميته بعهد التجمعات الممهِّدة لبروز الوحدة العربية الشاملة والموعودة..

أجل.. إنها لظاهرة سارة بل سعيدة هذه الأحداث التي يتمخض بها الحاضر العربي، فيضع العرب على مشارف الحياة التي طالما وعدتهم بها الأنظمة والإنقلابات، التي كادت تذهب بالأخضر واليابس..

ومما يشدد الآمال بتحقيق الأحلام سير هذه التجمعات أو أكثرها في الطريق الطبيعي، إذ كانت بين أقاليم متجاورة تجمع بينها القرابة المتشابكة والمصالح

المشتركة فتهيئها لتكون مجتمعات متكاملة المرافق، بخلاف تلك الوحدة التي فرضتها الظروف الطارئة بين قطرين تفصل بينهما أقطار، وتعوزهما وحدة المصالح والأفكار، فما لبثا إلا قليلاً حتى انتهيا إلى الفصام!

ولا تركنوا إلى الذين ظلموا

ولكن المفكر ذا النظر الجديد لا يقف من العرض عند مظاهره السطحية، بل لا بد له هو الآخر من التساؤل عن نوعية الأسس التي تنهض عليها هذه المؤسسات ليتبين إذا كانت صالحة للإستمرار، أم ثمة ما يهددها من عوامل التخلخل فالإنهيار. وأول ما يواجهه من المحذورات قيام تلك التجمعات أو معظمها على أساس المصلحة المشتركة وهو أساس صحيح لأنه يوفر لكل من هذه الأقطار نوعاً من التكامل الذي يمده بالقدرة على مواجهة الأحداث والحاجات، بيد أن المصلحة خاضعة للتطور والتغير، فلا بد لها من دعامة تضمن لها البقاء والسلامة واستمرار الثقة، وهي مضمونة في نطاق التصور الإسلامي وحده.. فهل من أمل باستكمال عناصر هذه الوحدات بالعودة إلى الأساس الرباني الذي يربط مصير هذه الأمة بالتزام الأخّوة الإسلامية منذ أعلن الله في كتابه:

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ

[الحجرات: ١٠]

و:

وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً

[المؤمنون: ٥٢]

ولكن هذا يقتضي من المسؤولين عن هذه التجمعات تطهير قلوبهم وأفكارهم من كل الرواسب التي لوّثتها الماركسية والإشتراكية والقومية والوطنية وما إليها من الألغام المعدة لنسف كل الأهداف العظيمة لهذه الأمة، ومن ثم

تحويل شعوبها أدوات لا غرض لها سوى تحقيق أهداف أعدائها الذين يحذرها الله منهم بقوله الخالد:

وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ

[هود: ١١٣]

وأول الدلائل على سلامة هذا الإتجاه إعادة النظر في علاقة هذه التجمعات بأولئك الأعداء، وإقامتها من جديد على قاعدة التحرر التام من إيحاءاتهم المريبة، ثم بناء اقتصادها على أساس الاستقلال البعيد عن توجيهاتهم ومصارفهم الربوية، ثم تحويل الأجيال من مَهَامِهِ اللغو والعبث إلى التنظيم الذي يؤهلهم للدفاع عن دينهم وأمتهم. ويومئذٍ لن يقف أي من مسؤولي هذه التجمعات موقف المتفرج على مذابح المسلمين في فلسطين وأفغانستان والهند وغيرها مكتفياً بالأسى والإحتجاج لدى أصحاب الفيتو في مجلس الأمن!. ويومئذٍ لن يجد الأعداء بين المسلمين مَنْ يمد يده إليهم بطلب السلام، أو يلجأ إلى حماة القتلة بالتماس وساطتهم لتخفيف الآلام، بل سيجد المعتدون أمامهم صفوفاً مرصوصة قد تفجرت طاقاتها تصميماً على التضحية بكل شيء ذوداً عن الحق والأخّوة والكرامة، وهي على أتم اليقين بأن معها الله الذي لا يتخلى عن عباده المجاهدين في سبيله. ويومئذٍ لن يرى شامير وشارون عرباً يشاهدون سيول المهاجرين من أبناء الأفاعي تتدفق على أقداس الأقصى لتطرد بقية الأهل من مهاد آبائهم، ولتستولي على البقايا المتخلفة من حقولهم ومساكنهم، ثم لا يجد أولئك المتفرجون على المأساة ما يواجهونها به سوى الخُطب والإجتماعات، على طريقة ذلك القائل (أوسعتهم شتماً وراحوا بالإبل..)!

صيحة حق ولكن... هل نسمع؟!

لقد أطلق أحد المسؤولين العرب صيحة الحق عندما صرخ في أحد مؤتمرات القمة العربية أن القضية لم تعد مقصورة على الكفاح الناشب بين الأفاعي

وأشبال الإنتفاضة، ولكنها تحولت بتدفق هذه المئات من آلوف المهاجرين من الإتحاد السوفياتي إلى وباء يهدد الأمة العربية بأسرها. وبالصراحة نفسها يعلن رئيس آخر: «أن أحكم رد على الهجوم الجديد إقدام العرب على سحب أرصدتهم من الولايات المتحدة». ومعنى ذلك أنه لم يعد أمام العرب سوى أحد خيارين، الرضى بالواقع الذي تفرضه أميركا وصنيعتها إسرائيل، أو النهوض كتلة واحدة بكل إِمكاناتهم البشرية والمادية لمجابهة الخطر الماحق.. ولعمر الله إن هذه بعض الحقيقة، لأن خطر الزحف الجديد يتجاوز العرب إلى العالم الإسلامي جميعاً، ولأن العالم العربي يشكل الدرع الأول لبقية العالم الإسلامي، فبسقوطه يصبح هذا العالم مكشوفاً للجائحة العامة.. وهو المصير الذي تخطط له الصهيونية من خلال «إسرائيل الكبرى» لاستكمال سيطرتها على أَزِمَّة العالم كما تحددها بروتوكولات صهيون..

فهل أدرك المسؤولون عن هذه الأمة حجم الكارثة التي تُعدّ لهم؟.. وهل لهذه التجمعات التي حققوها حتى الآن أن تؤمِّن لأقطارهم القدرة على مواجهتها بالقوة المكافئة؟!..

لقد كان من فضل الله على هذه الأمة أن أتاح لها امتداداً جغرافياً متصل الأجزاء، واسع الرقعة فياض الموارد، تحتاج إليه كل شعوب البسيطة ولا يكاد يحتاج إلى أحد منها، وأتم نعمته عليها بأن وضع في يديها مفاتيح القلوب تحييها بكلمات الله، فمهما استعلى العالم من حولها بكشوفه ورفاهيته المادية، تظل هي مرجعه بما تحتضن من الرسالة الخاتمة التي عليها تتوقف هداية الجميع للتي هي أقوم.. ولكن الويل لها كل الويل إذا هي تخلَّت عن هذه الرسالة، فحجبت نورها عن نفسها ثم عن الإنسانية التائهة!. إذ ستصبح فريسة الذئاب الجائعة تنهشها من كل حدب وصوب، حينئذ لن ينفعها أي تجمع لأنها تفقد مقومات الوحدة وإمكانات النصر، بما يستولي عليها من تشتت الفكر وزيَغان الرؤية، فمثلها كمثل الخابط في الديجور وقد:

ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾

[البقرة: ١٧]

وهل نحن بحاجة للتذكير بالمصير الذي انتهى إليه أولئك الضائعون من عميان العلمانية والشيوعية وأخواتهما، وقد انسلخوا عن تراث آبائهم من حملة النور الإلهي، وانطلقوا هائمين يحاربون أهليهم تحت رايات مستعبديهم فلا يتورعون أن يؤيدوا مزاعم الصهاينة في استلاب الأرض التي باركها الله، فانحاز كل منهم إلى شريكه في الضلال من أعداء الإسلام.. فالماركسي العربي يتلاحم مع قرينه في صفهم، والعلماني من ملاحدة المسلمين متواطىء مع نظيره من ذلك الفريق.. حتى السوداني من أبناء المسلمين لا يرى غضاضة في قتال المسلمين تحت راية «قرنق» وبسلاح «منغستو» و«كارتر» وبقية الطواغيت!!

وبعد فإن الأمة التي ترى العدو يحيط بها من كل جانب، ويشهر عليها كل أسلحة الدمار والإذلال والوبال لا بد لها من تنقية صفوفها من مخربي الطابور الخامس، الذين لا يؤتمنون على مصلحة أنفسهم فضلاً عن مصلحة أمتهم، وإذا كان هذا هو الجواب بالنسبة إلى سائر النِّحَل فهو الأحق والأوجب بالنسبة إلى أهل الإسلام الذين جعل الله نصرهم وعزتهم مقرونين بالتزام طاعته ورسوله في كل كبيرة وصغيرة أقرًّا بها أو نُهيا عنها..

إن هذه التجمعات الحديثة في وطننا العربي كانت ولا تزال من أهم الأماني التي يتطلع إليها المؤمنون، ولكي تستكمل شروط النجاح لا مندوحة لها عن الإعتصام بحبل الله، وتطهير الصفوف من كل الغوائل الحائلة دون رحمة الله..

وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾

[التوبة: ٩٤]

الفصل الرابع :
لمحات من الاقتصاد الإسلامي

جسد وروح

والإسلام، وهو خاتم الرسالات السماوية، والنسخة الكاملة للنظام الذي قدر الله أن يكون المنهج الأعلى للجنس البشري لتحقيق الحياة الفضلى على هذه الأرض، لا بد أن يستوعب حاجة الإنسان المتجددة على امتداد الزمن واختلاف الأوضاع. فكما عُني بالجانب الروحي والخلقي من وجوده فخط له الطريق إلى التي هي أقوم، ونصب له الصوى الهادية لإقامة الحكم الأصلح، كذلك أنعم عليه بالهداية إلى القواعد الحكيمة التي عليها يرفع بنيانه الإقتصادي، وبالمنهج المسدِّد الذي يحكم تصرفاته في مواجهة المشكلات التي لا مندوحة عن توالدها خلال مسيرته الطويلة فوق هذا الكوكب.

وقد شاءت حكمة الله أن تكون هذه الدنيا ميدان صراع بين مصالح الكائنات الحية، وأن يكون النشاط الإنساني هو أبرز صور هذا الصراع المؤدي إلى تفجر الطاقات وانطلاق المواهب وإحداث التغيرات المتجددة أبداً.

ولقد أخبرنا الخالق تبارك اسمه أن هذا الصراع لم يتجاوز حدود الأمن والبناء إلا حين عمد الإنسان إلى استباحة حقوق الاخرين بدافع من البغي، وما عدوان قابيل على أخيه هابيل في أول جريمة اقترفها الإنسان إِلاَّ صورة بارزة من ذلك البغي الصارخ . .

ومن هنا كان لا بد من العلاج الذي يحول دون الظلم أو يخفف من شره، وقد تولَّت شرائع الله تقديم هذا جرعة بعد أخرى في ما أنزله من الوحي على أنبيائه

وفق الحاجة المتطورة، وقام أولو الألباب من البشر بتوليد الأحكام في ضوء الوحي حيناً، وبدافع من الحكمة التجريبية حيناً آخر.. حتى إذا وافت رحمة الله ببعثة خاتم رسله محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وكان الإستعداد البشري قد بلغ أشده، أتم الله نعمته بالشريعة الكاملة التي لم تفرِّط بشيء من مصالح العباد، والتي شهد لها أكبر مؤتمرات الفقه العالمي الذي عُقد في باريس في الخمسينات من هذا القرن أنها أوفى الشرائع الحقوقية وأحفلها بالحلول والمصطلحات القانونية، مع الغنى الذاتي عن سائر التشريعات البشرية الأخرى...

وما دام الإنسان مكوَّناً من الروح والجسد فلا سلام له إلا من خلال التوازن بين عنصريه، بحيث لا يغلب الروح على كيانه، كما هو الحال في البوذية والهندوسية، اللتين تحاولان إبراز مثلهما الأعلى في نظام الرهبنة، الذي يعتبر الجسد سجناً يجب تحطيمه بكل ألوان الحرمان.. ولا يغلب الجسد على ذلك الكيان كالذي يقرره التلمود اليهودي، الذي يستبيح أموال الناس ودماءهم ولو أدى ذلك إلى إبادة الجنس البشري كله!..

والإسلام هو النظام الوحيد الذي حقق هذا التوازن في كل شيء من حياة الإنسان. وقد رأينا مظهر هذه الحقيقة في ما أسلفنا من حديث عن العقيدة والعبادة والسياسة. ومن هنا سنطلُّ على بعض ملامح ذلك الإقتصاد الذي لا يفارق أثره حياة الإنسان المسلم فرداً أو جماعة، لتكتمل الصورة التي أتم بها البارىء الحكيم ذلك التوازن العظيم.

وأول ما يواجهنا هناك أن للإقتصاد في الإسلام كيانه الذاتي الذي لا يشاركه فيه أي نظام آخر صنعته العقلية البشرية قديماً وحديثاً، لأنه صادر من منطلق التصور الكامل لحقيقة الإنسان كما أبدعها الخالق الذي يحدد قيمته بقوله الخالد:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾

[الإسراء: ٧٠]

اقتصادنا في ضوء الإسلام

يصف الله تبارك اسمه أفراد المجتمع الأول الذي نشأ في ظل النبوة بأنهم (رحماء بينهم) وقد رأينا شواهد هذه الرحمة في كل ما أسلفنا من كلام عن أخوة الإسلام حتى الآن. وطبيعي أن الرحمة من الصفات المتميزة بالديمومة، فلا يوصف إنسان بأنه رحيم لمجرد ظهور الرحمة في أحد مواقفه ثم تكون سائر تصرفاته قائمة على القسوة والبغي، ومن هنا كان تفريق اللغويين بين الصفة المشبهة في كلمة (فقيه) من فَقُه، واسم الفاعل في (فاقه) من (فَقِه) فقد يفقه الإنسان معلومة محددة فيوصف بأنه فاقه، ولكنه لن يكون فقيهاً حتى يتشرَّب روح الفقه، فيرى من خلال الكلمة اليسيرة المعاني الخفية الكثيرة. .

وعلى هذا فالرحمة التي يتميز بها المجتمع الإسلامي ذات مدلول عام ينسجم مع حقائق الإسلام كلها، فليس في الإسلام غشاشون:

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾

[المطففين: ٢ ـ ٣]

وليس بينهم محتكرون يحتجزون أقوات الخلق وحاجاتهم الضرورية، ليضخّموا ثرواتهم لأن (المحتكر ملعون) على لسان رسول الله ﷺ[١]، وليس فيهم من يستغل فاقة الضعيف فيمده بالقرض ليستنزف طاقته بربا الفضل أو النسيئة لأن القرض في الإسلام لا يكون إلا ابتغاء وجه الله، والمسلم في تقديمه القرض لذي الحاجة إنما يتعامل مع ربه الذي يقول:

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾

[الحديد: ١١]

---

(١) الجالب مرزوق والمحتكر ملعون ـ رواه ابن ماجة والحاكم.

فإذا حان موعد الوفاء ردَّ المقترض ما عليه للمقرض شاكراً داعياً، وإذا عجز عن الوفاء كان على المقرض أن يختار أحد أمرين: تأخير السداد أو التنازل عن حقه طلباً للمثوبة:

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾

[البقرة: ٢٨٠]

وإلا انتقلت المسؤولية إلى بيت المال الذي عليه أن يقوم بتسديد الحق من مصرف الغارمين في صندوق الزكاة.

وبَدَهي القول بأن هذا الضرب من التعامل الكريم لا وجود له في غير نظام الإسلام، لأنه الوحيد الذي يقوم على التعاون الأخوي المؤسس على الرحمة المشتقة من اسم الله الرحمن الرحيم.. فلا مجال للمقارنة بينه وبين النظام اليهودي الربوي.. الذي لا يفتأ يشحن الأرض بألغام الكراهية، فيمزق أواصر الإنسانية، ويغرق العالم بفجائع الحروب.. وفي رواية (تاجر البندقية) لشكسبير مثل صارخ لفظائع هذا النظام الذي يريك الدائن ذئباً لا يُرويه إلا الدم، ولك أن تقابل ذلك بقصة ذي النورين وقافلته المؤلفة من ألف بعير، وقد وافت المدينة محملة بأنواع الضروريات، التي يتطلع إليها السكان في محنتهم الطارئة. وقد جاء التجار يساومونه عليها فيغالي بالثمن وهو يقول: «عُرِضَ علي أكثر مما تعرضون»، حتى إذا استيأسوا منه أعلن أنه وهبها لفقراء المسلمين إيثاراً لما أعد الله للمحسنين[1].

دور الزكاة في عملية البناء

وعلى هذا النمط المتميز من التربية الربانية ـ التي تَبَيَّنا بعض أشكالها أثناء الحديث الأول عن (الأصول الروحية لمجتمعنا الإسلامي) ـ تنطبع مسيرة هذا المجتمع بخصائص الأخوة والإيثار، ومن أبرز صورها فريضة الزكاة، فهي الركيزة

---

(١) عثمان بن عفان لمحمد الصادق عرجون ٥١ ـ ٥٢.

الثالثة في بناء الإسلام، وبها يتجسم التكافل الإجتماعي الوثيق بين أجزاء الأمة إذ تجعل لكل معسر منها حقاً معلوماً في مال الموسر، عليه أن يؤديه في نهاية كل سنة قربى إلى الله وقياماً بحق الأخوة، وإذا ما غلبه الشح فَمَنَع الحقَّ أهله أكرهه أولو الأمر من المؤمنين على أدائه مع العقوبة بالغرامة المناسبة لقولهﷺ:

«**ومن منعها** ـ الزكاة ـ **فإنَّا آخذوها وشطر ماله**»(١).

وبقليل من الجهد الحسابي يتضح أن هذه الزكاة كافية للقضاء على كل وقائع الفقر في عالم الإسلام، بل تكفي لتحويل المعوزين إلى موسرين قادرين على معونة ذوي الحاجات.. وقد حدث في عهود الإزدهار الإسلامي أن اختفى شبح الفقر نهائياً من المجتمع الإسلامي حتى لم تجد الزكاة مَنْ يقبلها، فأُحيلت إلى مصرف (الرقاب) حيث اشتريت بها مجموعة من الرقيق فردَّت إليهم حريتهم، ذلك لأن للزكاة ثمانية مصارف بعضها للفقراء والمساكين وسائرها للمصالح العامة التي تعود بالفائدة على سائر المسلمين..

وهكذا تأتي الزكاة لتشدَّ من وحدة المسلمين، وبذلك يكون نظام الزكاة من معجزات هذا الدين، يؤكد تفوقه على كل نظام يزعم مكافحة الفقر قديماً وحديثاً، إذ يعالج مشكلاته بروح الأخوَّة الحانية، حتى لترى الفقير في ظل مجتمع الزكاة يقوم بحراسة أموال الأغنياء بدلاً من العدوان عليها. وإني لأعرف ثرياً من مسلمي سورية يملك بعض العقارات الزراعية، فكان إذا حان موعد الجني عزل لكل محروم حقه من غلته، فتكون حصيلة ذلك العطف أن حقوله تظل في مأمن من أيدي المعتدين طوال العام تقديراً لفضله والتزامه أمر ربه، وقد مُلئت قلوبهم حباً له، ولهجت ألسنتهم بشكره والدعاء له.

وقبل ثورة «الضباط الأحرار» كتبت مجلة مصرية ـ ولعلها المصور ـ خبراً لا أنساه، خلاصته أن عصابة من لصوص الصعيد قد ألفت السطو على حقول أغنيائه،

---

(١) من حديث أخرجه أحمد والنسائي وأبو داود وغيرهم. أنظر فقه السنة ١/ ٣٣٣.

فلم يسلم من شرهم سوى مالك واحد، كانوا يحمون أمواله وأنعامه من المغيرين حتى يبلغوها مأمنها. . وأعلن هؤلاء أنهم إنما يفعلون ذلك تقديراً لإحسانه إلى فقراء منطقته، إذ كان يؤدي إليهم حقهم الذي أوجبه الله عليه. .

فأين من نظام الزكاة الإنساني تلك الماركسية الحاقدة والإشتراكية الظالمة اللتان تقومان على مصادرة الحريات، واغتصاب أموال الناس باسم المساواة، فتحولان المجتمعات البشرية جحيماً من الرعب والموت والحقد الطبقي، فلا تَعدُو بذلك صفة الطبيب الأحمق الذي يعالج الصداع بقطع الرؤوس!.

حديث قديم عن السوق الإسلامية

قبل عشرات السنين لقيني مذيع فاضل يريد أن يدير معي حديثاً حول الوحدة الإسلامية والسبل الكفيلة بعودتها، فأمليت على شريطه كلاماً في الموضوع كان أهم عناصره إقامة سوق اقتصادية مشتركة لمنتوجات ومصنوعات العالم الإسلامي، تنتقل بين حواضره بحيث لا تلتزم واحدة دون أخرى، ولا تلتزم بأي نوع من الرسوم الجمركية. وعن طريق هذه السوق يُتَاح للمسلمين أن يعرف بعضهم طاقات بعض ومواهبه، فينتفع كل إقليم بما لدى الآخرين من إمكانات تغنيهم عن الإعتماد على سواهم فيوفرون بذلك أموالهم لمصلحتهم بدل إغداقها على أسواق البلاد الأجنبية، ولا سيما أن ليس من إقليم في العالم الإسلامي إلاَّ ولديه من الإمكانات ما يعوز غيره. وبذلك يبدأون مسيرة التكامل في بناء الوحدة المنشودة. بيد أن المؤسف أن ذلك الشريط لأمرٍ ما قد طُوي أو مُحي فلم أر له أثراً ولم يسمع عنه أحد خبراً!.

واستكمالاً لموضوع السوق الإسلامية لا بد من الحديث عن المراكز المالية التي تعتبر من أهم وسائل الإتصال في العصر الراهن، فعن طريق المصارف الدولية تُنسق العلاقات التجارية وسائل أنواع التعامل المتصلة بالمال. . وقد كان العالم الإسلامي منذ تقلص الوجود الإسلامي الدولي مضطراً لإقامة تعامله التجاري عن طريق المصارف الأجنبية وهذا ما أخضعه للأنظمة الربوية التي فرضها الإستعمار

على مختلف مرافق الحياة، حتى كاد كثير من المسلمين ينسون أن للإسلام اقتصاده القائم على التعاون لا الإستغلال ولا الإستنزاف.. وحتى بتنا نشاهد التنازع الثائر بين علماء المسلمين أنفسهم حول طبيعة الربا من حيث الحل والحرمة، وأنواعه من حيث الفضل والنساء وما إليهما!..

وكان ذلك أحد العوامل التي نبهت أولي الفكر إلى ضرورة العمل لاستعادة الإستقلال الذي يميز الإقتصاد الإسلامي، فإذا هنالك المؤسسات المالية الإسلامية تقوم هنا وهناك حتى في الغرب نفسه. وقد حقق الكثير منها من النجاح ما جاوز التصور، مما أثار الرعب في قلوب الربويين دولاً ومؤسسات، فراحت تضع العصي في عجلات الإقتصاد الإسلامي، وتثير الشكوك في القائمين به.. ولكن الأمل بالله أكبر من محاولاتهم، وسيظل النجاح حليف هذه المؤسسات الإسلامية حتى يأتي نصرالله لأنها لم تقم إِلاَّ لإنقاذ المسلمين من براثن اليهودية العالمية، التي تنيخ بكلاكلها على صدر الدنيا، وحسب هذه المؤسسات فضلاً أثرها العميق في تدعيم الوحدة الإسلامية على المستويين المحلي والعالمي..

وعلى غرار هذه السوق يقوم الإقتصاد الفكري والإجتماعي، فتُتبادل المطبوعات وتُترجم إلى مختلف اللغات التي ينطق بها المسلمون، وقد يسر الله لهذا الجانب الفكري سبيل التحقيق فبدأ عن طريق الأدب الإسلامي ـ الذي كنت من أوائل الداعين إليه في مجلة «حضارة الإسلام» ثم في كتابَيَّ «أفكار إسلامية» و«مشكلات الجيل» الصادرين قبل عشرين عاماً ـ وكانت الخطوة الأولى في هذا الصدد قد برزت عملياً على يد الداعية الكبير أبي الحسن الندوي في المؤتمر العالمي الذي عقدته ندوة العلماء بلكناو عام ١٤٠١ هـ، ثم تلتها ندوة الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، ثم ندوة الرياض في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ثم ندوة الإسلامبول وغيرها.. ما كان له الأثر الكبير في إيقاظ روح الوحدة على امتداد العالم الإسلامي. والأمل وطيد في «رابطة الأدب الإسلامي» التي تم تكوينها منذ المؤتمر الأول أن تواصل مسيرتها بقوة تحقق ما يُرجى لها من التوفيقات المتنامية والمتلاحقة إن شاء الله.

اللعبة الشيطانية

وكلام عن الإقتصاد الإسلامي سيظل أبتر كذلك ما لم يتناول ببعض التفصيل حركة النقد الذي أصبح بمثابة العصب الحساس في جهاز التعامل البشري. وأسرع إلى القول بأني لن أتعرض لهذا الجانب على طريق المتخصصين فيه فلذلك أهله وخبراؤه، ولكني أطل عليه من الزاوية التي تواجه كل ذي بصر في هذه الأيام وهي زاوية التعامل مع النقد بوصفه سلعة تشد إليها كل الطامعين بالإثراء السريع عن طريق المضاربات التي لا تتطلب إلا أيسر الجهد.

لقد تطورت مهنة الصرافة الربوية من عهد البسطات اليهودية التي هاجمها نبي الله عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ في داخل المعابد إلى أن باتت اليوم مناط العمل المالي في المصارف العالمية، وصار لها أسواقها الخاصة، التي تستقطب أصحاب البطون التي لا تشبع على امتداد الحواضر الدولية، في كل مكان من هذا العالم..

ونظرة متأملة إلى أنباء هذه الأسواق وما يعتريها من التقلبات المتدافعة يوماً بعد يوم وساعةً بعد ساعة، مع تطلع العيون والقلوب إليها من كل مكان وفي كل ميدان، تكشف لأولي البصائر كثيف الستائر عن الكثير من الأسرار الكامنة وراءها والمسيرة لعجلاتها..

الشبكة الخفية والأرقام السرابية

فالناظر لهذا الإقبال الهائل على أسواق المال لا يكاد يدرك من اللعبة سوى ظواهرها القريبة، وهي أنها تعبير طبيعي عن رغبة الإنسان في الحصول على أضخم مردود بأقل مجهود.. ولكن الفكر النافذ إلى خلفيات اللعبة لا يفوته أن يرى الخيوط السرية التي تتحكم في تحركاتها، وهناك سيعلم أن ثمة أيدياً غير منظورة قد عُهد إليها أن توجه مفاتيح الأرقام في الإتجاه الذي تمليه مصلحتها ارتفاعاً وانخفاضاً. فهي والحال هذا أشبه بصاحب المقمرة يهيء كل الظروف المغرية

للاعبين، ثم تكون الحصيلة الكبرى من نصيبه وحده، وليس لزبائنه الغافلين سوى إضاعة العقل والوقت.

وفي وسع أي كان أن يتخيل مثل هذه اللعبة الشيطانية في صورة موسر من أصحاب الملايين يحتكر موارد بلده من أنواع الأغذية ثم يتولى عرضها على النحو الذي يحقق له أكبر الفوائد، فإذا جاء من يحاول منافسته في تلك السوق دفع ببعض محتكراته إليها بالثمن المخفض الذي يكسر شوكة المنافس حتى يضطره إلى بيع ممتلكاته منها بالثمن الذي يحدده.. ومن ثم يعود إلى تقليل العرض ورفع القيمة.. وهكذا يتلاعب بمصالح الناس حتى تصير كل سلعة في السوق أو في المدّخرات خاضعة لأمره.

وعلى هذا النحو يدور دولاب المصافق، وتجتذب أهواء المخدوعين حتى يستحيلوا أدوات لتنفيذ مخططات تلك الأيدي غير المنظورة، وهم يحسبون أنهم إنما يتصرفون بمحض حريتهم ولمصلحتهم وحدها!.

وقد كان الأصل في التعامل المالي بين الناس قائماً على أساس المعدنين الذهب والفضة، وحولهما تدور حركة البيع والشراء والمداينة، فهما القطبان الثابتان وسائر الحاجات خاضعة لقانون العرض والطلب، فكلما زاد المعروض منها قلّت نسبته منهما، حتى إذا جاء عهد العملات المساعدة من المعادن الرخيصة ثم الورقية، وكلاهما مرتكز على قوة الضمان التي يستندان إليها من ذينك المعدنين، إلى جانب الثقة بالمصدر الذي يطرحهما للتداول، فكل انتكاس في ذلك الضمان وهذه الثقة مؤد بتلك الوسائط المساعدة إلى الإختلال فالسقوط.. حتى إذا وافت العهود الأخيرة رأينا هذه الوسائل المساعدة تقفز إلى مرتبة الأصل، فتأخذ صفة السلعة التي لا ضمان لها من الذهب والفضة، حتى ليخيّل للسطحيين في هذه الأيام أنها أصبحت هي المعيار الذي يعين قيمة المعدنين فيحكمون عليها بالصعود والهبوط من خلال سعر العملة الورقية، مع أن الإضطراب حاصل في هذه العملة وحدها، فهي التي تتعرض للإهتزاز فتنخفض وترتفع وفق إرادة الشبكة

العالمية، على حين يبقى المعدنان الأساسيان في موضعهما الطبيعي كالطود الشامخ تمر به الرياح فلا تزيده إلا ثباتا واستقرارا.

أجل.. تلك حقيقة العملات التي يتنافس الطامعون في التراكض ورائها والتنافس عليها في المصارف العامة فلا ينالون منها سوى الأرقام التي لا تنتهي إلى قرار. كالناظر إلى السراب تتراءى له من خلاله المشاهد المختلفة حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً!.

توحيد النقد واستقلال القرار

وطبيعي أن هذا الوضع قد بات كالسيل يجرف ما يواجهه دون أن يدع لأحد فرصة للتماسك.. ولكن إذا كانت الجماعات البشرية كلها معذورة في الإنسياق بهذا التيار فالمسلمون وحدهم هم الذين يجب أن يُستثنوا من شره لأنهم أمة الشريعة المعصومة، وبحكم هذه الشريعة هم المسؤولون عن تقديم العلاج الشافي لكل أدواء البشر.

والعجيب في هذا الموضوع أن تُعقد المؤتمرات الإسلامية لمواجهة المشكلات الطارئة بحلولها الإسلامية على مدار الأيام وفي مختلف الحواضر العربية والإسلامية، ثم لا تنال مشكلة المضاربة بالعملات من هذه المؤتمرات ما تستحقه من الإهتمام في أضيق الحدود!

وكذلك ظلت تجارة العملة في أسواق المسلمين خاضعة لتقلبات الأهواء دون أن يعرض واقعها على شريعة الله التي شملت كل شيء.. وكان من نتائج ذلك انجراف الملايين من المسلمين في هذه المزالق. وقليل من التأمل في الأكداس من ضحاياها هنا وهناك كاف للتوكيد بأن الخطر أكبر من أن يهمل أو أن يترك للمتلاعبين بمصلحة المجتمع، وحسبنا من الأمثلة ما انتهت إليه العملات الورقية حتى الآن في مصر وتركيا وأندونيسيا وسورية ولبنان من تهاوٍ قارب الحضيض بعد أن بلغت القمة قبل زمن غير بعيد، ثم ما صارت إليه الدوامة في سوق المناخ

الكويتية من نوازل ذهبت بما لا نحصيه من أموال المسلمين لمنفعة الأيدي الخفية التي تدير هذه اللعبة الإبليسية.

والمفكر الحصيف في موقف الشريعة المطهرة من قضايا المال لا يستطيع سوى القطع بوجوب المنع البات لهذه التجارة الخبيثة لما ثبت من جناياتها على مقومات الفرد والجماعة عملاً بالقاعدة النبوية:

«لا ضرر ولا ضرار».

أما كيف يتحقق ذلك.. فهو شأن الدول التي تنص في دساتيرها على أن الإسلام دينها، وأن شريعته مصدر قوانينها ثم هو قبل ذلك من شأن فقهاء هذه الشريعة التي لم يفرِّط كتابُها من شيء. وما أيسر على دول المسلمين أن تتخلص من شبكات الطواغيت العالميين إذا هي جردت العزم فأتمت تحررها بتوحيد نقدها وإقامته على قواعد شريعتها الخالدة، حتى يكون المعيارَ الذي تحتكم إليه نقود الآخرين!. وما الذي يمنعها بلوغ هذا المستوى وهي التي حباها الله من المرافق الطبيعية والبشرية ما تستطيع به تأمين كل حاجاتها، والإستقلال في كل قراراتها.. لو تحركت في هذا الطريق القويم!!

من فمك أدينك

كنت أتناول طعام الصباح عندما سمعت ذلك الحوار الذي أجراه مندوب الإذاعة البريطانية ـ الساعة الساعة والربع ١٥/ ٤/ ١٤٠٣ هـ ـ مع الرئيس السوداني اللواء جعفر النميري، وقد لفت انتباهي منه تعليله للأزمة الإقتصادية التي يعيشها ذلك القطر الشقيق في هذه الأيام، فهو من ناحية يشيد بطاقة بلاده العظيمة من حيث رحابة الأرض، التي يقول انها تتسع لمئتي مليون، ولا يزيد سكانها عن العشرين، والمؤهلة للإسهام في عملية الإنقاذ العالمي من ناحية استعدادها للإنتاج الزراعي والحيواني، ومن الناحية الأخرى يعترف كذلك بالديون الفادحة التي ترهق كاهل البلاد فتؤخر نهضتها الكبيرة المرتقبة!

وعندما استوضحه المندوب عن أسباب التظاهرات التي تقوم في بلاده بسبب الغلاء وغيره، أجاب بأن الغلاء خطب عام في سائر أنحاء العالم، واعتبر تظاهرات الطلاب بشأنه نتيجة مؤامرات سياسية مفتعلة، ثم لم يبخل على مُعارضي حكمه بالتهم المعهودة في كل دولة عربية انقلابية، من أنهم مجموعة من (المرتزقة المأجورين).

وسرعان ما ساقني هذا الحوار إلى استحضار الواقع الذي يعيشه المسلمون في ظل الأنظمة التي قفزت إلى سدة الحكم على متون الدبابات والطائرات، وكان مسوغها المتشابه أنها جاءت لوقف تيار الفساد ولإقامة العدالة الإجتماعية، التي ستفجّر لشعوبها خيرات الأرض والسماء. وأجيل الفكر في حياة هذه الشعوب، فلا أرى سوى الديون التي تبهظ كواهلها، والبؤس الذي يدمر طاقاتها، والتخلف الذي يغمر وجودها كله بالشقاء المبير.

وأتساءل في نفسي: ليت شعري ألا يرى هؤلاء الإنقلابيون ما نراه من كل هذه المآسي التي جروها على شعوبهم؟!.. وإذا كانوا يرونها مثلنا فلماذا يستمرون على خطأهم في سلوك هذه المتاهات؟!... أم أنه ـ كما يقول المثل الفارسي ـ قد أطبقت عليهم الهوة فلا أمل بتوقفهم قبل بلوغ القاع!!

الفساد السياسي وراء كل هزائم المسلمين

وتتداعى الأفكار في رأسي، فأتذكر بحثا قرأته يوم ٩/٤/١٤٠٣ هـ في جريدة الرياض، بقلم المفكر الإجتماعي الأستاذ ـ حافظ الجمالي، تحت عنوان «بين التطور بالإبداع والتطور بالإتباع» وقد استرعى انتباهي منه تلك النقاط الهامة التي حاول أن يتقصى بها أسباب التخلف الذي يعانيه المسلمون «والعرب»، والتاريخ الذي يعتبر منطلق ذلك التخلف.

ولكي يوضح الكاتب فكرته عن التخلف يقدم للقارىء هذ التقرير الرهيب:
(إن الأقطار العربية تسيطر على مساحة ١٣٥٢ مليون هكتار ـ عشر مساحة اليابسة ـ يُستغَل منها قرابة الخمسين مليوناً فقط، وتحتوي ٢٤٤ مليون هكتار من المراعي،

ومن الغابات على ١٨٠ مليون هكتار، وتملك من الثروة الحيوانية ٥,٢٪ من جملة الموجود في العالم فضلاً عن الثروة النفطية التي تمثل ٣٠,٧٪ من الإنتاج العالمي، كما يمثل احتياطيها ٥٦,٥٪ من مجموع الاحتياط العالمي. ومن الثروات المعدنية المتنوعة ٢٧,٢٪ من فوسفات العالم، و٣,٥٪ من الأنتيمون و٣٪ من الرصاص و٢,٣٪ من الحديد.

ومع كل هذا الغنى الهائل من مصادر الثروات فإن أكثرية الشعوب العربية تعيش فقيرة بائسة تعيسة لا تتجاوز قوتها العاملة ٣٠٪ من المجموع، ولا يشرب الماء النقي منها أكثر من ١٥٪، أما في المشافي فلا يتجاوز السرير الواحد كل ٤٦٤ مواطناً في مصر، و١٠٥٤ في سوريا، و١٠٩٧ في السودان، و٩٣٧ في الأردن.

مقابل ١٤٩ في الولايات المتحدة، و٩٨ في فرنسا، و٨٦ في الإتحاد السوفياتي، ولا مجال للتردد في قبول هذه الأرقام المذهلة، ففي وسع أي قارىء عربي لها أن يستبين صحتها من وقائع بلده ـ إذا استثنينا القليل النادر من ديار العرب حيث تضخم الدخل بتضخم الثروة النفطية على الخصوص ـ ولا شك أن في تصريح الرئيس النميري لمندوب الإذاعة البريطانية أفصح البيانات على صدق هذه المعلومات.. وما أحسب عاقلاً يقع عليها ثم لا يتساءل: ما السبب في كل هذه التناقضات؟! ولِمَ تكون هذه الشعوب التي تملك كل هاتيك الطاقات محرومة من إعمالها والإنتفاع بها، حتى لكأن الشاعر العربي لم يُرد سواها بقوله:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

إن الأستاذ الجمالي قد وفِّق إلى الجواب المانع حين ربط كل هذه الرزايا بالإضطهاد السياسي، الذي سلب الفرد العربي حرية التعبير، وحرمه حقه في الإفادة من مواهبه، حتى بات مُلحَقاً بالأدوات الخاضعة لأهواء السلطة (التي لا ترى في الشعوب إلا سائمة لا تلد صغارَها مرة إلا لتذبح هي)!.

ومع أن الأستاذ الباحث في تركيزه على هذا الجانب قد تبنّى آراء بعض المفكرين الغربيين في أوضاع العرب التي واجهوها قبل هذا القرن، فهو إنما

ارتضاها لما تحمله الحقيقة المحايدة، والتي تؤكدها الوقائع المستمرة حتى الساعة.

أجل.. إنه الحكم الإستبدادي الذي لا ينظر إلى الوجود إلا من خلال ذات المستبد، فلا حق لفرد أياً كان في الكرامة ولا في الحرية، اللهم إلا أن تكون حرية الهتاف بحياته المقدسة.. ولْتَمُت بعد ذلك كل العقول التي أبدعها الخالق لبناء الحياة، وأرادها الطواغيت لخدمة الأهواء والشهوات، ونحن عندما نمعن الفكر في هذه الصور القاتمة لا يسعنا إلا الإقرار بأن شعباً يعيش في مثل هذا الجو المظلم لا يجد القدرة على استعمال مواهبه في الإنتاج والإبداع، بل لا بد أن يستغرقه الفقر والجهل والمرض، ويشيع فيه النفاق، الذي لا تستقيم معه الحياة ويفقد أخيراً الإحساس بالعزة حتى لا يفكر بالدفاع عن نفسه أو مقدساته بوجه الغزاة من الأعداء الخارجين!

والأستاذ الجمالي إنما يصدر في بحثه النفيس عن رؤية ثقافية تستمد من ملاحظات الواقع وتجارب الآخرين ومنطلقاتهم الفلسفية، فيعرض لمظاهر التخلف من الواقع الفاسد، إلا ما يستنبط من خلال بعض العوامل التي يعرض لها.. وما كان أحوج ذلك البحث إلى المزيد من الإضاءة الإسلامية التي تقود المفكر المؤمن إلى تقديم الحلول الصحيحة الكفيلة بالتغيير السليم المنشود.

ولقد أحسن الباحث بعرضه فكرة صاحب المنار ـ السيد رشيد رضا رحمه الله التي يصف بها أهم خصائص الإسلام من حيث قيامه ـ عقيدة ـ على أساس التوحيد، وسياسة على أساس الشورى. ثم أثر الحكام المستبدين في إفساد صلة المسلمين بهذين المعنيين، ولو أنه اتخذ سبيله من هذا المنطلق، فعالج تطور الأحداث على ضوئه، لكانت حصيلته أقرب إلى الكمال، وأوعب لأسباب التصحيح الذي لم يستطع له تحديداً.

الطريق الصحيح إلى التصحيح

لما بدأت الأزمة شدتها بين دعوة الله ورواسب الشرك، قدم وفد الجبارين من قريش إلى أبي طالب يتوسطونه بينهم وبين رسول الله. . وطمح الرسول ﷺ بإيمانهم فقال لهم:

«كلمةً واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم. تقولون: لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه. .».

فما كان من هؤلاء إلا أن أدبروا معاندين وهم يقولون: إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون(١).

لقد فهم أولئك المسيطرون على أزمة الحياة في مكة ما تنطوي عليه كلمة رسول الله من تصميم على تغيير الواقع العام، الذي تمثله زعامتهم العمياء، وما وراء ذلك من رد القطعان البشرية الضالة إلى سبيل ربها، لتعود إليها روح الأخوَّة والعزة، اللتين سلبها إياهما المضللون.

وبقليل من التأمل الحكيم ندرك أن القضية لم تزل على هيئتها التي يصورها موقف رسول الله ﷺ من أولئك الطواغيت. . فالعودة إلى معنى (لا إله إلا الله) تقتضي الإنخلاع من سيطرة الإستبداد الذي لا يقبل التنازل عن طغيانه، وهو يعلم أن ذلك سيكلفه الوقوف مع محكوميه على صعيد المساواة، حيث لا فرق بين فرد وآخر إلا على أساس من تقوى الله، التي توجب على المسلم أن يوجه طاقاته كلها في سبيل الخير العام.

فالتوحيد إذن بمعناه الإسلامي إنما هو تحرير النفس من كل عبودية لغير الله، وإعداد الفرد المسلم للقيام بمسؤوليته الكاملة نحو نفسه وآله ومجتمعه والمخلوقات جميعاً. . وهو وضع يملأ هذا الفرد شعوراً بحق المشاركة في بناء

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤١٧ ط الحلبي ١٣٧٥ هـ.

الحياة وفق النظام الإلهي، القائم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بعزيمة لا تأخذها في الله لومة لائم.

وهكذا يكون انبثاق الشورى من صميم عقيدة التوحيد، التي تقرر أن كل شيء في هذا الوجود ملك لله وحده، وأمانة في يد الإنسان فرداً أو جماعة، فليس لأحد أن يتصرف بشيء منها إلا وفق الشريعة التي أحكمها الله.. وأناط بتنفيذها سعادة الإنسانية في الدنيا والآخرة.. وليست الشورى في ضوء هذا المفهوم سوى تعاون المؤمنين على حماية المجتمع من الشطط عن سبيل الحق والعدالة، فلا يركب حاكم رأسه فيسلب محكوميه حق التذكير والنصح حتى ينتهي بهم إلى الإذلال، الذي تعانيه شعوب المسلمين في ظل المستبدين هذه الأيام.

لقد أقبل رسول الله ـ ﷺ ـ على المسلمين قبيل تجهزه لمعركة أحد، فجعل يستطلع رأيهم بين الخروج للقاء العدو بعيداً عن المدينة، وبين الإعتصام في داخلها.. فكان الأكثرون بجانب الخروج، في حين كان يميل مع شيوخ المسلمين إلى الرأي الآخر، فلم يلبث أن استجاب لطلب الكثرة، وقاد المجاهدين لملاقاة عدوهم عند أحد.

ومن هذه المواقف وأمثالها تعلم خلفاؤه المهديون كيف يقيمون حكمهم على أساس الشورى، حتى ليهتف عمر بمن أراد الرد على مذكِّر له بتقوى الله، فقال: « **دعهم فلا خير فيهم إن لم يقولوها، ولا خير فينا إن لم نسمعها..** ». ويخطب ذات مرة بجموع الحجيج قائلاً «**أيها الناس إني إنما أبعث عمالي ليعلموكم دينكم وسنتكم، ولا أبعثهم ليضربوا ظهوركم ويأخذوا أموالكم**» [(١)] ويلتفت إلى عماله قائلاً: «**لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تُجَمِّروهم ـ تؤخروهم عن أهلهم ـ فتفتنوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم**»[(٢)].

---

(١) جمهرة خطب العرب ٢١٩ ط الحلبي.

(٢) جمهرة خطب العرب ٢٢٠ ط الحلبي.

وعلى هذا النهج النبوي مضى عهد الراشدين، فلم يمنعوا إنساناً مسلماً أو كافرا حقه، ولم يمنعوا ذا رأي حق التعبير عن ذات نفسه، حتى انتقلت السلطة من الخلافة الراشدة إلى الملك العضوض، وبدأت مسيرة الحكم تتعثر فتستقيم حيناً وتضطرب أحياناً، إلى أن صار المسلمون إلى يومهم هذا الذي فيه يُصعقون ويُعذبون، ويُحاسبون على الهمسة والنأمة، وفي بعض ديارهم تُنتهك أعراضهم، ويُساقون إلى الموت أو يُفاجئون به جماعات ووحداناً، لغير ما ذنب سوى أنهم يقولون ربنا الله!

في الإسلام حوافز الكشوف الكونية

وعند الحديث عن مقومات الحضارة الإسلامية ويسميها الجمالي «العربية» يحاول التنقيب في أعماقها عن المعوقات التي وقفت بها عند حدود القِيَم العليا، فلم تمنح مثل ذلك الجهد للجانب المادي، الذي ينمي في الإنسان المسلم قدرة الإستغلال لموارد الطبيعة، والإرتقاء بشروط معيشته مما أدى به في النهاية إلى وضعه الراهن الذي بات فيه ضمن نطاق الإستهلاك، دون أن يكون له دور في عملية الإنتاج والإبداع، فيقول: «في هذه النقطة بالذات يبرز التناقض الأساسي بين الحضارة المعاصرة والحضارة العربية القديمة، إذ ان مهمة الأولى وحصيلتها الأساسية هي إخضاع الطبيعة للإنسان، على حين أن مثل هذا الهدف قلّما دار في خلد الناس قديماً، ولئن دار فقلما بُذل الجهد من أجله».

وكأن الأستاذ في حكمه هذا يريد أن يرد أسباب التخلف إلى قصور في طبيعة الحضارة الإسلامية ـ على طريقة جب وأشباهه من المستشرقين ـ ولو هو قد أحاط علماً بأسس هذه الحضارة، كما هي في كتاب الله وفي حديث رسوله، لأدرك في غير عسر أن كل تخلف عرض للمسلمين في هذا الجانب إنما مرده إلى انحراف المسلمين عن سبيل حضارتهم.

وحسب المسلم أن يتذكر قول الله تبارك اسمه:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾

[لقمان: ٢٠]

ليعلم بيقين أنه مدعو لاستخدام كل جزء في هذا الكون من أجل إنشاء الكيان الأفضل والأجمل والأكمل..

ولو أنعم الفكر في قول الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه:

«إن قامت على أحدكم القيامة وفي يده فسيلة فليغرسها»(١)

وفي قوله الآخر:

«إن الله تعالى يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»(٢)

ومعناه مؤيد بقوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾

[النحل: ١٢٨]

لأيقن كذلك أنه مسؤول عن مواصلة السعي لتنمية الإنتاج، وأنه في الوقت نفسه مكلف إحسان العمل على أساس من الإتقان الذي هو التكنولوجية كلها.

ولقد أثبت علماء الإسلام في ظل هذه التوجيهات العليا، وفي مختلف مجالات النشاط الإنساني وفي كل ظروف الحكم الإسلامي الصالح، أنهم أقدر الناس على الإفادة من القوانين الكونية، سواء في ميدان النظريات العلمية، أو في نطاق التطبيق العملي، فأعطوا الإنسانية مفاتيح الكشوف التي تنعم بثمراتها المعاصرة في البر والبحر والفضاء.

أما لماذا توقف هذا المد الحضاري عن العطاء بعد عصور الخير فجوابه في

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود.

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب.

انحراف الحكام عن التي هي أقوم، وانشغالهم بالتنازع على متاع الغرور، ثم تناسي جماهير المسلمين رسالتها التي هي:

(إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام).

ومن ثَمّ فُتِحت الثغور في جدار الإسلام لتسرب الأفكار الهدامة، من باطنية وفلسفية ومجوسية، فما لبثت أن مزقت الأمة الواحدة إلى فرق لا يحصيها العد، وأفرزت من المذاهب الضالة ما استهلك مجهود العلماء، ثم جاءت النكبات المدمرة على أيدي التتار والصليبيين، بالتعاون مع الأعداء الداخليين، فطم البلاء حتى عميت السبل، وتراكمت الظلمات حتى عجز المبصر عن رؤية يده.. وتقلص النشاط الذي عمّ بالأمس كل شيء حتى كاد ينحصر في حدود المحافظة على العقيدة بوجه البدع والخرافات.. ولمّا أطلت زحوف الإستعمار الصليبي الحديث على ربوع الإسلام، وهو المزود بكل جديد من أسباب القوة، كان الخَوَر قد بلغ بالمسلمين حده الأقصى، فلم يبقَ لديهم من وسائل الدفاع الحربي ما يمكنهم من الصمود بوجهه إلى مدى طويل، فما لبثت هذه الربوع أن تساقطت تحت ضرباته الواحدة تلو الأخرى.. وما هي إلاّ سنوات معدودة حتى حقق الاستعمار أمانيه بسلب الخيرات، وزلزلة المقومات، ولما حان موعد انسحابه، بعد أحقاب من الشقاء والذل، لم يغادر بلداً إلا بعد أن ترك فيه عملاء له يواصلون ما بدأ من تخريب الحياة الإسلامية.

إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله

وبمقارنة يسيرة بين حال المسلمين أثناء حكم المستعمر، وحالهم في ظل عملائه بعد جلائه، تؤكد أن هؤلاء أشد كيدا لأمتهم من أساتيذهم، لسبب معلوم هو أن المستعمر كان يسلك إلى أهدافه التدميرية في الغالب سبيل المداورة والإحتيال، أما تلاميذه فقد عزلتهم التربية التبشيرية والإستشراقية عن منابع الوحي، وشحنت

رؤوسهم بالتشكيك في حقائقه والحقد على أهله، فما إنْ وصلوا إلى سدة السلطة، بالوسائل المخططة لهم، حتى وجهوا كل طاقاتهم لمحاربة الإسلام ومطاردة علمائه، والعمل على تحويل سواد الشعب إلى ما زين لهم شياطينهم من زخرف الدعوات والدعايات.. والويل لكل مَنْ يحدثه عقله وضميره باعتراض طريقهم ولو بالإشارة، فإن وراء ذلك ألوان البلاء تصب عليه في معيشته وعمله ونفسه وأهله، حتى لا يجد مفراً من أحد أمرين إما تخليه عن وعيه بالإندماج في صفوف الهتافين والمهرجين، على طريقة توفيق الحكيم التي حدَّث عنها بعد «عودته إلى الوعي».. وإما بالفرار ـ إذا تيسَّر له ـ إلى أي دولة، يجد فيها أمنه المفقود.. وذلك هو السبيل الذي سلكه مئات الألوف ممَّنْ يُدعون اليوم بالعقول المهاجرة ولو كانت هذه الدولة أشد دول العالم عداء لأمتهم.

ولقد جرَّب آخرون من أحرار المسلمين أن يظلوا مرابطين في بلدهم مهما فدحتهم الخطوب، فكان مصيرهم القتل، أو النقل من نطاق اختصاصهم إلى أعمال لا يكادون يحسنون منها شيئاً، وبين هؤلاء عسكريون يملكون من العلم بفنون الحرب ما يؤهلهم للدفاع عن وطنهم في ساحات الوغى، فإذا هم يُقذفون كالقمامة إلى أعمال كتابية ينهض بها أقل الناس ثقافة.. وفيهم دكاترة درسوا علوم الذرة على نفقة الدولة فلما عادوا أُلحقوا بتدريس الجغرافية والتاريخ!. هذا إلى علماء إسلاميين انتُزعوا من حقول التربية والتعليم إلى العمل في الدوائر المالية ونحوها!! وقد أسندت أعمال هؤلاء جميعاً إلى محدودين، كل كفايتهم أنهم من أتباع السلطة الحاكمة!

وطبيعي أن مجتمعاً يُساس بهذه العقلية المقلوبة لن يكون له حظ في النصر على عدو، ولا أمل بالتقدم في أي ميادين الأعمال، بل هو المجتمع الذي يُساق بقوة لا إلى التخلف فقط، بل إلى الذل والتضاؤل والفناء، وصدق رسول الله القائل في أمثال هذه الأحوال:

«إذا وُسِّدَ الأمرُ إلى غير أهله فانتظر الساعة»[1]

ولعل ما يريده رسول الله ـ ﷺ ـ بالساعة ساعة إنهيار المجتمع ودماره . .

وهكذا يتضح لكل بصيرة أن كل ما أصاب الأمة من تخبط وهزائم، منذ عدوان الحجاج على البيت العتيق، إلى سقوط بغداد تحت سنابك التتار، وحتى مذابح تل الزعتر والمخيمات الفلسطينية والمدن العربية، إنما سببه الأكبر تحول السلطة من أيدي المؤمنين الملتزمين بجادة النبوة إلى أكف العابثين، الذين اتخذوا عباد الله خَوَلاً، ومال الله دولاً . . ذلك لأن فساد الراعي مجلبة لفساد الأمة، فكل انحطاط يعتري الشعوب إنما هو برأي فولتير ـ «حصيلة أخطاء الحكومات البغيضة التي تأخذ بخناقهم وتسدّ على تطورهم المنافذ».

أباطيل وحقائق

ومن جميل الإتفاق ـ بعد الذي أسلفناه من تصريحات النميري عن السودان، وتفصيلات الجمالي عن واقع العالم العربي ـ أن يقدر الله لي الإطلاع على ذلك المقال القيم الذي نشرته جريدة الشعب المصرية عن السودان الجديد بقلم ـ محفوظ عزام، تحت عنوان «أعلى معدل للتنمية في العالم».

يقول الكاتب: «بتاريخ ٥ مايو الماضي نشرتُ مقالاً في جريدة «الشعب» بعد عودتي من السودان، ذكرت في مقدمته أنني كنت أودُّ أن أسجِّل مشاهداتي ودراساتي المتعمقة لكل ما شاهدت وسمعت ودرست وقرأت في السودان حول الإستثمار، وظروف الإستثمار، وقوانين الإستثمار، وحول المعجزة التي حققها السودان هذا العام من الإكتفاء الذاتي في الحبوب، ومن تحقيق فائض الإنتاج، مما دعا السودان لأن يعرض في ٢٧ إبريل الماضي على السفير المصري في الخرطوم تصدير ١٥٠ ألف طن من فائض السودان من القمح إلى مصر.

---

(١) البخاري، كتاب العلم.

وذكرت في مقدمة مقالي أن مما هالني عقب عودتي ما نُشر في أجهزة الإعلام المصرية، سواء التلفزيون يوم ٢٤ إبريل الماضي، أو «الأهرام» يوم ٢٥ إبريل الماضي، أو «الوفد» فيما بعد ذلك من تصريحات المسؤولين المصريين ومن أخبار وموضوعات مصورة كلها تدور حول عجز السودان وفشله والجوع الذي يسيطر على شعبه، والمجاعة التي تقتل الآلاف، والحرب الأهلية، والخطر الذي يهدده، وما ورد على لسان الدكتور أسامة الباز من أن السودان سوف يتعرض خلال شهر مايو لضربة أميركية عسكرية تؤدي لفصل جنوب السودان عن الوطن الأم، وذلك لأن السودان هو الدولة الوحيدة التي رفضت الإنصياع لما تفرضه السياسة الأميركية من خلال الأمم المتحدة ومجلس الأمن من حصار على ليبيا، أو إغلاق للحدود معها. هذا الذي صادفني عند عودتي اضطرني أن أتعرَّض له بالرأي والتفنيد، وأن أنحي ما كنت أنوي أن أعرضه على القراء ـ حول مستقبل السودان الإقتصادي والزراعي ـ جانباً.

ولم تمض سوى أيام قلائل حتى اضطرت جريدة «الأهرام» أن تنشر على استحياء ـ في الصفحة السادسة من عددها الصادر يوم ٢١ مايو الجاري ـ خبراً تحت عنوان: «أخبار من المحيط إلى الخليج» جاء به ما نصه:

(تشير تقديرات صندوق النقد الدولي إلى إرتفاع معدل نمو الناتج المحلي للسودان لهذا العام بنسبة ٩,٦٪ وهي نسبة عالية بين الدول النامية، وقال الدكتور محمد خير الزبير وزير الدولة للتخطيط بالسودان في بيان له أمس: إن تقديرات الحكومة السودانية لمعدل النمو بالسودان لهذا العام تفيد بزيادتها بنسبة ١١,٣٪).

وأشـار وزير الدولة للتخطيط إلى أن بعثة صندوق النقد الدولي وبنك التنمية الإفريقي، وصندوق النقد العربي، والبنك الدولي، والموجودين حالياً بالخرطوم أجمعـوا على أن أداء الإقتصـاد بـالسـودان جيـد ويسـاعـد على تحقيـق الأهـداف الإقتصادية المرجـوة.

هذا ما نشرته جرية «الأهرام» على استحياء في مكان غير بارز بعد حملتها

الظالمة حول مستقبل السودان واقتصاد السودان المنهار!!

وبإجراء مقارنة بسيطة ـ مستمدة بياناتها من واقع التقرير السنوي للتنمية البشرية الصادر عن الأمم المتحدة عن عام ١٩٩٠ م ـ بين معدل النمو في الناتج المحلي لكل من السودان ومصر والولايات المتحدة واليابان عن الفترة من سنة ١٩٨٠ م إلى ١٩٨٧ م يتبين الآتي:

السودان ٣, ٤٪ مصر ٩, ٢٪

الولايات المتحدة ٢٪ اليابان ٢, ٣٪

وبقراءة هذه الأرقام والبيانات الرسمية التي لا تكذب، وبمقارنتها بمعدل النمو في الناتج المحلي بالسودان عن عام ١٩٩١ م الذي أعلنه صندوق النقد الدولي وهو ٦, ٩٪، أو بتقديرات الحكومة السودانية لمعدل النمو عن ذات العام والمقدرة بنسبة ٣, ١١٪، وكذلك بالرجوع إلى شهادة البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، يتبين أن السودان قد تعدى في معدل نموه ـ في الناتج المحلي أو القومي ـ جميع المعدلات السائدة حتى في دول العالم النامي والصناعي.

فإذ علمنا أن السودان هو قارة كاملة حباها الله بالماء ومئات الملايين من الأفدنة من الأراضي الزراعية الخصبة، وكذلك بالبترول، فإنه من الطبيعي أن يتعدى معدل النمو الاقتصادي في السودان معدلات النمو في جميع الدول المجاورة له ومن بينها مصر.

ولكن لعل هذا البيان يدعو للتساؤل، ماذا حدث في السودان؟ وماذا حدث له؟ وكيف حقق هذا المعدل المرتفع النمو؟ وهل يمكن أن يستمر هذا المعدل في الإرتفاع؟

كل هذه الأسئلة تتبادر إلى الذهن وتثير التساؤل وتبحث عن إجابة مقنعة.

أما الإجابة فهي بسيطة. ذلك أن نظام الحكم في السودان في السنوات الثلاث الأخيرة قد اتسم بالنزاهة والشرف، فليس فيه عمولات، ولا سمسرة، ولا

فساد، ولا رشوة، والحاكم يعيش كغيره من المواطنين، لا يحيط به الحشم والحرس والجند والسيارات والموظفون والسكرتارية وخلافه، وقد لا نجد على باب الوزير أو في مكتبه فراشاً واحداً، ولا نجد له سائقاً، وبالطبع ليس وراءه سيارات الحراسة والأمن المركزي، وأكشاك الجند التي تحيط بمنزله، إلى اخر المظاهر التي نراها ونشاهدها ونعاني منها في مصر.

والحاكم في السودان لا تغلق له الشوارع، أو حركة المرور، أو يقف الجند ووجوههم لحوائط الشوارع كما يحدث في مصر، بل إن القصر الجمهوري يقع على شارع كورنيش النيل في السودان وتمر أمامه السيارات والمارة دون أي عائق ودون أن يتعرض إنسان للمارة أو السيارات.

كل ذلك يحدث والسودان يواجه حرباً دولية تقف وراءها دول عظمى، ودول تابعة، ومنظمات دولية، وهيئات تبشيرية، المسيح ودينه منها براء، ومؤامرات دولية لتقسيمه وزعزعة استقراره وفصل شماله عن جنوبه، الإستئثار ببتروله في الجنوب، وحرمان الشمال من هذه الثروة الوطنية، أو من تمكين السودان من استخراجها واستغلالها في الإكتفاء الذاتي، وفي تنفيذ خطة التنمية.

ومع كل هذه العقبات، والحروب والمؤامرات، والحصار الإقتصادي والعسكري، والتهديد الدائم من الشمال والشرق والغرب والجنوب، مع كل هذه العقبات استطاع السودان أن يحقق أكبر وأعلى معدل للتنمية في الدول الإفريقية جمعاء، بل في كل دول العالم الثالث. بل حتى تخطى معدلات التنمية في الدول العظمى والمتقدمة، خصوصاً إذا علمنا أن روسيا ـ وهي دولة عظمى ـ لم يبلغ معدل التنمية فيها هذا العام ١٪.

ولا يهدد تقدم السودان واستمرار نموه وازدهاره سوى المؤامرة الكبرى التي تقودها أميركا وتسخر فيها بعض عملائها من حكام الدول العربية، وذلك لشغل السودان عن تحقيق أهدافه. أو لاستنزاف موارده، أو لفرض الحصار عليه حتى تظل جميع الدول العربية عالة على أميركا التي تتحكم في رغيف العيش في كل

دولها وعلى رأسها مصر، وحتى لا يتحول السودان إلى كندا أو كاليفورنيا وينتج ما يحتاج كل مواطن عربي ومسلم من الغذاء، وهو الأمر الذي تخشى منه أميركا على إنتاجها، وعلى محاصيلها، وعلى فلاحيها.

ولن يحطم هذه المؤامرة الدنيئة سوى أن يقبل كل إنسان عربي يبحث عن استثمار مُجزٍ وعن استقرار سياسي أن يسارع إلى اقتناص الفرص المتاحة حالياً في السودان من خلال قانون الإستثمار السوداني وسياسة الإستثمار الحالية والتي تسمح لأي إنسان ـ أياً كان ـ في أن يشارك في تنفيذ خطة التنمية الزراعية دون عوائق، أو إجراءات، أو ضرائب، أو خلافه.

تلك شهادة أقدمها لكل مخلص ومحب لأمته وإسلامه وأسألُ عنها يوم القيامة، وهي دعوة إلى كل مواطن ـ يريد أن يحرر إرادته وأمته من ذل الحاجة والمسكنة والتبعية لأعداء الوطن والدين ـ أن يسارع إلى السودان الشقيق، وأن يجد له مكاناً في صفوف المتوجهين لتحطيم حلقات الحصار بانتاج ما نحتاجه من غذاء وكساء في ظل ظروف استثمار ممتازة».

وهكذا يكشف هذا المقال ستور الدعايات المكثفة التي تطرحها بعض الأقلام على النجاحات الفائقة التي حققها ذلك القطرالشقيق بقيادة المخلصين من أبنائه، الذين استطاعوا التحرر من شباك أعدائه، الذين لا يسرهم أن يعرف السودان العظيم طريقه إلى الرخاء والإستقرار والإنتاج، الذي سيغني العرب والمسلمين إن شاء الله، بمحصوله الضخم من الحبوب واللحوم عن الحاجة المُذلة لشرق أو غرب.

ويرتفع المقال إلى المستوى الوثائقي بما يحمل من أرقام ومعادلات تقرها المؤسسات الدولية، وتفضح أضاليل المتآمرين على حرية العالم الإسلامي، بغية الحيلولة بينه وبين الإفادة من ثرواته المؤهلة لتغيير مسيرة التاريخ!

غياب الشورى هو المهلكة

وما أحكمها من خاتمة تلك الكلمة التي تطالعنا بها صحيفة «أخبار العالم الإسلامي» في العشرين من ذي القعدة عام ١٤١١ هـ وفيها يقول كاتبها الأستاذ أحمد البدوي، تحت عنوان «الشورى مجنبة للكوارث»: «أكبر درس يجب على كافة المسلمين استخلاصه من حرب الخليج الأولى والثانية هو أن غياب الشورى مهلكة للبلاد والعباد، فلو أن الحاكم يلزمه دستورياً موافقة البرلمان والعلماء والفقهاء على جميع قراراته المتعلقة بالإتفاقيات الدولية والأحكام الإدارية والمالية لما كانت حرب خليج لا في شكلها الأول الذي استمر ثماني سنوات، ولا في شكلها الثاني الذي دام سبعة أشهر». .

ولا تزال تفاعلات كل ذلك تعمل عملها في جسم الأمة ووحدتها ومستقبلها تمزيقاً للشمل وتبديداً للطاقات وهضماً للحقوق وانتقاماً من الأبرياء وحروباً إعلامية وأهلية تهلك الحرث والنسل.

إن الأمة من طنجة إلى جاكارتا لفي أشد الحاجة إلى استطلاع آرائها وميولها واختياراتها عبر التعبير الشعبي على دساتير مستمدة من الكتاب والسنة، يتبعها انتخاب جماعة من أهل الرأي والعقد يكون من بينهم علماء وفقهاء وأساتذة جامعات وأطباء ومهندسون وقضاة وصحفيون وحِرَفيون وفلاحون، لا يستطيع حاكم الدخول في حرب أو الإرتباط بدولة أو رفع سعر مادة أو تخفيضها دون الرجوع إلى الشرع من خلالهم.

فإلى الشورى الملزمة يا أمة الإسلام، فإنها صمام الأمان من الكوارث العسكرية والسياسية والإجتماعية. . .

المسلمون قادمون

وفي العدد ١٤١٢ ت ١٤١٢/١/٢٢ هـ من ملحق (الأمة الإسلامية) من جريدة عكاظ يقول الدكتور مانع الجهني معبراً عن رؤيته البعيدة في كارثة الخليج:

منذ أن بزغ فجر الإسلام على العالم والحضارة الغربية ممثلة في المسيحية والعناصر التي تدعمها تعمل ليل نهار للقضاء على الإسلام الذي جاء ليحتل موقعها، ومن هنا فلا شك أن ما حدث في إطار الأزمة كان مخططاً له. والمتابع لما كان يحدث في المنطقة العربية قبل الأزمة وما به من توجه إيجابي نحو الوحدة الإسلامية لا بد أن يتيقن من أن العدو كان يتوجس كثيراً مما يجري وبالذات بعد أن أصبح للصحوة الإسلامية هذا الزخم في مناطق متعددة في العالم جعلت الأوروبيين يصرخون: (المسلمون قادمون)، بعد أن زال الخطر الذي بسببه كانوا يصرخون (الروس قادمون). أقول من هنا كان لا بد أن يتم توجيه ضربة للأمة الإسلامية وللحضارة الإسلامية.. وهي ضربة بطبيعة الحال لا يمكن أن تتم في وضح النهار.. وإنما من خلال بعض «الدمى» في العالم الإسلامي وهكذا حدثت كارثة الخليج لتحقيق هدفين:

الأول: ضرب الصحوة الإسلامية في أبعادها المتعددة، سواء كان على مستوى الدول الإسلامية أو على مستوى الشعوب الإسلامية.

الثاني: ضرب مقدرات الأمة الإسلامية من خلال توريط الجيش العراقي وهو قوة قد تمرست على الحرب في عملية تقضي على هذه الأمة.. وبالقدر الذي يحمي إسرائيل ويجعلها القوة الوحيدة في المنطقة.

فإذا ما أضفنا لذلك أن الدعم الواضح جداً للعمل الإسلامي خاصة في إفريقيا وآسيا ومناطق متعددة من العالم، مصدره الجزيرة العربية ومن المملكة والكويت على صفة الخصوص، لأدركنا مدى ما يمثله هذا من قلق للدوائر المسيحية التي تخطط لأن تكون إفريقيا مسيحية بنسبة مئة بالمئة عام ٢٠٠٠ م، ولا شك أن كثيراً من الصراعات وعلى سبيل المثال ما حدث بين السنغال وموريتانيا ثم في نجيريا ثم في ليبيريا ثم في القرن الإفريقي.. كل هذا أثبت أن الكنيسة الكاثوليكية كانت وراء هذه الحركات.

هذه المحاور الثلاثة

من حق هذه الأفكار وهي خلاصة تجارب عقلية عميقة الغور مع الناس والأحداث أن نقف في أعقابها قليلاً لنمعن النظر في معطياتها بالنسبة إلى واقعنا الحائر بين الجمود على المألوف والتحرك نحو الواجب المنسي لتصحيح مسيرتنا نحو المستقبل.

ولقد أحاطت هذه الأفكار بواقع العالم الإسلامي كله من خلال ثلاثة محاور.

الأول: فساد الأداة السياسية التي حولت مفهوم الحكم إلى عملية استعلاء تقسم الأمة إلى طبقتين مستِغل ومستغَل، لأولهما كل المنافع وليس للثانية سوى الفضلات التي لا تتجاوز حدود الضروريات. ولاستمرار هذا الإتجاه تهمل الثروة العامة فلا تتحرك إلا بمقدار وفي حدود رغبات الطبقة المتحكمة، فيكون مردود ذلك المنهج أن يزداد الأعلى رفاهية، ويزداد الأدنى فقراً وتعاسة، حتى لا يرى سبيلاً لبقائه سوى الإنقياد الضرير للقائم على السرير.. وهو وضع يضيّق منافذ التنمية العامة فتضطر الطبقة المتحكمة لدعم متطلباتها المتفاقمة عن طريق الإقتراض الربوي المتتابع، حتى تعجز المرافق العامة عن الوفاء بفوائد الديون، فلا يجد المسؤولون سبيلاً للإنفراج إلاَّ ببيع هذه المرافق أو تأجيرها للأجنبي، الذي يعرف كيف ينمي مشروعاته على حساب البلد الغافل.. ولا حاجة إلى التساؤل عن مصير البلاد التي تُساق إلى هذه الأوضاع، وهي ما يسمونه بالعالم الثالث، الذي ينوء تحت الديون، على طريقة ذلك الجمل الذي أَراد أصحابه الإنتقال إلى منتجع آخر، فراحوا يكدسون أمتعتهم على ظهر المسكين حتى لم يبقَ سوى غرارة مهملة، فجعلوا يتداولون الرأي حولها أيضمونها إلى تلك الأكداس أم يدَعونها حيث هي؟! فإذا بالجمل يصرخ بهم من تحت الأكداس.. إفعلوا ما شئتم فما أنا قادر على النهوض سواء بها أو بدونها!!

وثاني المحورين هو الذي ركز على موضوع الشورى التي يعتبرها الأستاذ أحمد البدوي الضمان الوحيد لسلامة الشعوب (من الكوارث العسكرية والسياسية

والاجتماعية) فيؤكد أن غيابها هو المسؤول الأول عن كارثة الخليج التي بدأت ولم تنته ولا يدري أحد متى تنتهي . .

ثم يأتي ثالث المحاور وهو متمثل في موقف المعادين لهذا الدين، الذي هو الخلاصة المركّزة لرسالات الله، والأمانة الكبرى التي أودعها الله قلوب عباده المصطفين من أتباع خاتم النبيين، فلا مندوحة لهم من مواجهة أولئك المهاجمين منذ الخطوات الأولى التي بدأوها في الطريق لإنقاذ الإنسانية من موبقات المضللين . .

والمحاور الثلاثة كلها متعاونة في حرب الإسلام، لا خلاص من شر أحدها إلا بالإحتراز منها جميعاً، أو بالقضاء عليها جميعاً، وكل تهاون في مجابهة بعضها مؤدٍ إلى تقوية كلها . . ولا مجال للخلاف بأن الشعوب الإسلامية لن تستطيع تعطيل مؤامرات هؤلاء المعادين إذا لم يكن وراءها الحكم الصالح الذي يمدها بالعون الأساسي من العدالة والتوجيه الحكيم الذي ينشىء الأجيال المؤمنة برسالة الإسلام، وينظم مواردها على أساس الإقتصاد الذي شرعه الله ورسوله . . ثم يضع كل طاقة من الأمة في مكانها المناسب .

ذكريات رهيبة

ولا جرم أن محنة هذه الأمة بأهل الكتاب المحرّف أكبر المحن بل هي المصدر الرئيسي لمعظم النكبات التي واجهت الإسلام من أيامه الأولى . وقد بدأت قبل الهجرة النبوية حين بعث مشركو قريش بوفدهم إلى يهود يثرب يستفتونهم في أمر الدعوة التي أطلَّ بها على مكة صادقها الأمين، إذ كانوا بنظرهم مظنة العلم بشؤون النبوات التي بَعُد بها عهد العرب بعد أبيهم إسماعيل، فجاءت فتواهم مجموعة من الأضاليل التي أرادوا بها شحن صدور المشركين بالشكوك في حقيقة الرسالة التي يعرفونها ـ من توراتهم ـ كما يعرفون أبناءهم . . ثم جاءت الخطوات التالية لمسلسل مؤامراتهم على الإسلام عقيب وصول الرسول والمهاجرين إلى يثرب .

وكان من أوائل مبادرات رسول الله لطمأنتهم تلك العهدة التي عقدها بين سكان المجتمع الجديد فنظمت علائقهم على أساس التعاون والمودة، غير أن الطبع اليهودي ما لبث إلاّ قليلاً حتى قلب لهذا العهد ظهر المجنّ، وبدأوا أوائل الفتوق بتسللهم إلى بعض جماعات الأنصار يثيرون حفائظهم لمناوأة الدعوة الإلهية بالدسائس التي استطاعت تكوين زمرة من المنافقين تعمل بتوجيهاتهم، ثم شرعوا في تأليب قريش وغطفان على المؤمنين وإغرائهم بغزو المدينة متعهدين بدعمهم من داخلها... وكلما أطفأ الله واحدة من مكايدهم عمدوا إلى أخرى، ثم أخذوا يمدون حبالهم في أوساط النصارى، فما زالوا يؤججون في صدورهم نيران الحقد على الإسلام حتى دفعوهم إلى الزحف على قلب الديار الإسلامية تحت راية الصليب، وما زالوا بهم حتى استجروا العالم النصراني لإقامة دولة إسرائيل في رحاب المسجد الأقصى، بعد أن نجحوا في إفساد الشباب العثماني فساقوهم إلى تقويض الخلافة الإسلامية وتمزيق عرى الأمة التي أورثها الله مهمة الهداية البشرية. ومن ثم تسللوا إلى مقوماتها الروحية فأعملوا فيها التخريب عن طريق التعليم العلماني، والإنحلال الخلقي، والإقتصاد الربوي، واختلاق الأسباب الضامنة لاستمرار مفاسدهم، بإغراق الشعوب الإسلامية في بحران الفتن والحروب المدمرة بعد أن أتموا سيطرتهم على إرادة الشعوب النصرانية في الغرب والشرق.. وليس نشرهم الشيوعية في ديار المسلمين، ثم توريطهم الإتحاد السوفياتي باقتحام أفغانستان، وما أعقب انهياره تحت أقدام المجاهدين، من تسربهم وعملائهم إلى صفوف الولايات الإسلامية المتحررة من نير الإلحاد الماركسي، سعياً لتطويعها لأهدافهم الشيطانية، ثم إثارة التعصب الصربي هذه الأيام ضد مسلمي البوسنة والهرسك.

أجل.. ليس ذلك كله سوى حلقات في سلسلة المؤامرات العالمية التي لا هدف لها إلا القضاء على دعوة الله في الأرض لكي تخلو الساحة لجنود إبليس فلا يقف في طريقهم أحد يؤمن بالله واليوم الآخر.. ولم يعُدْ غرضهم هذا سراً بعد أن أحكموا قبضتهم على الفكر الصليبي، وباشروا متعاونين إقامة الأسس التي يرفعون

عليها القواعد للدين الشيطاني الذي بدأ يتمطى في أميركا وأوروبا وأستراليا، ومختلف أنحاء العالم سراً وعلانية.. وبمنتهى الإصرار على أن يحيلوا هذه البسيطة ـ إن استطاعوا ـ معبداً للشيطان وحده..

وإذا كان ثمة من يتساءل مستغرباً: كيف يتم التعاون بين اليهودية والنصرانية وهما ـ منذ كانا ـ الخصمان الألدّان!!

فلهؤلاء المتسائلين نقول: إن ذلك سر لا يعلمه إلا ذَوو النظر البعيد من أولي الألباب عامة وأهل الإسلام خاصة. الذين يقرأون في كتاب ربهم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١﴾

[المائدة: ٥١]

وإن تعجب بعد هذا البلاغ الرباني فعجب تسكُّع بعض المسلمين وراء أولئك المغضوب عليهم وحلفائهم الضالين، مرددين مع المنافقين الأولين شعارهم الذي يحكيه لنا رب العالمين بقوله الحق المبين:

﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ٥٢﴾

[المائدة: ٥٢]

وجزى الله الكاتبة الفاضلة أمجاد محمود رضا، كل خير على كلمتها بل زفرتها المنشورة في العدد ٩٤٦٦ وتـ ٢٧/ ١٢/ ١٤١٢ هـ في جريدة عكاظ، وفيها تقول: أعجبتني عبارة لإحدى الداعيات المسلمات.. أطلقتها في حديثها عما يدور في البوسنة والهرسك.

فلقد حاولت أن تجسد ما يقترفه أعداء المسلمين.. في صورة يمكن للعقول أن تتلقاها على اختلاف المستويات العمرية والثقافية ووصفت فيها صورة الإنسان

الوحشي الجديد في هذا القرن.. إنسان يجمع بين لغة الحضارة العلمية في صورة أسلحة فتاكة.. يحملها في يده.. ولغة الوحوش في أخلاقياته وتعاملاته..

إنسان ولكنه أبشع من وحوش الغابة..!!

فأكثر الحيوانات توحشاً ترتكب جريمة الإفتراس في ضحية واحدة، أما الإنسان الوحشي.. فتفوق على لغة الوحوش وأصبح قادراً على افتراس المئات بقنبلة.. وتعذيب الآلاف في دقيقة واحدة بأساليب تكنولوجية..!

كيف نفهم لغة هذا الإنسان الذي يستبيح الدماء لمجرد اختلاف في الديانة..وليس لفعل ارتكب؟!

كيف نفهم بقر بطون النساء الحوامل وهن أحياء.. لتوضع القطط مكان الأجنة.. فتظل المرأة في عذاب لا يحتمل فإن لم تمت قهراً.. ماتت من التعذيب بأساليب تفوق اختراع عقول الحيوانات المفترسة في الغابة..!

كيف يمكن بكاميرا مشاعرنا.. تصوير وجه طفل يرى العذاب والقهر في عيون أقرب الناس له.. فلا يستطيع سوى الصراخ.. والبكاء من أجلهم.. فلم يعرف بعد إلا لغة الدموع أمام لغة البطش والقهر..!

إن الحقد على المسلمين في كل مكان..

وأزمات المسلمين متلاحقة.. متتابعة.. فلا وقت لالتقاط الأنفاس..!

كنا بالأمس.. نبكي على أحوال النساء المسلمات في أفغانستان، وما عشنه من قهر.. وتعذيب.. وماتذوقه أبناؤهم من تيتم وفقر وجوع.. كنا نعتقد في سماعنا لقصصهن.. أنها حكايات من الخيال.. ولكن كنت أصدق عندما كنت أرى أجسادهن محروقة بالنابالم.. ودموع أولادهن تنحدر على آبائهم القتلى.. وأجسامهم تحمل بصمة التدمير.. ونفسياتهم تنوء بما تحمله من تخريب بشع..!

ولكن اليوم بما نسمعه ونقرأه عن النساء والأطفال في البوسنة والهرسك.. نشعر بأن الخيال قاصر عن استيعاب حكايات الواقع..! وإلى الرئيس الفرنسي

ميتران تحية الشرف والانسانية والإعجاب لمبادرته المدهشة في الإقدام على زيارة (سراجيفو) المنكوبة ضمن وابل من رشاشات وقذائف متوحشة الصرب يوم الأحد ٢٧/ ١٢/ ١٤١٢ هـ فكانت أنبل صفعة على وجه النظام العالمي الجديد لتقاعسه عن نجدة المظلومين بغير الكلام، وكان أبلغ تأنيب للدول الإسلامية وبخاصة جيران سراجيفو لوقوفهم عند حدود الأسف تجاه مجازر إخوانهم المهددين بالإبادة. . وقد حقق الله بتلك الزيارة السامية إخلاء الذئاب مطار سراجيفو، وشق الطريق لقوافل الإنسانية إلى مئات الألوف من سكانها الصامدين الصابرين على آفات الجوع والأمراض وضروب المهلكات. .

وإنها لمأثرة لن تنساها الأجيال لذلك الرئيس الفرنسي، تذكرنا بمأثرة البطل الإسلامي نجم الدين آربكان الذي لم يجد سبيلا لإنقاذ مسلمي قبرص من سكاكين مواطنيهم اليونانيين عام ١٩٧٤ م إلا بالزحف العسكري، الذي محا وصمة الهوان عن جبهات حكومات العالم الإسلامي، التي انقسمت يومئذ بين مؤيد للقسيس مكاريوس في تنكيله الدموي بإخوانهم المؤمنين، ولائذ بالصمت الذليل خضوعاً لأوامر كبار المجرمين العالميين!!

عندما يتولى الأكفاء معالجة الأدواء

لقد قدر الله بحكمته البالغة أن يبتلي الشعوب المصرية القديمة بالسنين فانقطع الغيث وتوقف الإنتاج وتعرضت البلاد لمحنة كان المتوقع أن تذهب بكل مقوماتها، ولكن رحمة الله كانت قد أدركتها من قبلُ بالرؤيا التي عرضت لملكها العاقل فأقلقته ولم يجد لها معبراً في حاشيته، حتى شاء الله فاستُفتيَ فيها سجين كريم أوتيَ العلمَ بما فات غيره من رموز ذلك النبأ الغيبي، فاستدعاه الملك وسمع من حِكَمِه ما شرح صدره، فقال له:

إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾

[يوسف: ٥٤]

ولكن يوسف عليه السلام أراد أن يقوم بما لا يطيقه غيره من المهام، فقال للملك:

﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ٥٥﴾

[يوسف: ٥٥]

وهكذا أراد الله سبحانه أن يجعل نجاة مصر من الخطر الماحق على يد نبيها الكريم بن الكريم، فأشرف على غلال مصر الخصبة طوال سبع سنوات، ينظمها على صورة حفظت للناس حقهم في الغذاء والكرامة، ثم أعقبتها سبع شداد كادت تذهب بكل أسباب البقاء لولا رحمة الله التي حققها على يد عبده يوسف، فاستمر مددهم من الحبوب المحفوظة حتى كُشفت عنهم الغمة وجاءهم الفرج بكل ما يشتهون.

ونحن لا نستطيع تصور حجم البلاء الذي كان ينتظر المصريين لو عُهد بأمر الميرة طوال السنوات الأربع عشرة إلى (كبير) من أمثال كبراء عالمنا المعاصر الذي تمتلىء بأحاديث سرقاتهم صحف الشرق والغرب هذه الأيام!.

وفي ظل هذه المآثر الضخمة نعرف قيمة الكلمة التي قالها يوسف عليه السلام لملك مصر **(إجعلني على خزائن الأرض)** فهو لم يرشح نفسه لتلك المهمة رغبة في أبهة المنصب، بل لأنه كان على ثقة بقدرته على تحقيق موجباتها لأنه **(حفيظ عليم)**..

وقبل يوسف رأينا ابنة شعيب تحثُّ والدها الصالح على الإنتفاع بمواهب موسى الهارب من جحيم الفراعنة، بعد أن شاهدت وأختها قدرته وأمانته، فقالت له:

﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ٢٦﴾

[القصص: ٢٦]

وبعد قرون رأينا خاتم رسل الله يأخذ برأي سلمان الفارسي فيأمر بحفر الخندق لحماية المسلمين من عدوان المشركين، وهو التدبير المخالف لمألوف البيئة العربية التي لم تكن لتعرف في حروبها سوى المجابهة القائمة على الكر والفر دون اللجوء إلى الخنادق والحصون..

ويتتابع الزمن حتى نرى محمد الفاتح يستعين بأجانب من أهل الكتاب لصنع القذائف الجبارة ذات الأحجام المعدة لتدمير الحصون الهائلة...

وفي هذه الأمثلة كلها دروس تعلمنا أن الحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق بها، وأن النجاح العظيم مقترن دائماً بوضع الأكفاء في أماكنهم المناسبة، وأن ذلك هو المنهج الأفضل للإنتفاع بالنِعَم الإلهية على الوجه الأكمل..

ومن هنا يتضح بجلاء أن كل خلل يعتري حياة الشعوب، وبخاصة الشعوب الإسلامية هذه الأيام مردّه إلى استبعاد الكفاءات المجربة عن مواضعها الطبيعية حتى كأن المسؤولين عن هذه الأوضاع لم يسمعوا قط بالمثل الذي يحدد مفهوم الحكمة بأنها (وضع الإنسان الكفء في المكان المناسب).

ما حكّ جسمَك غير ظفرك

ولقد علم أولو الفكر من الأقرباء والبعداء أن في هذه الأمة رجالاً بلغوا القمة في السمو الثقافي، وأثبتوا في مؤلفاتهم المختصة أن لديهم من الإدراك لأسرار الإقتصاد ما يؤهلهم لإبداع المخططات الصالحة لتنظيم المرافق العامة على الأساس الذي يقلب الأوضاع، فينقل الأمة من مهاوي العجز إلى مدارج القوة، ومن حضيض الإستجداء إلى مراكز العطاء.. ولو فُسحَ السبيل أمام هؤلاء للوصول إلى مواقع التوجيه العام لعرفوا كيف يوقفون حركة التدهور ثم يحوِّلون القطار عن المنزلق إلى جادة السلامة.. ويومئذ لن يفكر موسر بتهريب أمواله إلى مبالع الأعداء، ولن يضطر المسؤولون إلى رهن مقوِّمات أمتهم لدى الشبكات الدولية للحصول على القروض.. لأن الطاقات المعطلة ستأخذ سبيلها يومئذ إلى العمل المنتج الذي يؤمِّن لكل درهم مكانه الحق في عملية الإصلاح، ولكل جهد مساره

الصحيح في مسيرة المجتمع، على الطريقة نفسها التي هُدي إليها الخبير الألماني الدكتور شاخت في أعقاب الحرب العالمية الثانية التي دمرت مؤسسات بلاده، حتى اضطرت المرأة الألمانية إلى بيع أطفالها على الحدود لسد حاجات بقية الأسرة.. فلم يلبث ذلك المفكر الكبير أن خطط لإنقاذ ألمانيا بتجميع العاطلين من ذوي الخبرات المختلفة ليؤلف منهم المجاميع المشتركة في عملية الإنقاذ، وما هي إلا لحظات من عمر الأمم حتى استردت بلاده أنفاسها.. وتابعت خطوات الإنتاج المرسوم إلى أن احتلت ـ مع اليابان ـ مكان الصدارة في التقدم والرفاه.. دون أن تمد يداً إلى صندوق دولي، أو عون خارجي، لأنهما مؤمنتان بالقانون الفطري القائل:

ما حكَ جسمك غير ظفرِك فتولَّ أنت جميع أمرِك

ولعلي سلكت سبيل التكرار في إعادة بعض الأفكار، ولكن في التكرار مزيد من التوكيد (لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد...).

الفصل الخامس :

الإنسان بين الديمقراطية والإسلام

قبل الإنهيار

لم يكن سقوط الشيوعية من المفاجآت بالنسبة إلى أصحاب النظر البعيد الذين من شأنهم التطلع إلى ما وراء الظواهر الطافية على السطوح، فعلى ضوء إدراكهم العميق لأبعاد القوانين الكونية كانوا على مثل اليقين بوشك زوال النحلة الفاسدة لسبب أساسي وهو منافاتها للطبيعة التي فُطر الناس عليها، فمثل هذه النبتات الشيطانية تخرج إلى الواقع وهي مزودة بعوامل موتها، وإنما يُكتب لها من العمر بمقدار ما تصادف من النفوس الضائعة، فهي تُقبل عليها، كالغريق الذي يبصر ركام الغثاء على وجه الماء، فلا يتمالك أن يزحف نحوها رجاء الحصول على ما يساعده على البقاء، فما يزال في محاولاته حتى يتلاشى ذلك الوهم فإذا هو أمام الواقع الرهيب. . الذي يجسده المثل البرازيلي القائل (لا يبرح يمشي حتى يصطدم بالحقيقة. .) وقد يتخلف بعض الضائعين عن الوصول إلى هذه النتيجة، فيأبون الإعتراف بضلالهم، ويستمرون في أوهامهم ومماحكاتهم، كالذي نشهده في بعض الجماعات الغثائية من الذين ينفقون بقية أعمارهم في الذود عن تلك الضلالات محاولين التوكيد على أن الذي انهار ليس النظرية الشيوعية بل الطغمة التي أخطأت طريق التطبيق الصحيح لأصولها! فهم يمثلون في ارتكاسهم قضية ذلك العمدة الذي أسرف في البغي على أبناء قريته حتى نزل به الوالي في جولة تفتيشية على شؤون ولايته، فأقبل إليه المظلومون من ضحايا ذلك الرجل يشكونه ويعددون جرائمه، فلم يجد الوالي بداً من مواجهته بالعقوبة الرادعة، فأمر به فطُرِح أرضاً حتى نالت قدماه حظهما من السياط، وتوّج الوالي تلك الضيافة ببصقة لائقة

على لحية ذلك الظلوم. إلا أن هذا لم ير في تلك العقوبة ما يدعو إلى الخزي، بل ظل إلى نهاية حياته إذا أراد التمجد أمسك لحيته تلك وهو يقول بلهجة الإستكبار: هذه اللحية التي بصق فيها الوالي[1]. وليس الشيوعيون المتمسكون بجثة الشيوعية حتى الآن سوى مَثَل حي على هذا النوع من المخلوقات التي لا يحسن وصفها بأروع من ذلك الكاريكاتور الذي أبدعه المتنبي بقوله:

مـن يهـن يسهـل الهـوان عليـه ... مـــا لجـــرح بميـــت إيـــلامُ

والمفكر الحصيف من ذوي النظر البعيد لا يفوته العلم بالحوافز التي دفعت هؤلاء الضائعين إلى قبول الشيوعية نحلة يسلمون إليها قيادهم حتى لتبلغ بأحدهم القحة في تأليهها إلى حد القول:

آمنت بـ«الحزب» رباً لا شريك لـه ... وبـالعـروبـة دينـاً مـا لـه ثـانـي

فلقد كانت الشيوعية إحدى الجواذب التي استهوت الفارغين من الجيل الماضي فاندفعوا إليها يعوِّضون بها ما افتقدوه في أعماقهم من الإستقرار الروحي، الذي سُلخوا منه في غمرة الضياع فراحوا يتطلبونه من مختلف السبل، بعد أن عُمِّي عليهم سبيل الفطرة التي لا قرار لها إلا في سلوك الطريق الوحيد الموصل إلى بارئها.

وهكذا تدافعت الشياطين لاصطياد الفرائس، فكان لكل مذهب هدام نصيبه من هذا الجيل الممزق، فللشيوعية عبادها، وللسوفسطائية أتباعها، وللوجودية أحلاسها.. وحتى عبادة الشيطان لها حظها من الشاردين في متاهات الحياة، وبينهم القُسُسُ الذين انصرفوا عن دين المسيح إلى ملة الأبالسة الذين طالما حذّر المسيح منهم.

---

(١) حدثنا بهذه الطرفة المرحوم الشيخ أحمد عارف الزين، صاحب مجلة العرفان في صيداء.

المستقبل تحت بصر النبوة

وحُقَّ في أولئك الناس خبر المعصوم الذي نقله إلينا البخاري في صحيحه عن حذيفة بن اليمان. يقول الصحابي الجليل رضي الله عنه: يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر؟..

قال ﷺ: نعم..

ـ وهل بعد ذلك الشر من خير؟..

ـ نعم.. وفيه دخن.

ـ وما دخنه؟..

ـ قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر..

ـ وهل بعد ذلك الخير من شر؟..

ـ نعم.. دعاة على أبواب جهنم مَنْ أجابهم إليها قذفوهم فيها.

وهكذا يضعنا الأثر النبوي على المحجة البيضاء التي لا يزيغ عنها إِلاَّ هالك، وقد كشف الله لعيني نبيه حجب المستقبل، فهو يرى إلى الواقع الذي قُدِّر لهذه الأمة أن تمر به خلال مراحلها المختلفة حتى تنتهي إلى عهدها الراهن الذي اجتمعت فيه كل المفارقات التي عانتها وتعانيها.. ولا جرم أن أشدها تأثيراً في حياتها المعاصرة هي الشيوعية التي حاولت الإجهاز على كل صلة للإنسان بربه، ثم العلمانية التي لا تنفكُّ تلقي في روعه أنه إله نفسه، فلا سلطان عليه إِلاَّ لغرائزه وشهواته، فهما تتنازعانه يمنة ويسرة، وتكادان تتقاسمان الجنس البشري كله إِلاَّ القلة التي احتفظت بالبقية من أضواء السماء، فهي على بيِّنة من أمرها، تراقب صراع الفريقين في مزيد من الشفقة على كليهما وعلى مزيد من الجماهير المحتشدة حولهما، إذ ترى أخطار كل منهما توشك أن تذهب بالإنسانية جميعاً، فتحاول أن تضيء لهما الطريق بما تحتفظ به من هداية السماء، ولكن عبثاً، فالمتصارعون مختلفون في كل شيء إِلاَّ في التصميم على إطفاء ذلك النور!!

ولقد كان في صراعهما بالأمس فرصة تمنح المستضعفين فسحة للتنفس، أما وقد انتهت الشيوعية إلى مصيرها المحتوم فقد ضعف أمل المستضعفين بإزاء الطغيان الذي صارت إليه الموجة الأخرى بعد انفرادها بقيادة القطيع التائه، حتى يأتيها أمر الله بالمصير الموعود، الذي ما يزال التاريخ يسجله نهاية لكل طغيان. .

أجل إن الفراغ الروحي الذي صارت إليه الأجيال في غياب الوعي الديني الأصيل قد كان وراء ذلك التخبط الذي دمر أمن العالم حتى صار كالكرة في يد عفريت، ولا غرابة في شيء من ذلك بعد أن احتجب النور الإلهي عن سفينة الإنسانية، وتعطَّل فيها جهاز التوجيه فهي ألعوبة الأعاصير تضربها من كل جانب:

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ۝٤٠﴾

[النور: ٤٠]

بعد الإنهيار

وجاءت النتيجة التي لا مفر منها إذ فوجىء الغافلون بسقوط البالون الذي ارتفع كثيراً وخدع بحجمه الضخم أبصار الأنصار طويلاً، فإذا هم مصرَّعون على الحضيض وقد أفلتت من أيديهم حبال الوهم فلا يدرون أين يتجهون!. .

وكان طبيعياً أن يكون لانفجار ذلك البالون الهائل أثره الرهيب على مستوى الكرة الأرضية كلها، إذ كانت معركة الشيوعية مع منافستها الديموقراطية مشكلة العالم بأسره، فليس ثمة جانب منه إلاَّ وهو ضالع في هذه الملحمة على طريقة المبدأ القائل (مَنْ لم يكن معنا فهو علينا شاء أو أبى). فلما انهارت قلعة الإلحاد العالمي فوجئت الأرض بشظاياها تتطاير في كل الإتجاهات وسيستمر ذلك الزلزال في تفجره زمناً غير يسير قبل أن تسترد الإنسانية وعيها. وهنا بدأت مرحلة جديدة في تاريخ الشعوب، إذ وجدت نفسها مشدودة الزمام إلى الفريق الباقي، الذي وجدها فرصة لا تفوت لتثبيت سلطانه عليها باسم التنظيم الجديد، الذي يسد بوجهها كل المنافذ خارج الحدود التي يرسمها!

والناس مطبوعون على تمجيد المنتصر والإنحياز إلى طريقه تحقيقاً للخط الجاهلي الماثل في قول الشاعر القديم:

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهي ولأم الخاطىء الهبَلُ

ومن ثم بدأت الأرض تموج بالدعاة إلى نحلة ذلك المنتصر، وقد ملىء سواد أهلها يقيناً بأنه لم يحقق تفوقه إِلَّا بما يملكه من المميزات التي أَهَّلته للحاكمية المطلقة، فنظامه إذن خير الأنظمة، منهجه في العيش خير المناهج، وهذا كله مجتمع في الديمقراطية التي يحمل رايتها، فعلى الشعوب أن تتسابق للإندماج في موكب الهاتفين لها الواردين منهلها، فهي طوق النجاة، والويل لمَنْ فاته قطارها!!

على أن مشكلة الإنسان لم تجد حلها في هذه الطفرة، فهو ما ينفكُّ يدور في دوامة الصراع، وحتى الديمقراطية نفسها لم تخرج عن هذه الدوامة لأنها من صنع الإنسان الذي فقد دليله الهادي، فلن تزيده التغيرات الطارئة إِلَّا إيغالاً في المجاهل.

وإذن فما السبيل إلى الإستقرار!..

والكل يتطلع إلى البعيد المجهول! فما هو؟!

لا جرم أن مجرد ورود ذلك المجهول في ضمير الإنسان كافٍ للتوكيد بأنه موجود وأنه من الممكنات!! إنها الفطرة التي تبحث عن قطبها الموجب فأين هو؟! وما السبيل إليه؟!

الحل عند المسلمين

لقد استوقفتني كلمة في حديث الدكتور عبد الله المصلح مدير جامعة الإمام محمد بن سعود في أبها يرويها عن لسان الإقتصادي الألماني (ألنج) وقد سمعها منه في أحد المؤتمرات العالمية ونشرتها «عكاظ» في ١٤١٢/٧/٢٨ هـ. وفيها يعقب هذا الإقتصادي الألماني على حيرة المؤتمرين بإزاء مشكلات العالم المعاصر

فيوجه كلمته إلى الأعضاء المسلمين قائلاً: (إن إنقاذ العالم من مأساته الإقتصادية موجود عندكم معشرَ المسلمين).

أجل.. لقد استوقفتني هذه الكلمة لا بما تحمله من الحقيقة فقط، بل لصدورها عن خبير غربي عُجنت طينته في إجّانة الفكر الغربي، ومع ذلك استطاع أن ينفذ إلى نور الإسلام فيخرج منه بهذه الشهادة الصادعة (أن إكسير الإنقاذ العالمي موجود لدى المسلمين وحدهم..) فكيف أدرك ألماني هذه الحقيقة وجهلناها نحن المسلمين؟!

أليس منتهى العجب أن نملك مفتاح الحلول الإقتصادية للعالم كله فنغضي عنها ونتسكع وراء الضائعين نتلمس فتات موائدهم!!!

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

إن هذا العالم الألماني يركز في شهادته على الحل الإسلامي لمشكلات العالم الإقتصادية، ومعلوم أن للعالم البشري من المشكلات ما يتجاوز الإقتصاد إلى سائر جوانب الحياة فلِمَ أكتفي بالإشارة إلى هذه الناحية وحدها دون بقية المشكلات، وفي الإسلام كل الحلول لكل المشكلات، على رأي الشاعر المؤمن:

وكل العلم في القرآن لكن تقاصر عنه أفهامُ الرجال

على أن في هذا القصر تقريراً لحقيقتين إحداهما تصويرها لعقلية الغرب الموقوفة على المادة وحدها بحيث لا ترى الأشياء إلَّا من زاويتها، والثانية أهمية الإقتصاد وعلاقته بكل جوانب الحياة، حتى ليكون الحل الإقتصادي السليم شاملاً لسائر المعضلات الإجتماعية والسياسية والفكرية وغيرها.. فعلم الخبير السديد في علاج أي مشكلة إنسانية إنما ينطلق من علمه بالوحدة العضوية للإنسان، كشأن النطاسي الذي يعامل المريض باعتباره مجموعة حيوية كل جزء منها مرتبط بالكل.. وفي ضوء هذا الواقع يتبين الدارس للشريعة الإسلامية أن كل حكم فيها جلّ أو قلّ ملحوظ به مصلحة الجنس الإنساني فرداً أو جماعة في توازن لا يحسنه إلَّا مبدعه من العدم على أحسن تقويم:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾

[الملك: ١٤]

إنسان الديمقراطية

وعلى ضوء هذه الحقيقة الكلية يستطيع المفكر الرصين أن يستجلي مواطن الإتفاق والإفتراق بين الإسلام والديمقراطية، إذ يشاهد الإنسان في الديمقراطية كياناً متنافر الأجزاء، فيه الصالح إلى جانب الفاسد، فلا جامع بين العنصرين إلاَّ الإنفلات الذي يمنح صاحبه حرية العمل دون مراعاة لضوابط المصلحة العامة، كالصحيفة الواحدة تقرأ فيها البحث الصحي الذي يوجهك إلى ما يحفظ عليك نعمة العافية في الغذاء والكساء والرياضة وما إلى ذلك من الإرشادات البناءة، ثم لا تلبث أن تقرأ بعده الإعلانات المغرية بالخمر والقمار والفجور وما إليها من المدمرات..

ذلك لأن الإنسان في المفهوم الديمقراطي لا يعدو كونه فرداً في قطيع، همه الأوحد الحصول على أكبر قدر من المتعة الجسدية ولو على أشلاء الآخرين شعوباً أو أفراداً، دون اهتمام بالقيم الروحية، لأنه في حكم هٰذا الكيان حيوان متطور، ولعل الحيوان في بعض الأحوال آحق بتقديره، حتى ليقف على رعايته ثروته كلها بعد أن يحجبها عن أقرب الناس إليه وأحقهم برعايته!

فإذا التفتنا إلى مفهوم الإنسان في الكيان الإسلامي وجدناه في أسمى المنازل، فهو المخلوق الممتاز الذي زوَّده الخالق الحليم بكل المقومات التي تضمن له سعادته وكرامته، وأسجد له ملائكته، ومنحه القدرة على العلم والتعليم والبيان، وسخَّر له كل ما في الكون لينشيء الحضارات ويبدع الصناعات، وعصم دمه وممتلكاته وحرمته فلا يؤذى إلاَّ بالحق الذي يُرَاد به ردعه عن إيذاء نفسه والآخرين.

وقد أكرمه الله بنعمة الحرية في كل التصرفات التي تحقق له الأمن من الخوف والأمن من الجوع، ولم يحجر من حريته إلاَّ بمقدار ما يردعه عن العدوان على غيره..

هذا ولم يدعه يتخبَّط في مجاهل الكون دون دليل، فاختار له الرسل الهداة من جنسه يزوِّدهم بالتعاليم التي تساعده على تحقيق الحياة الفضلى في دنياه وآخرته.

لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ

[النساء: ١٦٥]

وجعل ذلك للثقلين ديناً ملتزماً وأخذ عليهما العهد بأن يجعلوه قوام حياتهم لا يزيغ عنه إلاَّ مَنْ فصم عهده مع ربه واتخذ من هواه وشيطانه إلهاً..

فالدين بالنسبة للإنسان هو الرباط الذي يصله بخالقه، والنور الذي لا ضلال معه، وهو ما أوصى به الله أباه الأول لحظة إهباطه إلى الأرض..

وبالدين انفصل الإنسان عن أجناس المخلوقات الحيوانية، وعلى مدى التزامه جادته يكون مصيره في الدنيا والآخرة.

وقد أدرك هذه الحقيقة مفكرو العالم بعد التجارب الطويلة التي مارسوها في البعد عن تلك الجادة، وها هم أولاء يعترفون في مؤتمراتهم العالمية أن كل الشقاء الذي تعانيه البشرية عائد إلى إعراضها عن دين الله[١]. وهذا اعتراف يسجل واحدة من شهادات أولي العلم بأن العودة إلى الدين هي المصباح الذي تفتقده الإنسانية في ظلماتها الطاخية.

---

(١) آخر ما قرأته من ذلك قبل أيام ولكن أضعت الصحيفة التي نشرته وأحسبها «العالم الإسلامي» في مقال بقلم العلامة السوري الدكتور ـ معروف الدواليبي، الذي كان أحد المشاركين في بعض تلك المؤتمرات.

الدين الحق هو صمام الأمان

ولكن أي دين هذا؟!..

أهو دين الحاخامين الذين نبذوا عهد الله وراء ظهورهم واستبدلوا به مفتريات التلمود الذي يبيح لهم دماء الآدميين وأموالهم وديارهم ويقول لهم (إذا اختلف الله والحاخام فالحق دائماً مع الحاخام)[1]!!

أم هو مقررات الكنيسة التي تزعم أن ما يُغْفَر في الأرض مغفور في السماء.. وأن مجرد التصديق بألوهية المسيح كاف لتكفير كل الخطايا التي يقترفها النصراني، حتى الإستعمار الذي يستنزف طاقات الشعوب المقهورة لتوفير شهوات المستعمر!!

أم هو أدبيات بوذا الذي أَقرَّ فصل الإنسان عن ربه فلا يعرض لذكره في أي من تعاليمه، فكان عاقبة أمر البوذي ما نراه من استباحته أموال المسلمين وأعراضهم في تايلاند وبورما وكل أرض تتحكم فيها تلك التعاليم!!!

أم في مجوسية الهندوس الذين يتقرَّبون إلى آلهتهم بالجداول التي يسفكونها من دماء المنبوذين والموحِّدين صباح مساء!!!

أجل.. إن العقدة الكبرى في شقاء البشرية الراهنة هي ذلك الفصام الذي أقصاها عن دين الله فأصبحت كالطفل الذي فُصِل عن ثدي أمه ولا حياة له إِلاَّ بالعودة إليه...

أجل.. إن الحل الأمثل بل الأوحد لعقدة ذلك الشقاء مرهون باستعادة العهد المفقود منذ الأزل البعيد بين العبد والرب.. إنه في الدين الحق الذي لم تلوِّثه نزعات الذين اؤتمنوا عليه من الأحبار والرهبان فخانوا أمانته وأفقدوه قدسيته،

---

(١) أكتب هذا من حفظي وهو في كتاب «الكنز المرصود في أسرار التلمود» الذي شحن مع مكتبتي إلى مدارس المجاهدين في بيشاور..

واتخذوا منه مطية للوصول إلى أعتاب الجبارين من طواغيت البشر، ومَرَدَة الشياطين، الذين زينوا لهم الضرب في المتاهات فكانوا السبب الأول في تحويل الإنسانية إلى غابة ضوار يأكل بعضها بعضاً، بل أسرف بعضهم في الزيغ حتى جنحوا إلى عبادة الشيطان نفسه ووقفوا حياتهم على الدعوة إلى ديانته الجديدة!!.

العلم الذي هزم الكنيسة

ولقد نجح هؤلاء الجانحون في إفساد الضمير البشري حتى استطاعوا إقناع الكثيرين من المغفلين بالفصل بين الروح والجسد، فللروح مجالها المخصص لطقوس العبادة بعيداً عن مجالات التأثير الأخرى، وللجسد ما عدا ذلك من الميادين التي تستوعب الحياة بأسرها، فلا سياسة في الدين ولا دين في السياسة، وعلى «دراويش المؤمنين» أن يكتفوا من الدنيا بموضع قدمين يناجون فيه ربهم، والويل لمَنْ يتجاوز منهم هذه المسلَّمات، ذلك لأن الأرض بزعمهم شركة بين الله والسلطان. فللسلطان كل شيء، ولله منها جوف المعبد فحسب، وحتى المعبد نفسه خاضع لذلك الشريك يأخذ منه ما يشاء ساعة يشاء. كما فعل مشركو الجاهلية الذين:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ﴾

[الأنعام: ١٣٦]

وبقليل من التأمل السليم في ما وراء هذا الدستور يتضح لك أنه دخيل على الضمير البشري لم يكد يعرفه على هذا الوجه إِلاَّ بعد هزيمة الكنيسة أمام العلم الذي حشدت كل طاقاتها للحيلولة دون انتشاره في العالم الغربي، ولكن العلم كان أقوى من كل أسلحتها الفتاكة فلم تستطع محاكمها التفتيشية ولا ضروب البلاء

الذي صبته على أهل العلم، حتى القتل والتعذيب والتحريق، أن تقف مدهُ المتنامي إلى أن تحقق له النصر الساحق على أساطين الكنيسة، التي انسحبت من المعركة لتتقوقع على نفسها راضية بنصيبها الذي استبقاه لها المنتصرون من الإنسان المتنازع عليه، إذ ذهب هؤلاء بجانبه المادي كله، واكتفت هي بجزئه الغيبي الذي لا يكاد يتصل بها إلاَّ ساعة في الأسبوع ـ على تعبير ذلك الأميركي الذي يقرر في كتاب له عن الغرب «أن أهالي لندن يعبدون بنك إنجلترا طوال الأسبوع فإذا جاءهم الأحد ذهبوا ـ أو ذهب بعضهم ـ إلى الكنيسة»!.

وذلك هو المصير الطبيعي لقادة النصرانية بعد أن اضطروا لإلقاء سلاحهم أمام ذلك الخصم الذي تجرّع منهم المرائر، وأتيحت له فرصة الإنتقام لشهدائه، فلم يدّخر وسعاً في إيجاعها والتهوين من شأنها... وهكذا قُدِّر لحضارة الغرب أن تتحرر من كابوس الكهنوت لتنطلق في سماء الحرية تستجلي أسرار الكون، وتسخر طاقاته لإبداع العجائب، بعد أن أتى عليها حين من الدهر محبوسة في قمقم الإستبداد الكنسي لا يسمح لها حتى بمجرد التفكير إلاَّ في حدود أوامره ونواهيه، على الطريقة التي قررها فرعون موسى يوم أعلن السَّحَرةُ تصديقهم بالحق فراح يصرخ فيهم:

ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡ

[الأعراف: ١٢٣]

هذه الضلالة..
كيف تسللت إلى ساحة الإسلام

أجل.. إنه المصير الحتم لا تخطىء رؤيته البصيرة النافذة حتى قبل أن يبرز للأبصار. ولكن كيف تسلل هذا المفهوم الكنسي إلى ساحة الإسلام الذي لم يعرف تاريخه الطويل قط مثل تلك الحرب الضروس مع العلم وأهله؟!!.

إن أول كلمة نزل بها الوحي على قلب خاتم النبيين هي قوله تعالى (إقرأ) ثم تتالت أشعة الوحي فكان من أوائلها:

﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾

[العلق: ٣ ـ ٥]

فالقراءة والكتابة هما مفتاح الرسالة الإسلامية ونقطة الإنطلاق إلى بناء الحضارات الموعودة..

وأولو العلم هم حَمَلة مشاعل الهداية إلى العالم الضائع في خضم التناقضات المدمرة... وقد رشحهم القرآن العظيم لأسمى المنازل حين جعلهم من شهود الحقيقة الكبرى التي قامت بها السموات والأرض:

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾

[آل عمران: ١٨]

وحين حصر خشيته بهم وحدهم لأنهم بالعلم الذي يملأ كيانهم أدرى الخلق بعظمة ربهم وجلاله وكماله:

﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾

[فاطر: ٢٨]

وبهذا العلم المنير فهموا مدلول قول ربهم:

﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾

[لقمان: ٢٠]

فأدركوا في ضوئه أنه يحثهم على البحث والتنقيب والكشف الدائب عن المكنونات المبثوثة في علوي الكون وسفليه، فلا عذر لهم بالجمود أمام أسرار الوجود..

فمن أين للجهل أن يتسرَّب إلى هذا الدين الذي به:

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

[المجادلة: ١١]

بل كيف تسلل ذلك المفهوم الشيطاني إلى نفوس بعض أبناء المسلمين فراحوا يتتبعون خطوات ملاحدة الغرب داعين إلى تبني أفكارهم، التي فرضها الضغط الكنسي المعادي للعلم حتى لتقضي محاكمه بالموت حرقاً على كل من يضبط في حوزته كتاب من مؤلفات علماء المسلمين!!..

لقد كان فصل الغرب المادي بين الدين والعلم ضرورة لا بدَّ منها لردِّ طغيان الجهل الكهنوتي عن حقائق العلوم الكونية، فما بال تلامذة الغرب من أبناء المسلمين يجهدون لجرِّ عالمهم الإسلامي إلى الهاوية نفسها، فيقيموا الحواجز بين الإسلام والحياة لمجرد تقليد الغرب، ودون أن يكلِّفوا أنفسهم عناء النظر الفاحص لحقائق الإسلام وأباطيل خصومه.. ولعمري لو فعلوا ذلك لخجلوا من أنفسهم ولجندوا طاقاتهم للذود عن هذا الدين المظلوم، ولأيقنوا أن عليهم أن يحملوا راياته إلى العالم المتخبط في الظلمات رجاء إنقاذه من أوبئته، وردِّه إلى نور ربه، بدل الإنسياق الضرير وراء أولئك العميان الذين دُفعوا إلى التسكع في المجاهل حتى حقَّ بهم قول الشاعر:

أعمى يقود بصيراً.. لا أبا لكم   قد ضلَّ مَنْ كانت العميان تهديه

الاستغلال يستنفد موارد الأرض

وقد بلغ ذلك الإنصياع الضرير ذروته في مواقف أولئك العلمانيين المتنكرين لدين أبائهم ولتراثهم الثقافي، التارك بصماته على كل الثقافات العالمية، ولعل أعجب ما في ذلك جهلهم المطبق بالحلول السديدة التي يقدمها الإسلام لكل مشكلات الإنسان على مدار التاريخ، وبخاصة ما يتصل منها بالجانب الإقتصادي الذي ينيخ بكلاكله على صدر العالم البشري جميعاً فيغرقه بمئات المحن..

وقد سبق أن عرضنا لبعض الجوانب من عناية الشريعة الإسلامية بهذا الموضوع، والآن نرى أن نتبع ما أسلفناه هناك ببعض الإشارات الأخرى التي لا يجوز إغفالها في بحث حول الديمقراطية التي أصبحت من موضوعات الساعة التي تجري على كل شفة ولسان. .

فالديمقراطية، وهي النظام الذي يوصف بأنه جماع الطول لمشكلات الإنسان، تمنح الإقتصاد البشري اهتماماً خاصاً يتناسب مع فلسفتها المادية، التي تعتبر الكيان الدنيوي هو الهدف الأول والأخير كما أسلفنا أكثر من مرة، ومقتضى ذلك أن تستحيل الأرض حلبة صراع بين المجموعات البشرية ينتزع منها كل فرد أو جماعة ما تبلغ طاقتهما، فللأقوى ثمرتها الطيبة، وليس للضعيف المتخلِّف سوى الموت أو الفُتات. . وأبرز النماذج المصورة لهذا الواقع ما نشاهد هذه الأيام من التباين بين دول الشمال والجنوب، وما يميز الأولى من التضخم الذي يمكِّن أصحابه من التحكم في مصير الآخرين، وفي سبيل ذلك لا بأس أن يُلقى بفائض الأغذية الكونية في البحر ما دام ذلك مؤدّياً إلى ارتفاع الأسعار، المؤدّي بدوره إلى زيادة الهزال في المتخلفين ومزيد التضخم في ممتلكات المنتفخين. . ونتيجة لذلك وهذا استمرار التسلط الفوقي على التخلف التحتي، وتنامي هذه الأوضاع دون تعديل، حتى يستنفد الإستغلال موارد الأرض وينتهي كل شيء إلى الإنفجار. . وخلال هذه المسيرة تتوالى المفارقات حتى لترى جماهير يمتصها الجوع والظمأ وأفراداً تقتلهم الكِظة والتخمة، ومؤسسات تنشأ لخدمة الكلاب والقطط تُنفق عليها المليارات من جهود الجياع والكادحين. . وتُقام لزواجها وولادتها الأفراح والمآدب في قصور الأفراح، وراء كل ذلك صيادو المغفلين ينتشرون في أسواق العالم يعرضون ذهبهم ودولاراتهم للقروض الربوية التي لا مردود لها سوى مضاعفة أحجام التضخم المؤدي في النهاية إلى أخطر الحروب وأفدح الكوارث العالمية. . تحقيقاً للمخططات اليهودية التي لا عمل لها إلاّ تأجيج الحرائق البشرية في كل مكان. .

من هنا انطلقت فواجع التاريخ

ومرة أخرى نذكّر القارىء بالواقع الذي لا خير في تجاهله وهو أن كل ما أسلفناه من ركام الإنحرافات إنما جاء من المنطلق الرأسي لهذه الديمقراطية، وهو ما قدمناه آنفاً من أن الأساس في بنائها الفلسفي اعتبار الكيان الدنيوي هو الهدف الأول والأخير من هذه الحياة، وبهذه الفلسفة تلتقي مع منافستها الماركسية القائلة (لا إله ولا وجود ولا مسؤولية وراء المادة). وطبيعي أن المخلوق الغارق في هذا المفهوم لا يرى حدّاً فاصلاً بين ما هو له وما هو لسواه، وبالتالي فلا مفهوم عنده للحلال والحرام والمباح والمحظور، إلّا من خلال القوة والضعف، فكل ما تبلغه يد القوي فهو الحق الذي لا مرية فيه، وإذن فعليه أن يتزوّد لتحقيق هذا الهدف بكل ما يؤمّن له القوة الغالبة، سواء في ذلك قوة المال، أو قوة العضلات، أو قوة الإحتيال، أو تفوق الأسلحة القادرة على الإبادة الجماعية. ولا جديد في هذه الفلسفة التي هي ديدن كل «متحرر» من «ربقة» الإيمان بالله واليوم الآخر، وسمِّه إنْ شئت ملحداً أو علمانياً أو شيوعياً أو وجودياً أو سوفسطائياً أو قِرمطياً.. أو ماشئت من الألقاب.. ولا أدق في وصف هؤلاء جميعاً من قول المتنبي في تحديد هُوياتهم:

إنما أنفس الأنيس سباع   يتفارسن جهرة واغتيالاً
من أطاق التماس شيء غلاباً   واغتصاباً لم يلتمسه سؤالاً

حقاً إنهم لكذلك وأقرب أمثلتهم للذاكرة هو أن أكبر فواجع التاريخ البشري إنما كان باعثها انفلات صانعيها من ضوابط الدين واستسلامهم لهذا المبدأ الشيطاني، الذي يحصرهم في بؤرة الشهوات وحدها دون نظر إلى ما وراءها من العواقب.. وإلّا فبِمَ يفسر علماء النفس إقدام هولاكو وجنكيز وتيمور وستالين وقرامطة البصرة على إبادة عشرات الملايين من أبناء آدم ومئات المدن من مراكز الحضارات، دون مردود سوى تسجيل أسمائهم في قوائم الذئاب التي لا همَّ لها سوى القضاء على القطيع، ولا شيء وراء ذلك!!

ولماذا السلبيات وحدها؟

غير أن من غير الإنصاف أن ننظر إلى الديمقراطية من زاوية المآخذ وحدها دون النظر إلى زواياها الأخرى التي حفلت بالكثير من الخير. .

ومن أعجب العجب أن الجيل الذي نشأ في أحضان هذا النظام على أيدي المستشرقين والمنصرين، ومارس فواعله في غمار الحياة الناتجة عنه، قد عاد إلى بلاده لينشر فيها سلبياته وحدها.

لقد استطاع ذلك الجيل تسلق أسوار مجتمعه الأصيل ليحتل منه أعلى مراكز القوة المتحكمة، بيد أنه لم يكد يزيد على نقل نفايات الغرب النافية لكل مواريثه الفاضلة، فباسم التجديد قلب موازين التعليم فأزال منه كل ما يربط الوجود بخالقه، وفي ميدان الإقتصاد قطع كل علائق أمته بتعاليم السماء ليحل مكانها المناهج الربوية التي تقوم على مجرد الأرقام دون الأرحام، وفي الجانب الإجتماعي أباح كل محرم ما دام قائماً على التراضي، ورَبَطَ الأخلاق بالمصالح الشخصية أو الجماعية فألغى بذلك فاعلية القيم الإلهية في حياة الإنسان. . ثم ألقى شباكه في داخل الأسرة فأزال المرأة المسلمة عن عرش الزوجية والأمومة ليزج بها في مزالق الإثم، وما زال في اندفاعاته الهوجاء حتى سمّى الراقصات والمهرجين كواكب ونجوماً تحجب بترهاتها أضواء الفضيلة في البقايا الصامدة من أصحاب الكرامات والمروءات! . . .

وكل ذلك تحت ستار التقدمية والحضارة واقتفاء آثار الضائعين من عملاء الغرب أو الشرق. .

ولكن في الديمقراطية إيجابيات

أما وقد قَصَرَ ذلك الجيل المستغرب همته على الجانب الأدنى من معطيات الديمقراطية فلا أقل من أن نذكِّره بجانبها الأسمى الذي أغفله في غمرة الإنبهار فلم يتذكَّر حاجة أمته إليه. .

أفضل ما في الديمقراطية بالنسبة إلى العالمين الإسلامي والعربي هو التزامها العملي بكرامة الإنسان وحياطتها بكل شرائط الصيانة ضد الطغيان السياسي.. فبينما يفقد الإنسان حقه في الحياة والتملك والتعبير تحت كابوس الإستبداد، حتى ليُساق إلى القتل، ويتعرض للاغتيال فتنتهك حرمته، ويجرّد من ثمرة جهوده، ويختنق صوته فلا يجد سبيلاً للاعتراض أو الاحتجاج.. تجد هذا الإنسان في كنف الديمقراطية السليمة موفور الكرامة، مطمئن القلب، ثقة منه بأنه لن يمسه من السوء إِلاَّ ما توجبه العدالة ويتفق مع تصرفاته، وفق النظام الذي يحمي حريته من كل عدوان، فلا سجن إِلاَّ بأمر قضائي، ولا عقوبة إلا في حدود ما نصَّ عليه القانون، بل إن له كل الحق في أن يرفض الإجابة عن أي سؤال يتوقع منه مساساً بحقه..

فالفرق إذن بين الديمقراطية والإستبداد هو أن الحاكم في الأولى مقيد التصرف في حدود الدستور والقانون، على حين أن الأمر كله بين شفتي الحاكم في الجانب الآخر، وقد يتستَّر المستبد بشكليات من طلاء الديمقراطية، فيفسح للجمهور مجال التعبير عن تطلعاته بطريق الإنتخاب، ولكنه سرعان ما يسلط عليه خبراء التزوير فتمتلىء صناديق الإقتراع بما شاء من الأوراق التي قد تزيد عن الحاجة، ثم تُعلَن النتائج التي تؤمن استمراره على قمة السلطة، بموجب الرقم المعهود الذي يجب أن يتجاوز تسعة أعشار المئة دائماً!

على أن هذا الحاكم قد تمس قلبه ذات يوم نفحة من الرحمن فيحاول التكفير عن زلاته بإتاحة الفرصة لشعبه كي يختار ممثليه بمنتهى الحرية.. وتمضي عملية الإقتراع في الجو الصحيح، وتعلن اللجان المشرفة فوز الفريق الآخر بمعظم النتائج مصدَّقة بشهادة الدولة نفسها، .ولكن سرعان ما ينقلب الوضع، فإذا الذين كانوا يتباكون على الديمقراطية يهاجمون تلك النتائج الديمقراطية، ويحشدون طاقاتهم لتحطيمها وللقضاء على قادتها!!.

ولقد رأينا من مآثر الديمقراطية السليمة في الأمم الحية أن رأس الدولة أياً

كان لا يضمن بقاءه بالسلطة إلَّا بمقدار ما يحقق لوطنه من الخير، وما يقدم لشعبه من الخدمات التي من شأنها أن تدفعه للمزيد من تأييده، فهو يتخذ من وجوده في قمة السلطة فرصة للإكثار من خدماته، والأمر بعد ذلك كله لإرادة الناخبين الذين قد يؤثرون عليه غيره فيفارق منصبه مشكوراً مقدوراً ليفسح السبيل لمَنْ يُرْجَى منه الأفضل من الأعمال والخدمات.

ولنتذكَّر من أمثلة ذلك «تشرشل» قائد بريطانيا إلى النصر في حربين عالميتين، فما إِنْ أكمل مهمته في خدمة أمته حتى تخلى عن الحكم نزولاً على إرادتها. . .

ومن البديهيات أن الحاكم الذي يتوقف نجاحه واستمراره على رضا قومه سيضع مواهبه كلها في خدمة مصالحهم، وفي مقدمة تلك المصالح حماية القضاء من العبث الذي يربطه بأهواء الحزب أو الحاكم، مع الحفاظ التام على مقومات الأمة، حتى لا يصل إلى رئاستها إِلَّا القوي الأمين.

ومن هنا كان كل عمل سياسي في كنف هذه الديمقراطية واقعاً في موضعه المناسب لأن كل عامل فيه مسؤول عن تصرفاته، فهو يحاسب نفسه قبل أن يحاسب ويزن أعماله قبل أن توزن عليه. . بينما يكون كل فرد بل كل شيء في جحيم الإستبداد خاضعاً لإرادة الطبقة الفوقية، فالنظام الذي يحتوي الجميع هو المنفعة المشتركة والتزلف إليها، فلا قيمة للكفاية، ولا وزن للإتقان والإخلاص.

حقوق الإنسان وضوابط الحكم

ومن البدهيات أيضاً أن ما نذكره من مآثر الديمقراطية سيذكّر القارىء بالجذور المشتركة بينها وبين الإسلام من حيث الإهتمام بمصالح الإنسان فرداً وجماعة. وفي الفصل الأول من هذا الكتاب عرض مركز لغير قليل من هذه الأصول، حسبنا منها هنا الإشارة اللامحة إلى القيمة القيِّمة لهذا المخلوق الذي يقول عنه كتاب الله:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾

[الإسراء: ٧٠]

فأين تقع حقوق الإنسان في الحضارة الغربية من هذا التكريم الرباني الذي تلقاه الجنس البشري ممثلاً في أبيه الأول منذ اليوم الذي أسجد الله ملائكته لآدم في عالم الغيب!.. ومن أين لتلك الحضارة أن تعرف حقوق الإنسان لولا احتكاك الغرب بالإسلام عن طريق الأندلس أو الحروب الصليبية التي فاجأت الغزاة بما لم يسمعوا به من القيم الإنسانية!.. وأي حقوق هذه التي يتبجح بها الغرب وهي التي يحبسها على شعوبه وحدها، ويحرم منها سائر الشعوب التي يتعامل معها؟!.. بل أين مُدَّعيات الغرب في موضوع الحرية الصورية من الإعلان الذي أطلقه ثاني الخلفاء الراشدين في صيحته المُدَوِّيَة: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً»!! وهو المبدأ الذي بسببه أجمع فقهاء الإسلام على اعتبار مجرد ضرب السيد مملوكه من موجبات عتقه!!

وقد يتساءل هذا القارىء قائلاً: إن من مآثر الديمقراطية تقييد سلطة الحاكم في نطاق القانون الذي يحدد صلاحيته فلا يتجاوزها إلى التعدي على حرمات الفرد، فهل عرف الحكم الإسلامي هذا النوع من الضوابط القانونية التي تمنع الحاكم من الشطط!

وإنه لتساؤل جدير بالتأمل، ولا بد من البحث عن جوابه في المراجع الأساسية التي منها تُستنبط أحكام الشريعة، وعندما ننعم النظر في كتاب الله نجد أنفسنا أمام قواعد عامة مبثوثة في مختلف الآيات والسور وفيها الكثير من التوجيهات الضابطة لهذه التصرفات..

يقول ربنا تبارك اسمه:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ

[النساء: ٥٨]

فلا يفوتنا أن هنا قراراً إلٰهياً مُلزِماً لكل مسؤول من المسلمين، وغير مقيد بسبب النزول، ولا جرم أن ولاية المسؤولين عن إدارة شؤون الأمة في رأس هذه الأمانات، فمن حق مجلس الشورى الممثل لإرادتها بل من واجباته الرئيسة، إصدار قانون يحدد صلاحية ولي الأمر ويحمِّله تبعة كل تقصير في هذه المهمة، إلى حد إعفائه من عمله نهائياً ثم محاسبته على كل ما فرَّط فيه.

والآية الكريمة تجمع بين موضوعي الأمانة والحكم، وهو جمع دقيق الدلالة، لأن الحكم بين الناس من أهم موجبات الأمانة، وفي رأسها اختيار الأصلح لممارسته، وإقامة الرقابة الضامنة لانتظامه على النهج الأسلم. ومن هذا المنطلق كانت محاسبة رسول الله ﷺ لعامله ـ ابن اللُّتبية ـ حين أقبل من عمالته ليقدم إليه زكوات القوم قائلاً: «هذا لكم وهذا أهديَ إلي». فما لبث نبي الله أن علا المنبر ليعلم الناس ما للعامل من الحق وما عليه من الواجب، فكان من ذلك قوله:

«ما بال الرجل نوجهه إلى عمل فيقول هذا لكم وهذا أُهدي إليّ. . أفلا قعد في بيت أبيه حتى ينظر أيُهدى إليه أم لا!!».

[رواه مسلم].

وقد رأينا أثر هذا التوجيه الرباني في تصرفات الفاروق رضي الله عنه حين بعث مندوبه ـ محمد بن سلمة ـ إلى مصر للنظر في أعمال واليها وفاتحها أبي عبد الله عمرو بن العاص فجعل يناقشه الحساب في كل شيء، حتى لينتزع أحد حذاءيه فيرده إلى بيت مال المسلمين!

المغيرة أمام القضاء

وشكا بعض المغرضين والي الكوفة المغيرةَ بن شعبة إلى عمر متهمين إياه بالزنا. . فاستقدمه والشهود الأربعة إلى المدينة ليتولى التحقيق بنفسه، ثم جعل يسائلهم فيدلي كل واحد بما عنده عن الموضوع بمشهد ومسمع من الأمير المتهم، حتى جاء دور الرابع فإذا بشهادته تضطرب فتفسد وتدخل الفساد على شهادة الثلاثة

فكانت البراءة هي النتيجة، ولو انتظمت في سلك الشهادات الثلاث لنفذ عمر في المغيرة حكم الرجم كما أوعده بقوله: «والله لو تمت الشهادة لرجمتك..»[1].

وهكذا صنع في محاكمة سعد بن أبي وقاص بطل القادسية وأحد العشرة المبشرين بالجنة، إذ اتهمه بعض الخصوم بالإحتجاب عن الرعية فأرسل إليه من يحرق باب منزله ليظل على صلة بأمور الناس...

ومن هذا القبيل ما نقرأه في كتاب الله من الأمر بعقوبة الزاني والسارق فنرى الحكم بشأنها عاماً لكل مَنْ اقترف إحدى هذه الجرائم من ذكر أو أنثى حتى ولو كان السارق أو الزاني في أعلى المنازل الاجتماعية والسياسية، ولا ننسى هنا كلمة رسول الله ﷺ عند معاقبة المخزومية.

«وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»

[للبخاري ومسلم]

وليس بغريب أن ينفذ نبي الله حكم الشريعة في أقرب الناس إليه، وهو الذي قدم نفسه للقصاص عندما شكا أحد جنوده ـ سواد بن غزية ـ أنه قد أوجعه بالضغط على بطنه وهو يُسوِّي صفوف المسلمين قبيل ملحمة بدر، فما كان منه إلَّا أن كشف عن بطنه الشريف ليأخذ سواد بحقه من نبيه ﷺ!.. ولِمَ لا.. إنه حكم الله الذي يسوي في القسط بين أفراد المسلمين دون تفريق بين نبي وجندي:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ

[النساء: ١٣٥]

ولكيلا تذهب بالقارىء الظنون إلى القول بأن مثل ذلك القسط لم يتجاوز عهد الصدر الأول نحيله إلى الكتب التي حملت أخبار قضاة الإسلام حتى عهود

(١) انظر مختصر تاريخ دمشق ج ١٨/١٦٩.

متأخرة ليستيقن أن ذلك هو الطابع الرئيسي في حياتهم، حتى جاء عهد الإشتراكية التي قيدت القضاة بأهواء الحكام حتى أحدثت للإشتراكية نائبها العام. وحسبك من مآثر أولئك العمالقة خبر أحدهم وهو عبد الله بن سوار قاضي المنصور على البصرة، إذ رُفعت له شكوى الحمّالين على الخليفة فأرسل بطلبه إلى مجلس الحكم، ولمّا حضر لم يقم له القاضي واستمع إلى أقوالهم وإلى ردِّ المدعي عليه ثم حكم على الخليفة دون أن تأخذه في الحق هيبة المنصور وهيلمانه[١].

ثم إليك ذلك المشهد الآخر في حياة قاضٍ معاصر وهو الأستاذ علي الطنطاوي الذي عُين قاضياً في النبك ـ بين دمشق وحمص ـ فإذا هو يفاجأ بقضية تضخم حجم أوراقها ويرافع فيها كبار محامي دمشق.. ولكنه لم يلبث أن أكبَّ عليها يتقصى مضمونها بدقة، فلما جاء موعد المحاكمة وحضر المحامون أصدر قراره بردِّها دون توقف لأنه لم يجد فيها أي وجه حق.. وترك للمحامين أن يغرقوا في دهشتهم!..

ومن مآثر هذا القاضي في مدينة النبك أيضاً ذلك القرار العجيب الذي حكم به على الموسرين بمساعدة المحرومين، مما لم يُعرف مثله إلا في عهود الراشدين.. ولا يعدله في القيمة إلا قرار بعض المحاكم المصرية بإسقاط الربا عن الديون عملاً بأمر الله الذي حرَّمه من فوق سبع سموات[٢].

فهل لهذه التسوية من نظير فيما تواضع عليه الناس من الأنظمة والقوانين؟!

ذلك هو الحكم الذي يخافه الملحدون والعلمانيون ويخوِّفون منه أولياءهم الذين لا يعلمون..

ودعونا نتساءل هنا: لو أن حاكماً علمانياً تعرَّض لمخالفة قانونية بيّنة فما الحكم الذي سيصدر عليه؟.. أَيُحَال إلى القضاء لينال نصيبه من العقوبة كأي فرد

---

(١) انظر (تاريخ الخلفاء للسيوطي) ص ١٩٢.

(٢) انظر كتابنا (علماء ومفكرون عرفتهم) ج ٣/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣.

من الناس؟!.. أم تُطوى صفحة القضية كأنْ لم تكن؟..

لقد علم الناس أن قائداً إنقلابياً كان يراقب بعض التدريبات العسكرية في جيشه عندما لمح خطأ أحدهم فما كان منه إلا أن عاجله بطلقة من مسدسه أجهزت عليه.. ثم استمرَّت المناورة وكأن القتيل جُرذ لا يستحق أن يُلتفت إليه!!

ذلك لأن المسلَّط في العرف الديمقراطي والعلماني مصون الذات فلا مطمع لأحد بمقاضاته لأنه متمتع بالحصانة، فهو بها فوق القانون، بل يشاركه في الحصانة سائر المسؤولين من الوزراء والنواب..

والحقّ أَلاَّ مجال للمقارنة بين واقع النماذج الإسلامية وتلك الصور الماثلة في النماذج الأخرى، لأن كلاً من النوعين يجسِّم خلفيته الفلسفية، وشتان بين هيكل من صنع القصور البشري، وحقيقة من أمر الله الذي أتقن كل شيء.. وما أبعد البون بين مسلّط يُفْرَض بالقوة أو بالحيلة على قوم يبغضونه كما يبغضهم ويلعنونه كما يلعنهم، وآخر حبيب إلى الذين اختاروه لقيادتهم على بصيرة فهم يحبونه كما يحبهم ويصلون عليه كما يصلي عليهم[1] فهو معهم كالقطبين السالب والموجب في الجهاز الكهربائي، بتعاونهما يحققان وظيفتهما المثلى بينما يتشاكس الآخران فتكون النتيجة الدمار لكليهما..

أخرج البخاري في صحيحه أن رسول الله جهَّز ذات يوم سرية بقيادة أحدهم وأوصاهم بطاعته، وأثناء الرحلة أصدر القائد أمره لجنوده بإيقاد النار ثم بالقاء أنفسهم فيها، وترددوا بين أن يعملوا بإشارته عملاً بحق الطاعة، أو يمتنعوا حماية لأنفسهم، ولما روجع رسول الله في المشكلة قال:

«لو دخلوا النار ما خرجوا منها..! إنما الطاعة بالمعروف»

فبالمعروف تتحدد مسؤولية القيادة الشرعية، فهي ليست وسيلة للإذلال

---

(١) مضمون حديث شريف رواه مسلم ـ رقم ١٨٥٥.

والاضلال، بل توجيه وتسديد بالتي هي أحسن إلى التي هي أقوم، فما بالك برائد يصرف أتباعه متعمداً عن مواطن العزة إلى مزالق الخذلان؟!. وأنت لن تجهد كثيراً حتى ترى العديد من هؤلاء:

﴿ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ۝٢٨﴾

[إبراهيم: ٢٨]

ثم راحوا يمنون على قومهم بمثل قول سابقهم ـ فرعون موسى ـ:

﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝٢٩﴾

[غافر: ٢٩]

ويا لها من غصة لاهبة تلك التي أطلقها شيخ المعرّة في رواد زمانه من أسلاف هؤلاء الفراعين:

مُـلَّ المقـامُ فكـم أعـاشـر أمـةً ... أمـرت بغيـر صـلاحهـا أمـراؤهـا!

هـدمـوا مفـاخـرهـا وغـالـوا أمنَهـا ... وعـدوا مصـالحهـا وهـم أجـراؤهـا!

عبر من الغابر والحاضر

عندما يحلولك الظلام تتجه طاقات المدلج كلها للبحث عن النور، وذلك ما أواجهه الساعة إذ لم أكد أفرغ من صياغة المقطع الآنف حتى وجدتني مشدوداً إلى قصة «الرجل الطواف» التي أوردها مبدع الكون في سورة الكهف من كتابه الخالد.. إنها قصة «ذي القرنين» ذلك القائد الكبير الذي أعطى الله كل وجوده، فكافأه على ذلك بتسديده إلى كل عظيم وجميل من الأعمال والأقوال التي يحبها مولاه، واستحق أن تكون سيرته أحد محتويات تلك السورة الكريمة.

أول ما يواجهنا من ملامح التوفيق في تلك الشخصية النموذجية موهبتها الخارقة التي تُتاح لها الأسباب فتحسن التعامل معها على أفضل الوجوه، حتى ليولد من السبب الواحد أسباباً تحقق له كل ما يطمح إليه، بشهادة العليم الخبير،

الذي يصف لنا روائع تصرفاته بقوله الجامع:

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾

[الكهف: ٨٤]

وإنما أيده الله بالتمكين كفاء إتقانه التعامل مع سننه الكونية.. ثم نمضي معه في رحلته العالمية من أقصى المغرب إلى أقاصي المشرق، حيث يقيم قسطاس العدل بين الشعوب التي يمر بها فيكافىء المحسن ويؤدِّب المفسد، ويساعد المتخلفين بتوجيههم إلى التي هي أقوم، حتى إذا بلغ السدين جاءه المظلومون يشكون إليه طغيان جيرانهم الذين لا يكادون ينقطعون عن الإيقاع بهم واستلاب مجهوداتهم كلما حانت مواعيدها، فما لبث أن أقبل عليهم بالعون الأبوي، فكلفهم تزويده بزُبَر الحديد ثم استعملهم لرصفها في الفجوة التي يتسلل منها البغاة، ثم صهرها بالنار الجاحمة حتى أحال الحديد كتلة تسد ما بين الجبلين، وكان ذلك أقصى ما يطيقه إنسان عليم بطبيعة المادة وطرق استخدامها.. وقد قام بكل ذلك دون أن يكلف أولئك المظلومين شيئاً سوى الجهد الذي أراد به استثارة نشاطهم وتدريبهم على مواجهة الأحداث بما يدرأ عنهم عدوان يأجوج ومأجوج.. وختم ذلك المجهود الجبار بردِّ الفضل كله إلى رحمة الله الذي مكَّنه من كل ذلك الخير.

وأنت عندما تنعم الفكر في تصرفات هذا الرجل لا تستطيع إلاَّ أن تدعو له بظهر الغيب، وأن تسأل الله أن يرزق المسلمين بل وأهل الأرض كلهم قادة من هذا الطراز، الذي يقف نفسه وخبرته على هداية الخلق وإرشادهم إلى استعمال طاقاتهم في كل ما يرضي خالقهم ويمتعهم بنعمة الأمن..

هذا إلى أن تلك الشخصية ليست هابطة علينا من وراء الفضاء الكوني، كشأن الأطباق الطائرة التي لا يعرف لها حتى اليوم أصل ولا فصل، بل هو إنسان من طينتنا نفسها يمكن تكرار مثل وجوده بين الشعوب المعاصرة، فيقودها إلى ساحة النور الذي حجبه عنها البغي، وانحراف حكامها عن طاعة الله.. فكانوا النموذج الواقعي لأولئك (الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم). وأمامنا من هذا

التكرار نماذج لا تزال تُرسل أشعتها من خلال تاريخنا الإسلامي بين الحين والآخر على الرغم من كل الجهود التي يبذلها المخرِّبون لإطفائها.. بينهم قادة شعوب ومنائر فكر ومجددو رسالة يردون القطعان الشاردة إلى كنف ربها. فكان فيهم أمثال الفاروق الذي منع نفسه الغذاء الضروري أسوة بالمحرومين من أمته الذين لا يجدون حاجتهم منه في عام الرمادة.. وها هو ذا يشرف على مجزرة المدينة ليراقب حركة السوق في المناسبة نفسها، فإذا رأى الرجل قد حصل حاجته من اللحم بالأمس منعه إيَّاه من يومه ذاك قائلاً دعه اليوم لأخيك...

وعلى مسمع الدنيا أعلن للجميع أنه لا يبعث عماله ليضربوا أبشار الناس ولكن ليعلِّموهم دينهم ويقيموا فيهم حكم الله، فمَنْ أصابه من أحدهم ظلم فليبلغه ليقتصَّ له منه ولو كان الأمير نفسه.

والفاروق حين يفعل ذلك إنما يجسِّم إحساسه بالتبعة الملقاة على عاتقه نحو الأمة التي استرعاه الله، فلا يؤثر نفسه وأهل بيته على أي منها، ولا يسمح لأحد أن يحيف على حق غيره بالتزويد من الإدخار حين تشح موارد الأرض، فتكون المساواة في نسبة العيش هي الكفيلة بتأمين العدالة بين الجميع..

وفي مثل ذلك الجو الإنساني لا يُستغرب أن تشيع الرحمة فتتحكم في تصرفات الأفراد والجماعات، حتى لنرى أقواماً تحدوهم المشاعر الأخوية إلى تقاسم أقواتهم بالسوية كيلا يُتخم أحد على حساب جوع الآخرين، كما صنع الأشعريون فاستوجبوا ثناء رسول الله، وكما نرى أمثلة ذلك في أخبار الصحابة الذين وُجِّهوا بأمر رسول الله ﷺ إلى سيف البحر في مهمة عسكرية فضاقت أرزاقهم عن استيعاب حاجاتهم اليومية، فما كان من قائدهم الأمين ـ أبي عبيدة بن الجراح ـ إلاَّ أن جمع كل ما لديهم من الأقوات في وعاء واحد، وجعل لكل فرد من المجموعة تمرة واحدة لكل يوم، حتى أنجدهم الله فأتاهم الفرج من البحر الذي دفع إليهم بداية هائلة الحجم كفتهم أياماً طوالاً...

ولا تحسبن هذه الروح قد طُفِئت فصارت ذكرى بعد أن كانت هي الحقيقة

الغالبة، ففي وسعك أن تبصر بعض مخلفاتها في كل مكان من وطن الإسلام، ودعني أقصّ عليك نبأ واحدة من هذه المآثر حدثني بها صديق قديم شهد بعض مآسي الحرب العالمية الثانية في لبنان والشام، حيث آكل بعض الأمهات أبناءهن، وبعض الأبناء أمهاتهم، واختار الله لكرامته محسناً ألزم نفسه لأهل بلده بطعام كثير يمده كل قسم أمام منزله، فما زال هذا ديدَنه حتى انجابت ظلمات الحرب وقد أتت على ما يملك.. ولكن سرعان ما جاءته المكافأة المكافِئة حين تلقى برقية من عميل له قديم في مصر يعرض عليه صفقة من السكر فأَقرَّها، وما هي سوى قليل من الأيام حتى استعاد من أرباحها ما أنفقه في سبيل الله، ولم يكن ذلك سوى واحدة من الكرامات التي أعدَّها الله للأبرار من عباده المتقين.

لو كانت شريعة الله هي الحاكمة

وقد يكون من حق السائل أيضاً أن يقول: ومع ذلك فإن النظام الديمقراطي يثبت هذه الضوابط بتسجيلها في القانون، فلم تُغفِل الدولة الإسلامية ذلك وتركت الأمر لهوى الحاكم يُعمله إذا شاء ويُغفله حين يريد؟..

والحق إن في ذلك القول لحقاً ينبغي أن يُتدارك في صلب القوانين التي تنظم عملية الحكم في الدستور الإسلامي، الذي يجب أن يتناول كل الأسباب التي من شأنها حماية العدالة واستئصال جذور الطغيان.. ولو دُوِّنت هذه الضوابط في العصور الماضية لكان محالاً أن يواجه القارىء مثل تلك الفجوات المؤسفة في تاريخ بعض كبار الشخصيات الإسلامية منذ العصر الأموي فما تلاه، حيث تؤكد لنا وقائعهم الكثير من الشذوذ عن متطلبات العدالة التي جسَّمها عهد الصدر الأول منذ فجر النبوة إلى نهاية عصر الراشدين، حتى لنرى الواحد من أولئك الكبار يصدر الأوامر بالقتل أو التعذيب دون حساب ولا رقيب لأنه واثق بأنه لا يُسأل عما يفعل.. وقد ألفت الرعية هذا الضرب من التصرف الرهيب حتى استقرَّ في أذهان الجميع أن ذلك قَدَر شرعي لا حق لأحد باعتراضه، وإلاَّ فبأي تفسير معقول يمكن أن نسوِّغ إقدام أبي العباس السفاح على إزهاق الأرواح في مأدبة دعا إليها العشرات

من الأمويين، فما برحت أن استحالت مجزرة ذهبت بهم جميعاً بمجرد إشارة ـ مرسومة ـ يطلقها شاعر مخبل في قوله الأفن:

لا يغرنَّك ما ترى من رجال إن تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا

ثم بأي تفسير تستطيع تسويغ عمل الرشيد حين جيء من اليمن بتسعة من كبار أهل البيت متهمين بمعارضة حكمه فما لبث أن أمر بقطف رؤوسهم جميعاً كما تُقطف الثمار الناضجة، حتى انتهى الأمر إلى الإمام الشافعي فقدر الله بحكمته تأخير أجله لاستكمال مهمته في تنسيق شريعته، فلما سأله الرشيد عن شأنه أجابه الشافعي بأنه ليس من القوم، وأن كل شغله في خدمة العلم، وكان في مجلس الرشيد ساعة المجزرة الإمام محمد بن الحسن فجعله الرشيد وديعة عنده ريثما ينظر في أمره. وبذلك أتمَّ الله نعمته على المسلمين باستبقاء هذا الإمام العظيم(١).

وإني لأعلم من العلماء مَنْ تردد في قبول هذا الخبر، ولكني أعرضه لاحتمال وقوعه بل وقوع أهول منه في تلك العهود التي أثبتت في أذهان الكافة أن لولِّي الأمر كل الحق في إجراء ما يراه ضرورياً لحماية السلطة دون الرجوع إلى القضاء...

شريعة الله أولى الضحايا

وحول مذبحة البرامكة بأمر الرشيد كُتب الكثير من الحق والباطل، ومهما تكن دواعيها السياسية فليس بوسع مسلم يعرف قيمة الدماء في دين الله أن يتجاهل هول تلك المأساة لأن الإسلام لا يبيح لولي الأمر إجراء حكم القتل في أي إنسان مهما يكن حجم جنايته إِلاَّ أن تثبت لدى القضاء الذي له وحده حق تقدير الوقائع وإصدار الحكم الشرعي، لأن كل متهم بريء حتى تثبت إدانته، فكيف بمذبحة

(١) انظر كتاب (الأئمة الأربعة) ص ١٢٥ للدكتور الشرباصي.

جماعية لم ينظر فيها القضاء ولم يصدر فيها حكماً، بل كانت استجابة لدفعة الغضب أو شهوة الانتقام!!

ويذكِّرنا المأزق الرهيب الذي واجهه الإمام الشافعي في مجلس الرشيد بمحنة صديقه الإمام أحمد بن حنبل على يد ابنه المعتصم وأفانين العذاب الذي صبّ على ذلك الجسد النحيل الذي عَرَقَه السجود لغير ذنب سوى رفضه لتمحلات المعتزلي بن أبي داود في قضية القول بخلق القرآن، فما تزال السياط تنهش من جسد الإمام بأمر المعتصم حتى يعجز الجلاد عن مواصلة بلائه، فيخطف الخليفة السوط من يده ويقوم هو لإتمام المهمة، بتلك اليد التي عرفت بالشدة الفائقة حتى لترفع الأربعمائة من الأرطال البغدادية.. فإذا أخذه التعب أقبل على فريسته الإمام المظلوم يدعوه لمتابعة المعتزلة ليرفع عنه البلاء، فلا يزيد على القول «إئتوني بآية أو حديث يثبت ما تذهبون إليه»، فيعود لاستئناف عملية التعذيب..

ويستمر البلاء على هذا النحو طوال العصور حتى أيام الإنقلاب غير الأخير والذي قذف بمصر كلها في أتون العذاب، الذي استورد فنونه الرهيبة من مصانع الشيوعية المخضبة بدماء الأبرياء.. فلم يُعفِ من جحيمه رجلاً أو امرأة ممَّنْ يتوهم فيهم عزة الإسلام، حتى ليأمر فتُساق القرية المصرية بنسائها ورجالها لتلقى أغرب ما أحدثه الشيطان من أفانين الإذلال والهوان..

ولو شئنا المضي في عرض هذه المآسي لَكَلَّ القلم وفني الورق، وما غرضنا مجرد التشهير ولكنه الأسف اللاذع لفقدان الوازع الرادع لأمثال هذه الممارسات التي كان أولى ضحاياها شريعة الله، التي أنزلها سبحانه لمنع البغي وكفِّ العدوان، فتغاضى المسؤولون الأولون عن إغفالها وإعراض أولياء الأمر عنها، حتى كانت أهواؤهم هي التي تحكم فتسفك الدماء. وتُسلب الأموال، وتُذل عمالقة الأبطال، حتى لتقذف بفاتح الأندلس - موسى بن نصير - إلى آشد آنواع النكال والحرمان...

الثغرة التي لم تُسَد

أجل إن في تاريخنا لفجوات لا قدرة لنا على ترميمها، ولا مصلحة لنا في حجبها عن الأبصار، بل الواجب أن نتعقبها بالكشف والمناقشة لتتاح لنا معالجتها باستدراك ما فات.

لقد أغفل الكثيرون من باحثينا القدامى بيان موقف الشريعة المطهرة من ولي الأمر ومدى صلاحيته في السياسة الحُكمية من حيث الإطلاق والتقييد، حتى صار بنا الأمر إلى ما يشبه تأليه السلطان، وحتى لنجد من هؤلاء السادة مَنْ يرفع منزلة حمار الحاكم على قيمة الإنسان، الذي ميزه الخالق الحكيم بالعقل والتكريم على سائر المخلوقات الأرضية من الأحياء والحيوان.

وإنه لمن المؤسف أن تسبق الديمقراطية اليونانية الوثنية أنظمتنا الإلهية إلى تنظيم الرقابة المُلزِمة على تصرفات الحاكم صيانة له من الإنزلاق إلى المهاوي، ثم لا نجد في تراثنا العظيم ما يسد هذه الثغرة من التنظيمات التي تنطوي شريعة الله على خير منها وأكمل!! وكأني بأسلافنا البررة قد نظروا إلى القضية من زاوية العقيدة فرأوا أن ولي أمر المسلمين لا يكون إِلاَّ من صميم المؤمنين المشبعين بموحياتها، ونسوا أن الإنسان أياً كان لا يؤتمن على مصير نفسه علاوة على مصائر الآخرين، إِلاَّ عن طريقين أولهما رقابة الإيمان التي تذكِّره دائماً بالمسؤولية عن كل تصرفاته أمام خالقه، وبخاصة نحو مَنْ ولاَّه الله أمرهم، والثاني رقابة المجتمع بوساطة الضوابط التي يفرضها على تلك التصرفات فلا تسمح له بتجاوز حدودها فإذا أمِنَ هذه الرقابة تعرَّض للإنحراف عن منهج الحق، وتبع ذلك تراخي عرى الرقابة الإيمانية، لأن التجارب أثبتت سداد الحكمة القائلة (إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن) ونحن لا نزال على صلة بما أسلفناه في البحث السابق من قول الفاروق لذلك النصيح حين أنذره بلسان المجتمع المسلم أن: «لو رأينا فيك إعوجاجاً لقومناه بسيوفنا»، فكان تعقيب الفاروق عليه: «الحمد ﷺ الذي أرانا في هذه الأمة مَنْ يقوِّم عمر بسيفه».

وحسبنا في ذلك قول ربنا في طبيعة البشر:

إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾

[العلق: ٦ ـ ٧]

وبيان حكمته في توزيع الرزق:

﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ

[الشورى: ٢٧]

وما أخالني متجاوزاً نطاق الحقيقة عندما أتصور أن كل الفتن والإنتفاضات التي اعترت مسيرتنا التاريخية لم تكن سوى بعض عواقب الزيغ الذي شطَّ بولاة الأمر عن المنهج النبوي الصحيح، فضيعوا الأمانة وأحلوا قومهم دار البوار. فكيف بهم يوم يُبعثون للحساب بين يدي الله، وقد كُشفت الأستار عن الأبصار فشاهدوا عواقب جناياتهم على أنفسهم وعلى شعوبهم بتجاهلهم تحذير نبيهم في قوله عن ذلك المصير المبين:

«مَنْ استرعاه الله رعية لم يحطها بنصحٍ إلا حرّم الله عليه الجنة»

[رواه البخاري ومسلم]

وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾

[الفرقان: ٢٧]

رجل الدولة في المنظور الإسلامي

وفي ظل هذه التناقضات المتباينة تثب إلى ذاكرتي خطوط مقال كتبته ذات يوم جواباً على أسئلة وافتني من أحد الصحفيين. وقد رأيت أن أختم به هذا الفصل لما بينهما من التناسب.

يقول السائل العزيز:

«من هو رجل الدولة.. وما خصائصه في منظور الإسلام»؟...

وكانت الإجابة على النحو التالي:

تسألني يا صديقي ما أبرز الخصائص التي يجب أن تميز رجل الدولة؟..

تسألني هذا في زمن طاشت فيه الموازين حتى تكاد تقصر البطولة على اللاعب الذي يحذق توجيه الكرة بقدمه أو برأسه، وتوشك أن تحصر لقب الكواكب في أهل الغواية من المطربين والرقاصين.. ولعلك تذكر أن مغنية وافاها الأجل فشيعها مئات الألوف، وآخر من زملائها انتحر لموته عدد من البشر.. وغير بعيد من تينك المناسبتين قضى نحبه أحد القادة الذين حطموا خط بارليف فلم يشهد جنازته سوى عدد قليل من المودعين!..

أما على مستوى المقامات العليا فالمعيار أشد اهتزازاً، إذ كانت هذه القمم مقصورة في الأصل على العمالقة الذين تركوا بصمات على وجه التاريخ، وسجلوا لأممهم المآثر التي تجدد طاقاتها كلما قاربت الخمود، فلا يلج ساحة العظمة إلاّ أولو العزم من الذين أضافوا إلى سجل الحضارات ما يخلد ذكرياتهم من شوامخ الفتوح وروائع الإبداعات التي كان لها آثرها في مسيرة البشرية..

على أن الإنحرافات الطارئة على مفهوم العظمة في بعض الشعوب التي ألفت التخلف قد قلبت تصوراتها مع الزمن، حتى صارت العظمة في نظرها وقفاً على اللعابين الذين يحسنون تسخير الغوغاء لتنظيم مواكب الهتاف و«التعييش» وتحضير التجمعات التي لا تفرق بين الناقة والبعير...

وبقليل من التأمل في الواقع الراهن لهذه الشعوب تتبين ما لا يحصى من تلك النماذج التي كشفت الأيام زيوفها، فما هي إلا أن مسها تيار الحرية حتى اندفعت لتحطيم أصنامها، فإذا هي تتدحرج الواحد تلو الآخر دون أن يعتبر اللاحق بالسابق.. وذلك هو المصير الطبيعي لكل الأقزام الذين نفختهم الأيدي الخفية، فما زالوا يرتفعون في منظور الغوغاء في التعبير القرآني المعجز الذي نطالعه في قوله تعالى من آخر سورة (آل عمران).

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾

[آل عمران: ١٩٦ ـ ١٩٧]

إن هؤلاء المغفلين يتقلبون في أوهام خادعة من المتاع الذي لا بقاء له، وهو ـ مهما تطاول أمده ـ قليل، وسيعقبه السقوط القريب في الدنيا، ثم العذاب المقيم الخالد في الآخرة. .

ذلك يا صديقي مثل «القادة» المفروضين على شعوبهم بسلطان الحديد والنار والتزوير، فلا بقاء لهم إلا باستمرار القدرة على الإرهاب، حتى إذا استنفدوا هذه القدرة كان لزاماً عليهم أن يواجهوا مصيرهم الموعود. أما القادة الأصلاء فانظروا إلى مثلهم في الآية التالية.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾

[آل عمران: ١٩٨]

وفي وصفهم بالتقوى تكثيف معجز لكل الفضائل التي تميز رجل الدولة الذي يملؤه الشعور بعظم المسؤولية عن رعيته أمام الله. . وقد أرانا الله مصير هذا النوع من صالحي الحكام في كنف رحمته يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، دون أن يشير إلى حسن جزائهم في العاجلة، لأن الدنيا كلها لا تعدل عند الله جناح بعوضة. . وحسبك يا صديقي من جلال تلك العواقب تصوير رسول الله صلوات الله وسلامه عليه لأئمة الهدى وأضدادهم من أئمة الجور في هذا الحديث الذي أخرجه مسلم:

«خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتُصلون عليهم ويُصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم. .». .

وأنت حين تنعم الفكر في الشطر الأول من الحديث الشريف فستتبين الصورة المثلى لرجل الدولة في مقياس الإسلام. إنه «الإمام» الذي بلغ من إخلاص الخدمة

لرعيته حدَّ التمازج الروحي الذي يجمع بينهما على الحب، ويدفع كلاً من الفريقين إلى الدعاء للآخر في خلواته مع الله.

فأين من هؤلاء الأئمة الصالحين أولئك الأشرار الذين خسروا حب شعوبهم فلا صلة بينهم إلَّا البغضاء التي تغلي بها قلوب كل من الجانبين على الآخر، فكل منهم يخشى صاحبه، ولا يتوقع منه سوى الشر، ولا يضمر له غير اللعن يلاحقه به كلما غاب عن بصره وأمِنَ جواسيسه..

وبعد.. فما أحسبك يا صديقي إلَّا راضياً بما سمعت من وصف للرجل الذي يصلح لقيادة شعبه إلى العزة والسؤدد، والآخر الذي لا حظ له في نفوس محكوميه إلَّا الكراهية والبغضاء، لأنه لم يمنحهم من الرعاية الأبوية ما يستوجب به حبهم، وأنت تعلم يا صديقي أن الحب هو الشيء الوحيد الذي لا يعرفه الطواغيت إذْ لا سبيل إليه عن طريق الإرهاب والتزوير...

والآن.. هل تعرف أحداً من هؤلاء الأشقياء؟!!!

علماء الإسلام في مواجهة أعدائه

لم يكن ثمة ما يذكِّرني به، ومع ذلك لم يكد صوته يمسُّ مسمعي من خلال سماعة الهاتف حتى هتفت: الشيخ محمود!!.. وللحال جاءني الجواب بالإيجاب. ودون أن أسأله أخذ يقص عليَّ نبأ وجوده..

إنه يكلمني من فندق «أوبروي» في المدينة حيث نزل مع كوكبة من زملائه الأزهريين وغير الأزهريين.

وأتممت الحديث. إنكم إذن في وفود المؤتمر التي تستضيفها رابطة العالم الإسلامي لبحث قضية الفتنة التي أوقدها الشيطان في منطقة الخليج؟..

قال تماماً.. وسنعود غداً إلى البلد الحرام، ومن ثم إلى أهلينا إن شاء الله..

واتفقنا على التلاقي في الفندق نفسه وذلك عقيب صلاة العشاء . .

ورجعت إلى نفسي أدير معها حديث المؤتمر، وموضوع الفتنة، والرواجف التي جرَّتها على المنطقة بل على العالم كله حتى الآن، ثم ما سيعقب ذلك من أحداث لا يعلم مداها ولا أبعادها إلا الله . .

ووجدتني أقف من هذا الركام الهائل على جُزَيئة من متعلقاته لا تعدو موقف علماء الإسلام من قضايا العالم الإسلامي بعامة، ومن قضية الخليج الراهنة بخاصة . . فتتداعى في خيالي ذكريات الماضي على تفاوت أطيافه، فتتراءى لي خطوط الأحداث التي استوعبها تاريخ هذه الأمة، فأشعر بروح من السعادة يغمرني وأنا أطلُّ على مراحله الأولى، حيث أخذت الطاقات الإسلامية سبيلها إلى التعاون على البرِّ والتقوى كما أمر الله ورسوله، ثم لا يلبث المشهد أن يتغير فتضطرب المسيرة بين صعود وهبوط حتى تحقق في هذا التاريخ ما حذَّر منه الله بقوله:

وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ

[الأنفال: ٤٦]

إذْ حلَّ النزاع محلّ الألفة، والتمزق مكان الوحدة، والتعادي موضع الأخوة، فسقطت الخلافة وهي رمز العزة والقوة، وسرعان ما دُمِّر السد الذي ينتظم الطاقات، وتدفقت زحوف الأعداء المتربصين بالإسلام الدوائر، فإذا الأمة أمم، وإذا الوحدة مِزَق، وعلى كل رقعة من دار الإسلام حزب يؤثر التعاون مع عصائب الكفر على التلاقي مع جاره من أهل الإيمان ولو أدَّى ذلك إلى تدميره وأخيه الأدنى . . وفي ظل هذا التمزق شَرَعَت قلاع الإسلام تتساقط في قبضة العدو الواحدة تلو الأخرى من أقصى الأندلس إلى أطراف آسيا . . وما أحداث اليوم سوى صورة مصغرة من ذلك الشريط الطويل العريض من مسلسل المآسي التي يعانيها العالم الإسلامي في غياب الوعي الروحي، الذي ضلّ سبيله القويم منذ القارعة الأولى، التي نزلت بثالث الراشدين في قلب مهبط الوحي وبجوار المثوى المبارك الذي يضم إمام المرسلين .

ولا جرم أن في تجمع مئات المسلمين من رجال العلم والسياسة في كنف الكعبة المشرفة، وللنظر في موضوع النكبة الجديدة، لظاهرةً من حقها أن تبعث الأمل بمزيد من التنبيه للواقع الرهيب الذي يحيط بهذه المنطقة الحساسة من عالم الإسلام..

إن هنا طلائع كارثة عالمية بدأت حول رقعة محدودة من أرض الإسلام، ثم مضت في تفاقمها وتضخمها حتى توشك أن تبلغ مرحلة الإنفجار، الذي يُتوقع أن لا يبقي ولا يذر... فأقلُّ ما يجب على قادة الفكر في ديار المسلمين أن يتنادوا لانتزاع الفتيل قبل فوات الأوان فلا يجدي يومئذ صراخ، ولا يبقى مجال لاجتماع ولا مَنْ يستمع لاحتجاج.

ولكن.. ما دور أولي العلم الشرعي في هذا المأزق الرهيب؟!! وأين مكان أصواتهم في هذا الخضم الذي تختلط فيه الأصوات فلا يكاد السمع يميز بعضها عن بعض!!

ونحن عندما نتفقد موقف العلماء في هذا المأزق لا نتجاوز حدود البديهيات، لأن المجتمع المسلم لا يزال، على الرغم من كل الأعاصير التي عصفت به من الشرق أو الغرب، مشدوداً إلى أفكارهم ينتظر منهم الكلمة الفاصلة في كل خطب يعتريه، يقينا منه بأنهم الأمناء على شريعة الله والناطقون بلسانها، فلا رأي لأحد بعد قولهم المبني على أدلّة الوحي..

ولا غرابة في ذلك فالعلماء كانوا وسيبقون ورثة الأنبياء يبلغون الناس رسالة ربهم وسنة نبيهم، ويقيمون لهم المعالم التي تهديهم سبيل السداد والرشاد، ومن أجل ذلك استحقوا توقيرهم وتقديرهم على مرِّ القرون، وعرف العلماء أهمية هذه العلاقة بينهم وبين جماهير الأمة فحرصوا على صيانتها من كل الشوائب، بالتزام الحق الذي سيبذلون وسعهم للوصول إليه، ومن هنا كان أئمة المسلمين هم قمم البطولات الإنسانية قاطبة، بهم يُقتدى وبسيرتهم بعد رسول الله يُهتدى. ومن فضل الله على هذه الأمة أنه حفظ لها هذا الإمتياز العالي فلم يخلُ تاريخها قط من

النماذج التي حافظت على أمانة النبوة فحفظت لها طابعها الذي كانت به خير أمة أخرجت للناس، وبه كانت شاهد الله على خلقه، حتى تقوم الساعة... وما أحمد بن حنبل وإخوانه المعاصرون، وما ابن تيمية والعز بن عبد السلام، وما ولي الله الدهلوي حتى الشيخ محمد بن عبد الوهاب ومن تلاهم من تلاميذ المدرسة النبوية، إلى حسن البنا وعبد القادر عودة وسيد قطب ومحمد الخضر الحسين، ومحمد حسنين المخلوف، وسعيد النورسي، وبقية السلسلة النورانية، وما هؤلاء وإخوانهم سوى منارات تتبدد بأضوائها الربانية أسداف الظلام، الذي عمَّ العالم البشري وحاولَ طمس معالم الحياة في ديار المسلمين.. وما الصحوة التي ننعم في ظلالها إلاَّ بعض الآثار من جهادهم وصمودهم في الذود عن دين الله ونشر الدعوة الراشدة إلى منهجه الأقوم..

لقد أدرك أعداء الإسلام مكانة هؤلاء العلماء في الأوساط الإسلامية وأثرهم البعيد في تماسكهم واعتصامهم بتعاليم الوحي، فأجمعوا على تخريب هذا التلاحم بينهم وبين علمائهم، فلم يجدوا أنجح لهم في هذه المعركة من تهوين أمر العلماء وتشويه سمعتهم، ووجدوا سندهم في مناهج التعليم الغربية القائمة على الشك في كل شيء، وعزل الدين عن ساحة الحياة، ثم وسائل الإعلام اليومية من الصحف الهدامة وما وَلِيَها من محدثات الإعلام مقروءاً ومسموعاً ومنظوراً.. فما انفكوا حتى استطاعوا أن يخدروا مشاعر الكثير من الجيل الجديد، فيمرروا إليهم كل أطروحاتهم الشيطانية وهم آمنون من ردود الفعل، حتى لم يتورعوا عن الإساءة إلى مقام النبوة بما نشره سفهاؤهم في واحدة من كبريات الصحف الرسمية من رسوم هزلية تريك تسع دجاجات حول ديك على أنه (صاحب الدجاجات التسع) ثم تلا ذلك هجمات مماثلة في إقليم عربي آخر، حيث نشر بعض الملاحدة في جريدة رسمية قولهم بأن على المسلمين أن يحيلوا الأنبياء إلى متاحف التاريخ، ويستبدلوا بعبادتهم التقليدية عبادة زعيم الحزب الذي ينتمون إليه.!

وكانت تلك مقدمات سرعان ما نفذوا منها إلى السخرية بعلماء الشريعة، حتى لتتخذ إحدى صحفهم الإبليسية صورة رمزية لشيخ من كبار علماء الإسلام

المعاصرين باسم الشيخ متلوف تعرضه في أشنع المشاهد لتوقع في أخلاد العامة أن الإسلام ليس أكثر من أساطير تستغل الغوغاء، وليس فقهاؤه سوى زمرة من الدجالين!...

وتتمة لهذه التمثيلية العلمانية والماركسية تقوم بعض الصحف الرسمية في أحد الأقاليم العربية بتقديم زمرة من المسخرين لضرب الإسلام على أنهم من كبار علماء الإسلام وأصحاب الفضيلة، يهاجمون الإسلام باسم الإسلام فيعبثون بالنصوص ويحرِّفون الكَلِمَ عن مواضعه، ليرسخوا أسس الشك بكل ما هو ديني، وهم واثقون أنهم محميون بسلطان الحكم من كل ما يعرِّضهم للمسؤولية!.

ولقد كان لهذا الجو المسموم أثره في غير واحد من أهل العلم الشرعي، إِذْ وجدوا أنفسهم محاصرين بالمرهبات والمغريات من كل جانب، على حين يرون أفواج المؤمنين من الشيوخ والشباب يُساقون إلى أقبية التعذيب صباح مساء دون ما ذنب سوى أن يقولوا: ربنا الله.. فلم يجدوا سبيلاً لمواجهة العاصفة، فإذا هم فريقان: مُصِرٌّ على قولة الحق ولكن في حكمة الأذكياء الذين عجزوا عن تسلق الجبل فلجأوا إلى الدوران حوله، ثم فريق آخر رأى الأخذ برخصة ﴿**إلا من كفر وقلبه مطمئن بالإيمان**﴾!..

ولعمر الحق أن كلاً من الفريقين معذور في موقفه حين يُنظر إلى القضية من زاوية المعاناة الشخصية، ولكن للقضية جانباً آخر لا يسع المفكر المؤمن أن يتجاهله.. إنه جانب الإسلام الذي لا بد من التأمل في محصوله من كلا الموقفين، وهذا ما يشدنا إلى التساؤل: لماذا تحمل الإمام أحمد أثقال العذاب التي كان أخفها تكسير أضلاعه.. وهو يعلم أن كلمة واحدة يقولها في سمع المعتصم تخرجه سالماً غانماً، وترفع عن جسده النحيل سياط غلاظ الجلادين!.. ألم يكن يعلم أن له فسحة في الرخصة التي تبيح للمعذَّب حتى الكفر... للخلاص من البلاء الهائل ما دام قلبه مطمئناً بالإيمان!. فلِمَ آثر الثبات على كلمة الحق حتى أشرف على الموت!!

إنه الشعور بالمسؤولية الذي ملأه اليقين أن استسلامه للباطل مؤدٍ إلى خلخلة المجتمع الإسلامي، الذي تتعلق أبصاره بموقفه وإخوانه من التجربة الرهيبة، فالقضية إذن ليست قضية شخص يموت تحت العذاب أو يُفرّج عنه بغير حساب، ولكنها قضية دين هو خاتم رسالات الله إلى الأرض فهو جدير بأن تتساقط تحت رايته مواكب الشهداء من أولي العزم إلى أن يأتي الله بالفرج المنشود..

ونحن لا نستطيع أن نتصور مدى القارعة التي أوشكت أن تضرب الإسلام كله لو أخلدت هذه الصفوة إلى طلب الراحة وإيثار السلامة على الوفاء بعهد الله...

إنها الراجفة تتبعها الرادفة

لقد تفجرت براكين الحقد اليهودي والصليبي على الإسلام في تركيا الكمالية، فكانت الهجمة صاعقة تستهدف القضاء على كل مقوماته بأسرع وقت ممكن، فاجتاحت الخلافة، وألغت الحرف العربي، وعلّقت كبار علمائه على المشانق. وقد تصور منفذو التخطيط الماسوني أنهم بذلك يقطعون المجتمع التركي عن عالم الإسلام نهائياً فلا يبقى لأي منهما صلة بالآخر بعد اليوم.. وكاد المخطط يبلغ غايته المقررة لولا أن قيّض الله لدينه بقية من ورثاء النبوة تقدموا لتدارك رايته، فاتخذوا من الأقبية الخفية مدارس لتحفيظ القرآن ولغرس معاني الإسلام معرِّضين أنفسهم لكل ضروب التعذيب والآلام. وحَمَلَ أمانة الكلمة الجاهرة ذلك الكردي العظيم من أحفاد صلاح الدين الشيخ سعيد النورسي، الذي أعلنها حرباً شعواء بوجه الطاغوت الكمالي، فلم يدَّخر وسعاً في تبليغ رسالة الله عن طريق المواجهة الشخصية لأتاتورك وإخوانه فلما ضاقوا بصراحته لجأوا إلى إعتقاله فلجأ هو إلى تسريب رسائله المضيئة من وراء ظلمات السجون.. وها نحن أولاء نشهد اليوم آثار هذه المواقف الهادية تحركاً إسلامياً يهزُّ الجمهورية التركية من أدناها إلى أقصاها، فلا نتمالك أن نتساءل: لو غلب اليأس هؤلاء الأبطال فآثروا سلامة رؤوسهم على نصرة دينهم فماذا يُتوقع أن تكون عاقبة ذلك!

ومعلوم أن الهجمة الكمالية على الإسلام في تركيا وإقدامها على التنكيل بأساطين علمائه هي التي دفعت المنحرفين من حكام المسلمين إلى سلوك طريقتهم في إسكات الصوت الإسلامي، بتسليط السفهاء على علماء الدين للنيل منهم والتجرئة عليهم، حتى بلغ بهم الأمر إلى ما أسلفنا من التهجم على رموز العلماء والتطاول على مقام النبوة والمقدسات الإسلامية في الصحف الرسمية.. وفي هذا الجو الحالك لم يكن مستغرباً أن نرى مثل العلامة الشيخ محمد الأودن، يُنتزع من عمله في اللجنة المكلفة صياغة الدستور ليحشر مع عدد من الكلاب المفترسة في المعتقل الذي أغلق عليه. ونرى المحاكم العرفية تُعقَد لإصدار حكم الإعدام على كبار دعاة الإسلام وعلمائه عبد القادر عودة وسيد قطب وإخوانهما من رجال الإسلام.. ثم ما تلا هذه الفجائع من إبادة الأعلَينَ من شيوخ مدينة عريقة شوهدوا لآخر مرة في شاحنة مكشوفة ذهبت بهم إلى ما وراء المجهول...

أجل.. إنها الراجفة تتبعها الرادفة.. ومن حق السادة العلماء أن يوجسوا في أنفسهم منها كما أوجس من قبل نبي الله موسى وهو يرى إلى عصيّ السحرة وحبالهم تتحرك لالتهام ما يواجهها.. ولكن الهول مهما تفاقم ليس من شأنه أن يخرس صوت الحقيقة إلى الأبد، فلا بد للإيمان أن يدفع برجال من أهل العلم ليحتلوا مكانهم المرموق مع حمزة سيد الشهداء، إذْ بهؤلاء وحدهم تُصان جذوة الحق من الإنطفاء، وتقوم حجة الله على عبيد الأهواء.

وأول ما يتبادر إلى الأذهان بإزاء هذه النازلة الدهماء التي تلقي بجرانها اليوم على منطقة الخليج فتزلزل أرض العرب، وتنداح ظلماتها إلى أقاصي ربوع الإسلام، وتنذر العالم بزعازع من الحروب التي تحرق الأخضر واليابس وتذهب بالمجرم والبريء.

في مثل هذه الظلمة تتطلع العيون إلى بصيص من النور، مهما بلغ من الضآلة، يحرك في القلوب موات الأمل فلا تلقى له أثراً إلا في كنف الدين الذي حفظه الله من الخلل، وثبت في وجه الأعاصير التي طالما رَجَفَت وتبَّرت..

وإذن ففي كنف علماء هذا الدين يكمن الفرج المنشود، وإلى أصواتهم الجريئة الحنون تصيخ الأسماع الذاهلة لتتلقى كلمة الوحي، الذي لا ملاذ للمسلم سواه كلما اشتدَّ الظلام وتراكمت الخطوب الجسام. . .

هؤلاء العلماء لا يزالون على الرغم من كل المفارقات موضع الثقة لدى جماهير المسلمين، إِذْ لديهم وحدهم مفاتيح الأحكام الإلهية، التي تفصل بين الحق والباطل، فما إن يرسلون كلمة الشريعة المعصومة حتى تستقر القلوب على النهج الأقوم، وتجتمع إرادة الأمة على نصرة الحق، وعلى أساس ذلك تتميز المواقف، فمحقٌّ ومبطلٌ، ولن ينحاز إلى مبطل إِلَّا مثله، وحسب هذا من الخسار يومئذ أَلَّا يجد نصيراً من غير المنافقين الملفوفين بفضائحهم!

ولكن. . . كيف؟ وأين؟ ومتى؟

كيف يتجمع هؤلاء على وحدة الكلمة. . . وهم موزعون على كل أقاليم المسلمين، ولكل إقليم ظروفه وملابساته التي لا تسمح لهم بحرية الحركة إلا في حدود المصلحة السياسية!.

وأين المكان الذي يصلح لاجتماعهم في معزل عن سلطان الساسة الذي يصورهم المعري بقوله:

يسوسون الأمور بغير عقل فينفذ أمرهم ويقال ساسه

وإذا ما توافرت الأسباب للتوحيد والتجميع فلا بد من تحديد زمن الإجتماع لإصدار مقرراتهم في الأحداث الطارئة. . أيُترك للحدث أن يتطور بعيداً عن رؤية العلماء فلا يملكوا بإزائه سوى النظر في جدول محدد لا يتسع لبحث أو مناقشة، بل لا مجال فيه لغير الموافقة الموجهة. . أم يستبقون الزمن فيقدموا على معالجة الخطوب قبل استحكامها!؟. . وهل يمكن حدوث مثل هذه المعالجة بروح جماعية وهم غير مجتمعين!!

أبداً لا يمكن ذلك. وعلى هذا فستظل كلمة العلماء متفرقة بحيث يضطرون

لإصدار الفتاوى فرادى أو على مستوى إقليمي تتحكم فيه ظروف البيئة الخاصة. وهو وضع خطير يعرِّض مكانة العلماء للتخلخل، وبخاصة إذا تضاربت هذه الفتاوى في الحدث العارض حتى تفقد وزنها في المجتمع، وهو في أمسِّ الحاجة إلى «أهل العلم المسؤولين عن تنوير أذهان المسلمين ووصلهم بالدين وتوحيد فتاواهم في أموره»(١).

بالأمس السابق لعصر الفضاء والمواصلات الإلكترونية كان من حق كل مجتهد أو مدرسة فقهية أن ينفردوا بإصدار ما يرونه من قرارات لمصلحة المسلمين، ثم تنصب هذه القرارات في الموسوعات الفقهية التي تتيح للمجتهدين الإفادة منها عند الحاجة.. أما اليوم فلا سبيل إلى مثل ذلك الإنفراد، لاختلاف الظروف، ولإمكان التواصل بين أصحاب الفتاوى، وبذلك تحولت من كونها عملاً فردياً إلى أن تكون نوعاً من الأعمال الجماعية المبنية على البحث والمناقشة واستعراض الأدلة، حتى يستقر الرأي على الوجه الأكمل، أو الأقرب إلى الكمال. وحين يسلك أولو العلم هذا النهج الجماعي في مواجهة الأحداث المصيرية فلن يجد الناس مثل هذا التفاوت بين الفتاوى الصادرة في ظل التباينات السياسية..

ومن هنا لا مندوحة من التذكير بالفرق بين المؤتمرات المعهودة كمؤتمر الفقه الإسلامي، ومجلس المساجد، ومنظمات الدعوة وما إليها، والمؤتمر الذي نحن بصدده من حيث أهمية كل من النوعين بالنسبة إلى حاجة الأمة، فإذا كان لتلك التجمعات أهدافها التنظيمية والثقافية، فلمؤتمر كبار علمائنا على مستوى العالم الإسلامي خصوصيته المتصلة بقضايا المصير التي تستدعيها الطوارىء الكبيرة. وهذا ما يجعل الإختلاف النظري بين المؤتمرين العاديين سائغاً ومعقولاً يمكن تداركه بإعادة النظر في مواضع الإختلاف ولو على صفحات الصحف، على حين تكون وحدة الكلمة والإجماع على القرار أمراً أساسياً وحاسماً في قضايا

---

(١) من توجيهات فضيلة شيخ الأزهر في المؤتمر الإسلامي المعقود في مكة المكرمة. انظر (أخبار العالم الإسلامي ٢٨/ ٢/ ١٤١١هـ).

المصير، بحيث تكون كل معارضة للقرار شغباً مرفوضاً يعتبر صاحبه خارج نطاق البحث. ذلك أن المناسبة أضيق من أن تتسع للخلاف النظري، ولأن الأخطار القائمة تفرض على المتباحثين أن يخرجوا على الدنيا برأي واحد وصوت واحد ودعوة ملزمة لا يشذُّ عنها إلَّا مَنْ اتبع هواه وآثر الإنسلاخ عن الجماعة.

ولا جرم أن موقفاً كهذا يصير إليه أولو الأمر من العلماء، وفي مثل الظروف العصيبة التي يواجهها المسلمون اليوم في منطقة الخليج، سيكون غرة في تاريخ الإسلام الحديث، يدين له بالفضل كل مؤمن يهمه أمر أمته.

ودعني أسترسل قليلاً مع الخيال السعيد لأريَ نفسي أن قادة المسلمين هؤلاء لن يكتفوا يومئذ ببيانهم الشرعي، القاضي بإلقاء المتخاصمين أسلحتهم، والتحاكم إلى شريعة الله، معلنين حكم الله الذي لا يرد في قوله الحاسم:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾

[النساء: ٦٥]

وإني لأتصورهم يزحفون للقيام بين الصفين منادين بأنهم لن يبرحوا رباطهم حتى يظلل السلام تلك المنطقة، ويعانق كل من المتحفزين للموت أخاه نادماً راضياً بما قررته شريعة الله، فيطفئون بذلك جحيم الفتنة التي أوقدها أعداء الله، كما حدث للسلف الصالح من المهاجرين والأنصار يوم تسلل إليهم المفسدون من ثعالب يهود، فلم يَدَعوهم حتى عمدوا إلى السلاح ليقضي بعضهم على بعض.. ولكن ما إنْ أطل عليهم وجه رسول الله حتى ثابوا إلى رشدهم وأقبل بعضهم على بعض باكين مستغفرين!

وهؤلاء السادة حين يقدمون على تحقيق ذلك الحلم السعيد لن يعدوا حدود المسؤولية التي ألقاها الله على عاتق كل المؤمنين كلاً في حدود طاقته، عملاً بقوله تعالى:

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ﴾

[الحجرات : ٩]

ولئن أعوز العلماءَ هناك مادة القتال الفعلي فإن في بيانهم أحكام الشريعة المطهرة ما يفوق عمل القذائف والصواريخ إن شاء الله . .

الفصل السادس:

القضية الكردية في ميزان الإسلام

قيمة الإنسان في ميزان الحضارات

عناصر الحضارة أكثر من أن تُحصَر في ألفاظ يسيرة، والقاسم المشترك بينها، على اختلاف وتفاوت عناصرها هو الإنسان. وعلى مدى اهتمامها به تتعين نوعيتها في ميزان القيم.

وعلى هذا الأساس نستطيع القول بأن الحضارة البشرية لا تعدو، من حيث نظرها إلى الإنسان حتى الآن، إحدى صور ثلاث، تلك التي تعتبر الفرد البشري أحد الأنواع الحيوانية لا سلطان عليه لشيء سوى غرائزه الأساسية التي له أن يوفِّر لها كل ما تدعو إليه من ألوان المتع، وكما تنتظم الحيوانات في مجمعات نوعية تحفظ بها وجودها من التلف، في خصومات غير محدودة، هكذا إنتهى أمر النوع البشري إلى التجمع في تقسيمات عرقية ثم لونية، ثم لسانية، فكانت القبائل والعشائر التي تحولت آخيرا إلى مختلف العصبيات القومية. . التي تعيشها الإنسانية هذه الأيام. وقد ساق التطور الطبيعي هذه القطعان إلى أشكال من الإفرازات التي تستهدف التخفيف من فوضى الغرائز فكان هناك ضَرْبِ من الحضارة المعتدلة تنظِّم القطعان الطليقة في تجمع مركزي يقيد حركتها وسكناتها في حدود مصلحة السلطة الأقوى. . وقد قُدِّر لبشرية اليوم أن يتقاسمها هذان التجمعان ويتمثل الأول في تفاهم القطيع على احترام كل فرد منهم لحق الآخر في استعمال مواهبه ضمن

حدود المصلحة المتوازنة، فلا يحول أحدهم دون نزوات الآخر من نفس القطيع على أن يتعاون القطيع كله في استنزاف طاقات القطعان الأخرى دون تحديد. ومن هنا كان الإنسان في إحدى الحضارتين وهي الطليقة، يؤلف جزءاً من قطيع متحرر من كل رقابة إلا ما يتصل بمنافع الجزء الآخر على أساس الدستور القائم: (تنتهي حريتك حيث تبدأ حرية سواك). ثم على أساس القاعدة القائلة: (أنا وأخي على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب). على حين يعيش الإنسان في ظل الحياة الثانية أشبه بكلب العربة القطبية يبذل كل جهده في جرها وفق إرادة القائد الذي يعلوها ويعيِّن الجهة التي يبغيها.. وليس له أي حق على صاحبه سوى نصيبه من العلف الذي يتم أو ينقص وفق الجهد المبذول.. فإذا انتهت مرحلة الجر كان عليه أن يتحول إلى كلب بوليسي ينفذ كل ما يشير به صاحب السلطة من ضروب العدوان على الآخرين.

وقد بات من حقنا أن نعرف الصورة الثالثة للحضارة.. وهي التي لا نكاد نلمح لها أثراً فيما نشاهده من حولنا..

إنها الحضارة المنطلقة من قول رب العالمين:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾

[الإسراء: ٧٠]

مضافاً إلى هذا التكريم قوله تبارك اسمه:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

[الحجرات: ١٣]

ومن بديهيات الأمور أن يختلف مردود كل من هذه الحضارات الثلاث في حياة الجنس الإنساني. فإذا كان محصول الحضارتين الحيوانيتين من هذا الجنس هو هبوطه تحت ثقل الغرائز وموحياتها، بحيث يكون كما قال ذلك الواعظ الفرنسي عن أثر الماركسية في أهلها: «إنها لتشد أعينهم إلى الأرض فلا تسمح لهم بالنظر إلى أعلى».. فمن طبيعة الثالثة أن تصون إنسانية الإنسان على أساس من التوازن بين غرائز الجسد وأشواق الروح، ومناط هذا التوازن هو وعي الإنسان التام بأنه ملك خالص لبارىء الوجود: بحكمته وُجِد وإليه يعود. وقد نفخ فيه من روحه وبوَّأه المكان الأسمى من مراتب الخلق، وزوَّده بالنور الذي لا يضلُّ متبعه، وأودع فطرته مؤشر الحق الذي لا يعرف الرضا والطمأنينة إلاَّ في كنفه، وكل انحراف عن جادته مؤد به إلى الضياع والمزيد من الشقاق...

في ظل هذه الحضارة الربانية يحقق الإنسان معنى الخلافة على الأرض فيجمع بين التفوق المادي الذي أعده له الله بإطلاق يده للكشف عن أسرار الكون، منذ أوقع في خلده أنه قد سخر له ما في السموات وما في الأرض جمعياً، فليس عليه إلاَّ أن ينطلق في طريق الإبداع مسترشداً بالقوانين التي بثها الله في ثنايا المادة علويها وسفليها.. وضابطاً تصرفه في حدود التوجيه الأعلى، الذي يجعل كل عمل يقدم عليه من صميم العبادة الخالصة لله، والتي عليها تتوقف مصلحة الجنس البشري بأسره، إذْ يصبح ذلك الإنسان مصدر الإشعاع لسائر النوع والمرشد الذي يهدي به الله مَنْ اتبع رضوانه سبل السلام..

ونظرة إلى واقع الكائن البشري في هذه الحضارات الثلاث كافية للتأكيد على هذه الحقيقة، إذ ترينا الحيرة والضياع في جانب الفريق الذي أعماه الهوى، فاتخذ من نفسه وأهوائه معبودات لا يمد بصره إلى ما وراءها وقد ملأه الغرور بما أنتجه من كشوف أنسته ذكر ربه، فأقبل على شهواته يستولدها فنون المُتع، ليُذهل بها عن واقعه الكئيب الذي صبَغَ بظلماته حياته وحياة من استهواهم بشواذِّه، فلا يزيدهم إيغالهم في الظلمات إلا اقتراباً من الهاوية وابتعاداً عن منطقة الأمان...

وحسبك من شواهد هذا الضياع ما تضجُّ به الدنيا من أصناف البلاء والرعب المتدفقة على مواطن هذا الفريق والمنذرة للحياة البشرية كلها بأعاصير الدمار التي لا تبقي ولا تذر. . . وفي رأسها الإنتحار الذي يلجأ إليه الأفواج من ضحايا ذلك الضياع كل يوم وفي كل مكان وبخاصة في أوساط كبار المثقفين والمترفين. . . بعد أن تخموا من متع المادة فلم تُروِ لهم ظمأ ولم تُطفىء منهم سغباً.

فأيقنوا أن كل ماضيهم لم يتجاوز باطل الأباطيل، ولم يجدوا في صدورهم أملاً في مستقبل يعدهم بأي عزاء، فآثروا أن ينهوا وجودهم قبل أن يَفجأهم بالمزيد من السأم أو الغثيان. .

ولكن الواقع لن يستكمل صورته حتى نلتفت إلى الجانب الآخر حيث نشاهد الفريق المواجه في ظل البقية الحية من الحضارة الثالثة التي على الرغم من تخلفها في الميادين المادية لا تزال تنعم بالكثير من نفحات الخير التي تهبُّ عليها من رياض الوحي فتهب لها من المدارك الروحية ما يوثق صلتها بالسماء، ويشحنها باليقين أن معها الله الذي بيده ملكوت كل شيء وفي ضوء هذا اليقين تواصل مسيرتها في طاعته وفي الإحسان إلى عباده، حتى لتؤثرهم على نفسها دون تفريق بين ألوانهم وهوياتهم. . فلا تلجأ إلى العنف إِلاَّ أن تُنتهك حرمات الله، أو يشن عليها فريق الضائعين غاراته الوحشية التي لا تعرف الرحمة ولا تؤمن إِلاَّ بالقوة فتضطر إلى مقاومة المعتدي حتى يحكم الله بينها وبينه، وحتى تؤمِّن لنفسها سبيل الدعوة إلى منهج الله الذي لا سبيل غيره لإنقاذ المظلومين من مخالب الظالمين. .

ومن هنا كانت المعركة الأبدية بين عبيد الشهوات الذين لا يبالون في سبيلها أن يحيلوا الحياة غابة ضوارٍ لا تعرف الأمن ولا السلام. . . وبين فريق الإيمان الذي لا يفهم من الحياة إلا كونها رسالة ربانية غايتها رد القطعان الضالة إلى طريق النور. . .

هكذا بدأت الحياة صراعاً مستمراً بين الفريقين، يقود أحدهما المختارون من عباد الله، ويسوق الآخر شياطين الجن والإنس. وقد رأينا أول مشاهد هذا الصراع

بين أول إنسان وأول شيطان، ثم مازلنا نواجهها في كل زمان ومكان. . وقد اتخذت هذه المعركة أكسية مختلفة وأشكالاً متباينة. فإذ غلب الصالحون انكفأ المفسدون إلى جحورهم مترقبين الفرص السانحة لاستئناف الملحمة في لبوس جديد، ولعل أخطر ما صاروا إليه من مفاسدهم المدمرة لجوؤهم إلى تفتيت صفوف الإخوة بتقسيمهم إلى شِيَع وأحزاب تحت مختلف الشعارات والرايات.

ولقد كان من أبرز هذه المشاهد في تاريخ الإسلام تلك الفتنة التي أوقدها المكر اليهودي بين أنصار الله من الأوس والخزرج، يوم أقبل عليهم شأس بن قيس، وقد أفزعه ما رأى من تقاربهم وتحابِّهم، فدفع صاحباً له من حَفَظَة الشعر فراح يُنشدهم من الأشعار التي سبق لكل من فريقي الأنصار أن تهاجَوا بها في حروبهم الجاهلية، فإذا النفوس تتفاعل، وإذا الهياج يتفاقم حتى نهضوا إلى السلاح يريدون إعادة الفتنة من جديد. . .

وكاد اليهود يحققون أمنيتهم لولا أن أدركهم رسول الله وجعل يهتف بهم:

«يا معشرَ المسلمين. . الله الله. . أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم!!».

وقبل هذا الموقف الرهيب كانت هناك محاولات شيخ المنافقين في المدينة إثارة هذه المنتنات، إذ راح يؤلِّب الأنصار على أخوانهم المهاجرين بدعوتهم إلى كفِّ أيديهم عن معونتهم، كما يفعل منافقو اليوم بسعيهم الحثيث لإقناع أنصار الجهاد الأفغاني بوقف مساعدتهم، كي يضطروا المجاهدين إلى الخضوع لأوامر الكافرين بوقف القتال، وتمكين الخونة من تحويل الإنتصار الذي شَروه بدماء الملايين من الشهداء والمعوَّقين، إلى هزيمة ساحقة تقضي على آمال العالم الإسلامي كله بمشاهدة دولة الإسلام تخفق أعلامها على قمم أفغانستان. .

أين نخوة المعتصم وإيمان صلاح الدين؟!

وتتابعُ صور المحن التي تعرّض لها المسلمون خلال التاريخ، ومن كبرياتها جرائر السبئية ـ اليهودية ـ على وحدتهم الربانية، إذ عمد ابن السوداء إلى اختراق صفوفهم الداخلية بأول قذيفة إلى صميم عقيدتهم الإلهية، حين اخترع لجَهَلَة

المسلمين بدعة الرجعة ـ بأن رسول الله سيعود إلى الحياة مرة ثانية ـ ثم بدعة الوصية بزعمه أن لكل نبي وصيا، وأن علياً هو صاحب الحق الأوحد بخلافته بموجب وصيته إليه!.. ومن خلال هذين الفتقين تسربت الألغام إلى صفوف خير أمة أخرجت للناس فمزقتهم شيعاً، وشقت الطريق للمجوسية والفارسية تدمر وحدتهم بمعاول البابكية والقرمطية وأخواتهما تحت ستار الإسلام والتشيع، بعد أن يئست المجوسية من قدرتها على الصمود بوجه الزحف الإسلامي..

ولقد شجعت هذه الفتوق كل ذي ضغن على الإسلام أن يُسهم في توسيعها خلال القرون. حتى إذا جاء عهد الإستعمار الصليبي إذا هو يجرُّ معه وخلفه كل ما أحدثه الفكر الوثني اليوناني من عوامل الهدم والتفتيت، فكانت الشيوعية والعلمانية ثم القومية التي حمل جرثومتها المغتربون، الذين تلقوا تربيتهم الفكرية والخلقية في أحضان التبشير والإستشراق الغربيين، ثم عادوا إلى بلادهم المسلمة ينشرون أفكار أساتيذهم كراهيةً للإسلام، وتأليباً عليه، وتشنيعاً على ماضيه، فإذا الأمة أمم.. فهناك الطورانية ـ في تركيا ـ والفرعونية في مصر، والفينيقية في لبنان، وكان من فراخ الفكر القومي تلك النحلة الأنطونية، التي تُضيِّق مساحة قوميتها في حدود سورية الكبرى ـ على النحو الذي تطالب به إسرائيل ـ ثم البعثية وتوسع حدودها حتى تشمل أرض العرب كلها. ومن ثم جاءت الإشتراكية اللبنينية ـ أو ما يسمونها بالعلمية ـ وعلى الرغم من كل خلاف بين هذه النحل فهي على توافق تام بأن تكون يداً واحدة في حرب الإسلام..

ولا حاجة للتذكير بما أحرزته هذه الفتوق من نجاح في تفكيك الوحدة التي عرفها المسلمون في سابقات عهودهم إلى ما قبل انهيار الخلافة، وحسب المفكر المسلم أن يلاحظ واقع الشعوب الإسلامية في حاضرها الراهن لكي يحيط علماً بمدى النكبة التي أحاطت بأمته، حتى ليشهد المذابح العنصرية تفتك بهم في كل مكان، وعلى مرأى ومسمع من كل هذه الشعوب، دون أن تحرك لنصرتها ساكناً خارج نطاق الكلمات العابرة التي لا تعدو شأن الكتابة على الماء.

لقد كانت الشعوب الإسلامية تتفاعل مع كل حدث يمس حقوق المسلمين في أي موقع من الأرض، فتتدافع لنجدته بالمال والرجال، عملاً بأمر نبيهم الذي يمثل المسلمين في توادِّهم وتراحمهم بالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمّى والسهر.. وليس رد المعتصم على استغاثة الهاشمية الأسيرة في عمورية إلا تجسيماً لذلك الواقع الكريم السعيد الذي يُشعر المسلم أياً كان بأنه عضو في أسرة لها أول وليس لها آخر...

وليست اندفاعة صلاح الدين الكردي، ومن معه من جنود الإسلام على اختلاف قومياتهم العرقية لاستخلاص القدس والأرض المباركة من براثن الصليبيين، ألا استجابة لصُراخ المظلومين من إخوانهم المسلمين، وقد صدقوا الله فصدقهم وعده وأنزل عليهم نصره في ملحمة حاسمة على مشارف حطين.

فأين نخوة المعتصم وأبطاله الميامين، وأين عزة الإيمان التي أشعلت أفئدة صلاح الدين وإخوانه الأكرمين غيرة على حرمات المؤمنين، الذين تجـرَّعـوا كؤوس الموت والعذاب بأيدي أعداء الإسلام والإنسانية، في الهند وبلغاريا والأفغان والبوسنة والهرسك.. وحول ثالث الحرمين.. ومعظم ديار المسلمين!!..

لقد بلغ جمود المشاعر في واقع المسلمين هذه الأيام حداً لا يكاد يُتصور حتى إنك لترى بينهم مَنْ يسفِّه عمل القائمين بأعباء الإنتفاضة في فلسطين الشهيدة، ومَنْ يجاهر بالدعوة إلى قطع العون عن أبطال الجهاد في أفغانستان، وحتى لترى بين حكامهم مَنْ يصادر الأموال التي تبرع بها أولو الغيرة والإيمان لمصلحة الجهاد الذي رد للمسلمين اعتبارهم في موازين الكرامة والإنسانية!. وشد ما يؤلمني أن أنقل هنا كلمة سمعتها بالأمس القريب من مسلم كنت أتوسم به الخير والعقل فإذا هو يفاجئني بقوله: «إن المجاهدين اليوم يقاتلون إخوانهم المسلمين بعد انسحاب الروس من أفغانستان.. فلم يبق لهم أي حق في أي مساعدة»!! وأسوأ ما في هذا

اللغو ما يحمل من الدلالة على أن بين المسلمين مَنْ لا يفرق بين الشيوعيين والمؤمنين! .

وأسمع من مسلم آخر قوله، وهو يجادل أحد إخوانه في شأن المجازر التي يرتكبها الهندوس في أوساط المسلمين: «مالك ولمسلمي الهند فعندنا من مشكلاتنا ما يكفينا. . »!

ولا جرم أن قارىء هذه التجديفات يعلم ما نعلم من أن قائليها ليسوا بدعاً بين جماهيرنا، بل هم بعض الغثاء الكثير الذي أفرزته غزوات المفسدين الذين نجحوا إلى حد كبير في تحطيم أخوة المسلمين.

فكيف إذا انتقلنا بالقارىء إلى موضوع «حَلَبْجَة» وقضية الخمسة وعشرين مليون كردي[1] من إخوان صلاح الدين، الذي وقف نفسه وعشيرته على خدمة الإسلام، وحرم نفسه مُتَعَ الحياة إلى أن يوفقه الله لتحرير فلسطين ومسجدها المبارك من أغلال الكافرين. .

إني لأفتح عيني على أكداس المنشورات والمطبوعات التي تتدفق بها مطابع البلاد الإسلامية فلا أكاد أقع خلالها على أي إشارة شافية إلى هؤلاء المنكوبين. . الذين يمثلون قمة الفواجع التي تفتك في جسم الأمة الإسلامية أثناء هذا القرن. .

فمَنْ هم أولئك الملايين من أمة محمد، وما حقيقة قضيتهم إذا كان لهم قضية؟

والحديث عن الأكراد يقتضي البدء بتعريف مواطنهم الأصلية، لأن تمثل البيئة جزء لا ينفصل عن طبيعة أهلها. وإنما تَرِقُّ النفس أو تقسو تبعاً لأثر بيئتها. ونحن في الدراسات الأدبية لا نستطيع أن نُغفل أثر البيئة في تكوين الأساليب والمذاهب، وبهذا المعيار فرّق الأولون من بحّاثة الأدب بين الطابع الأندلسي

---

(١) هذا الرقم من تقرير لفهمي هويدي عن توزيعات الأكراد في الأقطار المجاورة.

والطريقة الشامية وما إليهما من الألوان المختلفة بسبب اختلاف المؤثرات الطبيعية والاجتماعية.

وأول ما يواجهنا من مميزات البيئة هنا اقتران نسبة الأكراد باسم «كردستان» ومعناها ديار الأكراد، فهي موطنهم العريق ومسرح تاريخهم الذي لا تحديد لبدئه، وموقعه في هذه البقاع الممتدة حول جبل الجودي الداخل في الحدود التركية، وهو الجبل الذي استقرت عليه سفينة أبي البشر الثاني نبي الله نوح عليه السلام.. ينبئنا بأنهم بقية أحد الأعراق المتخلفة من ذرية ذلك النبي الكريم قدر لها أن تلازم المنطقة التي ولدت فيها أصولها الأولى.

وفي (دائرة معارف القرن العشرين ج ٨ ص ١١٥) يقول مؤلفها المرحوم محمد فريد وجدي: «كردستان هي بقعة من الأرض يسكنها الأكراد تقع في آسيا الغربية بين بلاد فارس وأرمينيا والأناضول وجزيرة ابن عمرو الواقعة بين نهري دجلة والفرات. وتبلغ مساحة بلادهم نحو ٩٠٠ كم طولاً في ١٠٠ إلى ٢٠٠ عرضاً. وعاصمتها في تركية ديار بكر، وفي فارس كرمانشاه.. وهذه البلاد عبارة عن مجموعة جبلية وعرة المسالك تحوي بينها أودية في غاية الخصوبة»(١).

وسنرى في تتبعنا خصائص القوم النفسية أثر هذه البيئة التي جمعت بين رقة الخصب، الذي شحذ عواطفهم فأشاع بينهم قصص الحب العفّ النقي، وبين وعورة الجبال التي طبعتهم بميسم العزة والشمم..

---

(١) يعقب أحد الإخوة الأكراد المدرسين في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية على هذه المعلومات في رسالة خاصة: (إن الأكراد يسكنون بلاداً تمتد من الخليج إلى البحر المتوسط على هيئة قوس يكاد يصل إلى البحر الأسود شمالاً والموصل جنوباً، وحسب تقدير الخبراء في هيئة الإذاعة البريطانية فإن مساحة كردستان تبلغ (٥٠٠٠٠٠) كم، وفي بعض المراجع الحديثة/ ٤٠٨٦٤٧ كم.

ولولا المزعجات من الليالي

ليس قليلاً ما كتب عن الأكراد حتى اليوم سواء في اللغة العربية أو في اللغات الأجنبية، ولكن الغريب في هذه الكتابات كثرة الإختلاف على تحديد هُويتهم الأصلية، وأكثر ما تجد هذا الإختلاف في كتابات المستشرقين الذين لا يكادون يستقرون على نسبة معينة لهم، فهم بنظرهم قوم أو أقوام تتنازعهم الأصول المختلفة من الأرومة الآرية، على حين يكاد يجمع مؤرخو العرب على ربطهم بالأصول العربية، ففي القاموس أنهم منحدرون من كرد بن عمرو مزيقيا. وهو أحد ملوك اليمن ومن ولده الأوس والخزرج، ومن نسله الأزد ومنهم آل المهلب بن أبي صفرة.. لكن مؤلف وفيات الأعيان مع التأكيد على عروبية صلاح الدين برفع نسبه إلى مضر قيس عيلان وينتهي به إلى عدنان، ويذكر من أجداده/ علي بن آحمد/ ممدوح المتنبي الذي يقول فيه:

شـرق الجـو بـالغبـار إذا سـا   ر علـي بـن أحمـد القمقـام

كما يذكر أن من أجداده كذلك الحارثة بن عوف الذي حمل، مع خارجة بن سنان أخي هرم، ديات الدماء المهراقة بين عبس وذبيان، وهما اللذان يقول فيهما زهير:

على مكثريهم حق من يعتريهم   وعند المقلين السماحة والبذل

وعن ابن عبدالبر أن «قسماً من الأكراد عـرب».. ويعقب على ذلك بقوله: «وبالأخص أكراد الشام، ويورد شاهداً على ذلك قول الشاعر ـ دون أن يعين هويته ـ :

لعمرك مـا الأكـراد أبنـاء فـارس   ولكنه كرد بن عمرو بن عامر

ونفهم من هذا أن ثمة اختلافاً على هوية القوم فهم في عرف هذا الشاعر كلهم عرب دون استثناء على حين أن ثمة من يحصر نسبهم هذا في قسم منهم دون

الجميع.. ولا يورد تعليلاً لذلك التقسيم.. وفي «مروج الذهب» للمسعودي يقول:

«أما أجناس الأكراد فقد تنازع الناس في بيئتهم، فمنهم من رأى أنهم من ربيعة بن نزار، وانضافوا إلى الجبال والأودية بدافع الأَنَفَة، وجاوروا هناك أمماً من الأعاجم والفرس فحالوا عن لسانهم - العربي - وصارت لغتهم أعجمية». ثم يقول: «ومن الناس مَنْ رأى أنهم من مضر بن نزار، وأنهم من ولد كرد بن مرد بن صعصعة من هوازن» ويختم ذلك بأن «الأشهر والأصح أنهم من ولد ربيعة بن نزار/ص ١٢٢، ١٢٣ ج ٢».

ونحن مضطرون للأخذ برأي القائلين بعروبة الأكراد دون بحث في يَمَنيتهم أو مضريتهم، وأنهم قد خسروا بيانهم العربي لمجاورتهم الأعاجم، كما يخسر أبناؤنا اليوم لغتهم الأم بنشوئهم في مجتمعات الغرب، أما مدعيات المستشرقين فهي ساقطة بتناقضها أولاً، ثم بما يلف هذه المدعيات من الشُّبَه التي مردها إلى رغبتهم في تفتيت العرب والمسلمين.. والمؤسف أن مزاعم الدساسين قد انطلت على تلاميذهم من القوميين في هذا الزمن فراحوا يسيئون معاملة الأكراد على المستوى الفردي والرسمي، حتى لتصل بهم العنصرية القومية إلى حد تشويه سمعة الكردي فيضربون به المثل على الغباوة التي لا تكاد تُتصور، وبقليل من التفكير السليم تتجلى صورة هذه الفرية دالة على ما وراءها من نزعات الحقد والكيد للإسلام والمسلمين، الذين لا يستطيعون أن ينسوا مآثر هذا الشعب المؤمن في خدمة الإسلام، والذود عن وجوده بوجه الزحوف التي يقودها أعداؤه على مدى التاريخ، وبخاصة في العهد الصليبي.

ولا نضرب في الخيال إذا نحن أكدنا وجود كثير من الملامح النفسية التي تجمع بينهم وبين العرب وبخاصة جيل ما قبل الترهل الذي صنعه الترف في حياة العرب منذ أواخر العصر الأموي فما بعد.. ومن أبرز الملامح الإباء الذي يميز الكردي إلى جانب شجاعته الفائقة، وطاقته على مواجهة الأحداث، إلى عمق شعوره الديني الذي يجعله سريع الإستجابة إلى الموعظة الحكيمة..

وأي قارىء للتاريخ يجهل ما اشتهر عن البطل الإسلامي العظيم صلاح الدين يوسف بن أيوب من ولعه بالعلم، وبخاصة علم الحديث الذي ما كان يدع مذاكرته مع العلماء، حتى في غمار المعارك، شأنه في ذلك شأن أشباهه من أبطال الإسلام الذين جمعوا بين ممارسة الحروب ومذاكرة العلوم، كموسى بن نصير وعبد الله بن المبارك وشيخ الإسلام ابن تيمية. وكما كان صلاح الدين مثلاً أعلى في الإقدام والبسالة، كان كذلك مثلاً كريماً في الرحمة الإسلامية، التي من صورها الفذة موقفه وهو يحاصر بيت المقدس، إذ رأى امرأة صليبية تغوص بين المقاتلين وهي تفتش عن طفلة لها ضائعة، فلم يشغله واقع الحرب عن مواساتها والسعي لمساعدتها حتى وفقه الله لرد لهفة المرأة بالعثور على الطفلة، وتسليمها للأم الذاهلة وعيناه طافحتان بالدموع، ثم تلك الصورة الأخرى يوم كان يحاصر مدينة حلب، وقد اجتمع مع بعض قادته لتداول الرأي في شأن المعركة، فإذا فدائي من غَدَرَة الإسماعيلية يندفع نحوه كالسهم فيهوي بخنجره عليه ويصيبه بجرح غائر من أعلى رأسه إلى عنقه، فلما سقط الغادر بسيف أحدهم، لحق به على الأثر غادر آخر بخنجره منتهزاً فرصة انشغال القادة بأمر البطل.. ولكن حتفه كان أقرب إليه من أنفه فإذا هو يخر صريعاً فوق جثمان رفيقه.. ومع ذلك لم يصرف هول الحدث الرهيب صلاح الدين عن ملاحظة الحكمة الإلهية في نجاته من المجرمين، ففي غمرة الذكر والتسبيح يعلن لمن حوله يقينه بأن الله لم يحفظه من هذه الغَدَرات إلا ليذكره بما يجب عليه من العمل الدائب في خدمة الإسلام ومطاردة أعدائه الزاحفين عليه من كل صوب..

ولا تقتصر هذه المميزات على كبار القادة وأولي العلم من هذا الجنس، بل إنك لتلمح بعضها بارزاً في تصرفات العامة منهم. ومما يحضرني ذكره الآن تلك الحادثة التي ذهب ضحيتها عسكري كبير من الفرنسيين على أيدي اثنين من الأكراد أيام انتدابهم على سوريا، وقد سجلتُ هذه الحادثة في قصة تضمنتها إِحدى المجموعات المنشورة بعنوان «من مجتمعنا» وخلاصة القصة أن «جارنياس» وهو الضابط المشار إليه، وكان حاكماً لمدينة طرطوس قد دُفع للإعتداء عليّ فرددت

عليه بما لم يكن يتوقعه، وقد أثار ذلك إعجابه فراح يسترضيني ويعتذر إلي، وختم موقفه ذاك بقوله: «لقد أكبرت فيك تلك العزة فواجهتها بما تستحق من التقدير، ولكن أخشى أن تجابه بها فرنسياً غيري ممن لا يرضيهم الإباء فتذهب ضحية شجاعتك». ولامَسَ إخلاصُ الرجل مشاعري فلم أر أن أحجب عنه كلمة الشكر، وقلت له: ولك مني نصيحة فلعلك تقابلها بالقبول: إن قسوة لهجتك هي التي دفعتني إلى معاملتها بالمثل فكان ما كان، والآن أذكُّرك بأن طبيعة المسلم ترفض الهوان فاجتهد ألَّا تواجه مسلماً غيري بمثل تلك الشدة فتكون النتيجة في غير مصلحتك.. والله لكأن القدر كان ينطق بلساني آنئذ. فما هي سوى أشهر حتى قرأت في إِحدى الصحف أن جارنياس قد لقي مصرعه أثناء جولة له في بادية الجزيرة على يد كرديين لم يحتملا تهجمه فأطلقا عليه الرصاص..

ولقد كان للظروف الإجتماعية والسياسية والجغرافية على امتداد مراحل التاريخ أثرها العميق في هذه الطبيعة الكردية، ولعل أكثر ما يكون هذا الأثر بروزاً في تلك الجفوة ـ البدوية ـ التي تطالعك في نبرات عامتهم وتكاد تشبه ظاهر الحذر، وهو شيء طبيعي لا تجد فيها أي غرابة عندما تتذكر المآسي التي نشأوا في كنفها وتوارثوا ذكرياتها جيلاً بعد جيل، أضِف إلى ذلك عامل البيئة الجبلية التي اضطرت هذه الأقوام للجوء إليها حتى اقترن بها نسبها، وما كان الكردي ليؤثر بيئة الجبال على سواها من أرض الله لو ترك لاختياره، ولكنها قسوة الظروف التي أحاطت به فأكرهته على تحصين نفسه بوعورة المكان من عدوان الإنسان.

ولقد أتى على الأكراد حين من الدهر نعموا خلاله بالأمان والإستقرار أيام كان لهم كيانهم السياسي، ودولتهم التي تحرس وجودهم وتمدهم بالقدرة على الإنطلاق في تنمية مواهبهم والمشاركة في بناء التاريخ الحضاري ضمن مجموعة الشعوب التي تحيط بهم من وسط آسيا. وقد بدأت تلك المرحلة في ظل القرون السابقة للميلاد ولم تلبث أن أخذت سبيلها إلى الإنتظام في تنظيمات قومية استطاعت أن تدفع عن نفسها ضغوط جيرانها الأقوياء من الفرس والآشوريين، وقد اشتهرت من هذه الحكومات الكردية اثنتان، حكومة «لولو» ثم حكومة «لكوتي»

حتى شاء الله أن ينتهي أمرهما إلى السقوط الذي أحله بهما الإمبراطور الفارسي «كورش» فتمزق الوجود الكردي إلى كيانات صغيرة ما زالت تتردد بين صعود وهبوط إلى أن غمرهم الإسلام بنوره أيام ثاني الراشدين. ومنذئذ بدأوا عهدهم الجديد في ظل الإسلام عاملين في نشره وصيانته وتثبيت دعائمه مع سائر أخوتهم من المؤمنين من مختلف الأعراق، ولما توزعت الدولة الإسلامية إلى وحدات سياسية متعددة كان للأكراد حكوماتهم التي عرفت باسمهم منذ ما قبل العهد الصلاحي، ثم كان لهم دورهم الفعال في الدفاع عن الإسلام تحت راية الخلافة العثمانية، إلى أن تغلب المد الصليبي على ديار الإسلام فانجاب ظل الخلافة بأيدي الماسونية اليهودية، التي قام بتنفيذ مخططاتها سفهاء الأتراك يتقدمهم اليهودي المتستر «كمال أتاتورك» فكان نصيب الأكراد من محن الإسلام أن تقسم ديارهم بين الأقاليم المجاورة، وأن ينهضوا بأعباء الدفاع عن أنفسهم في مواجهة القوى المحدقة بهم دون أن تفتر مقاومتهم..

ومن هنا تزايد لصوقهم بالمناطق الجبلية لحصانتها في وجه الزحوف المطبقة عليهم، والإضطهاد الموجه إليهم من كل صوب..

ماذا جنى هؤلاء الأبرياء؟!

ولقد أغرى وضع الأكراد هذا أعداء الإسلام من الدول الإستعمارية والقوى المتصارعة على المنافع، بالتسلل إلى صفوفهم ومحاولة إقناعهم بالتعاون معهم مقابل مساعدتهم لاستعادة بعض ما فقدوه من عوامل الإستقرار.. وهكذا أتيح للماركسية أن تجد لها أعضاء بين أولئك المضطهدين رجاء أن ينالوا من نصر الماركسية ما يؤمن لهم تحقيق وجود سياسي آمن، ولكن حصيلتهم من ذلك التعاون لم تزد على الوعود الجوفاء يعقب بعضها بعضاً دون أي مردود عملي، حتى اضطروا إلى نفض أيديهم منها أخيراً بعد أن انكشف عوار الماركسية لكل ذي عينين، وأصبحت قاعدتها العالمية في أمس الحاجة إلى من يمدها بالعون للتغلب على مشكلاتها الإقتصادية والإجتماعية..

ولقد كان لتسلل الماركسية إلى بعض المنظمات الكردية أثره العكسي في زيادة ضروب الإضطهاد الذي يتلقاه الكردي في العادة، وبخاصة من المنظمات القومية التي وجدت في هذا التوجه فرصة لإرواء أحقادها من المخالفين، وعلى سبيل المثال لا الاستيعاب أذكر بعض ما عاناه هؤلاء المظلومون في ظل الحكم البعثي على أرض الجزيرة حيث يكثر الأكراد، وبخاصة في نطاق التعليم، فقد كان المعلم البعثي يدخل الصف ليسمعهم من التحقير والإهانة أضعاف ما يُسمعهم من المواد المقررة. .

ويذكر لنا الأستاذ علي الطنطاوي طُرَفاً من هذه الغرائب التي صادفها في أحد مدارس الشمال العراقي التي نقل إليها من بغداد، فظل أياماً دون عمل لأن المدير أشفق عليه من أولئك الأكراد الذين لم يسلم من بطشهم معلم قبله، ولما أدرك ذلك السبب انتهز الفرصة فدخل الفصل، وكانت ساعة مباركة استحوذ بها على قلوب أولئك الشباب، فلم يدعوه يغادر الفصل إِلَّا محمولاً على أعناقهم!. . ومفهوم أن الذي حقق للطنطاوي ذلك النجاح إنما يعود إلى أسلوبه الحكيم، الذي أشعرهم بأنهم أمام أخ تجمعهم به أخوَّة الإسلام، بخلاف أولئك المعلمين الذين توهموا أن مهمتهم لا تعدو تحقير هويتهم الكردية وتوكيد ما ذهب إليه شاعرهم البعثي القائل:

آمنت بالبعث رباً لا شريك له   وبالعروبة ديناً ما له ثاني

وماذا نتوقع من شعب طبع على عزة الإسلام وقساوة الجبال أن يقابل هذا الهوان العنصري إِلَّا بمثل ذلك النفور بل الكراهية التي تشحن صدره بالحقد على كل ما هو عربي!. وأي ذنب لهٰذا الشعب إذا راح ينتهز كل سانحة للتخلص من هذا الجحيم الذي لا يُطاق!!

وللقارىء أن يتصور مثل هذا البلاء يواجهه الكردي أينما اتجه من حدود بلاده مع كل جنس يجاور أرضه. . إذ ليس ذلك الإضطهاد مقصوراً على أكراد

الشام والعراق فحسب، بل هو شامل الملايين من أخوانهم في تركية وإيران، وأذربيجان و. .

إن كلاً من هذه الأقطار يحاول استخدام مَنْ استطاع من أكراده لضرب أعدائه في الأقطار المجاورة، مقابل الوعود بحكم ذاتي يتيح لهم الحفاظ على كرامتهم وإنسانيتهم. شأنهم في ذلك كالغريق الذي أحاط به الموت من كل مكان فهو يمد يده إلى كل ما يواجهه رجاء أن يكون فيه خير له. . وطبيعي أن إنساناً هذا وضعه لا يجد في حياته متسعاً للتفكير بغير النجاة، فإذا ما قَذف به الموج إلى أي من الشواطىء وجد نفسه في قبضة ساخط عليه لانحيازه إلى عدوه! هذا إلى دسائس الدول الغربية التي لا تنفكُّ عن محاولة اجتذابهم لخدمة مصالحها تحت مختلف الشعارات والأستار. .

إنه لوضع يتجاوز تعقيده حدود التصور، ومع ذلك لا يجد عاذراً من صديق ولا عدو. .

ونظرة واعية إلى تشرد الآلاف بل مئات الألوف من هؤلاء الضائعين، وبخاصة في مجاهل العراق وإيران وتركيا من شأنها أن تبعثِ التساؤل: ألم يكن ثمة تدبير يعالج قضية هؤلاء المظلومين بالحكمة والإنصاف، فيجنبهم تلك المآزق التي يتعرضون لها أبداً؟!. . ألم يكن أمام حاكم العراق من سبيل لمعالجة أكرادهم في حلبجة سوى الإبادة الجماعية بالسلاح الكيميائي؟! ثم ألم يكن لدى أولئك الحكام من وسيلة لدفع ما يتهمونه من خطرهم إلا اقتلاعهم من منابتهم وتمزيق شملهم لإلقائهم في المجاهل لا يعرف بعضهم خبراً عن بعض!!.

هل تلاشى الحس الإسلامي في الدول العربية التي تحتوي معظم الخمسة والعشرين مليوناً من هؤلاء الإخوة المنكوبين؟!

ألم يقرأ حكام تلك الدول شيئاً من تاريخ أمتهم أيام انتظامها في جنة الإسلام، حيث كانت الأخوة الربانية هي التي تحكم مسيرتهم الحضارية فلا تنافر بين شعوبها على اختلاف ألوانهم وألسنتهم؟.. لماذا يؤثر هؤلاء الحكام الضياع في متاهات الجاهلية على الأخذ بنظام التعاون الإلهي الذي يعين قِيَم الإنسان على أساس البر والتقوى؟!.. لماذا يصرُّ هؤلاء القادة على السير وراء الناعقين بالدعوة إلى الأعراق والقوميات، التي مزقت الإنسانية حتى جعلت الأرض مهددة بالدمار التام كأنها قنبلة في كف مجنون؟!...

لقد جربوا كل نظريات الجاهليات القديمة والحديثة فلم يظفروا منها بغير الخراب والتخلف والديون التي أثقلت أعناق الجميع، فقيدت تصرفاتهم في أوامر المرابين العالميين الذين لا يعرفون الرحمة ولا الإنسانية.. وليست محنة الأكراد في تلك الدول الإسلامية اليوم إلا صورة فاجعة من هذا الشطط الذي استبدلوا فيه الذي هو أدنى بالذي هو خير.

لقد أقام الله لهذه الأمة المعالم التي تهديهم سبل السلام كلما حزَّ بهم كرب يهدد أمنهم، وذلك في قوله تعالى:

﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾

[النساء: ٥٩]

وفي هذا التوجيه الإلهي توكيد لا يتسع للخلاف على أن لكل مشكلة تعتريهم حلها الصحيح في كتاب الله وسنة رسوله. ومفهوم ذلك أن كل انحراف عن هذا الإتجاه مفضٍ إلى الخسار والتبار، فإلى متى يلجأ حكام هذه الدول إلى السلاح يخنقون به كل صوت يرتفع من أوساط الإخوة يطلب المساواة والعدالة والكرامة، التي جعلها الله حق كل مخلوق من ذرية آدم منذ أنزل إعلانه العالمي القائل:

﴿۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ٧٠﴾

[الإسراء: ٧٠]

ولو هم أصاخوا لأمر الله وأنعموا الفكر في مدى الأرزاء التي صبوها على هؤلاء الأكراد بمواقفهم المخالفة عن حكم الله، لأدركوا أن خسائرهم في هذا المسلك بالمال والأنفس أكبر بكثير من كل نجاح يأملون تحقيقه في محاولاتهم إخراس أصوات القوم المطالبين بالحد الأدنى من حقوق الإنسان. .

لقد أقدم حاكم العراق على ثالث أكبر الجرائم الدولية ـ بعد هيروشيما وناجازاكي ـ فانتزع أرواح خمسة آلاف كردي في (حلبجة) دفعة واحدة، وهو يعلم أن معظمهم من الأطفال والنساء والشيوخ الذين لا يحسنون كرّاً ولا فرا. . ثم عمد إلى العشرات من قرى الأكراد فمسحها بالأرض. . فماذا ربح من هذه الصفقة سوى أنه خرّب على أولئك المظلومين دنياهم، وخربوا عليه دنياه وآخرته، إذ أصبح بنظر العالم مثل الوباء الذي يُضرب به المثل في التدمير والتتبير، فضلاً عما ينتظره من عقوبة العلي القدير، يوم يقال لزبانية جهنم في كل جبار مبير:

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢)﴾

[الحاقة: ٣٠ ـ ٣٢]

وما أقرب ذلك اليوم الذي ينتصف فيه المظلومون من ظالميهم:

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (٧)﴾

[المعارج: ٦ ـ ٧]

ولِمَ كل ذلك الطغيان؟!. . وماذا جنى هؤلاء الأبرياء فاستحقوا كل هذا البلاء والهوان في «عدالة» ذلك الحاكم؟!. . .

إن كل ما يريده هؤلاء المعذبون من إخوتهم في الإسلام هو أن يسمحوا لهم بالإستقرار في وطن آمن ضمن الرقعة التي اقترنت بها هويتهم منذ آلاف السنين، وطن يتحرر من القهر والعسف ويتمتعون فيه بحقوق المواطنة الإنسانية، وحق الإحتفاظ بلغتهم ومميزاتهم الإجتماعية، في معزل عن كابوس القهر الذي تمارسه

الدول التي تقاسمتهم بمحاولة إذابتهم في كياناتها الخاصة، مما جعل حياتهم سلسلة متصلة من النضال الذي لا نهاية له إلا بالحصول على حقوقهم الإنسانية، أو القضاء على ملايينهم الخمسة والعشرين، وذلك هو المستحيل نفسه.

إن حملات الطمس التي سُلطت على هذا الشعب المسلم لطمس هويته، وبخاصة في عشرات السنين الأخيرة، قد أصابت الكثير من جماعته بالدوار الذي كاد يذهلهم عن حقيقتهم الإسلامية، فقبلوا أن يرفعوا الشعارات الدخيلة رجاء الحصول على بعض العون الذي يعوزهم للتخلص من أكداس البلاء، ولكن الغمرة المضللة قد بدأت تتوارى فتنفتح أعينهم على ما وراءها، فإذا هم مشرفون على الواقع الرهيب الذي يسوقهم إلى الهاوية. وها هي ذي تلك الجماعات المخدوعة بالماركسية والعصبية القومية قد بدأت تسترد وعيها، فتستمع إلى نداء الإسلام يهيب بها للإنضواء إلى ظلاله التي هي المحطة الوحيدة التي يمكن أن يجتمع عندها جميع المخلصين من أبناء الشعب الكردي، وسيقف معهم عندها كل المسلمين المخلصين من الشعوب الأخرى لينطلقوا منها في طريق واحد وتحت راية واحدة[1].

متى كان الأكراد دخلاء
على المجتمع الإسلامي؟!!

والأكراد عندما يجمعون على استجابة ذلك النداء الحبيب ـ نداء الإسلام ـ لا يزيدون على أن يكونوا قد استردوا مكانهم الطبيعي في كيان الأمة، التي لم ينفصلوا عنها قط منذ شرح الله صدورهم للدين الحق، إلى ما قبل هجمة الإنحرافات التي فجرتها التيارات الغازية في المراحل الأخيرة، فكانت أشبه

(١) حسب تعبير مراسل «النفير» في حواره مع الأستاذ جلال الطالباني ـ عدد ٦ ص ٣٣.

بالإعصار الهائل ضرب السفينة فبعثر الكثيـر من ركابها بين الأمواج، فراحت بدورها تتقاذفهم ذات اليمين وذات الشمال. . .

ومما ينعش الآمال رؤية هؤلاء الإخوة وقد بدأوا العودة الراشدة في عزيمة لم تزدها المحن إلا صلابة وتصميماً، ولعل أبرز مظاهر هذا الواقع السعيد ذلك (المؤتمر الإسلامي الأول عن القضية الكردية من رؤية إسلامية) المنعقد في مدينة كولون الألمانية بتاريخ ٢٣ ـ ٢٥/ ٧/ ١٤١٠ هـ والذي أكد في توصياته على أن الإسلام هو الحل فلا مندوحة عن الأخذ به كاملاً في كل تحرك نحو المستقبل. . .

ولا جرم أن لهذا الإتجاه صلة عضوية بالتطورات العالمية التي أسفر عنها الجهاد الإسلامي في أفغانستان، فأثبت للعالم أن القوة المادية ليست كل شيء، وأن للإيمان الحق عمله الفعال في الإنتصار على قوى البغي مهما بلغ حجمها وشراستها، ولأن الكون كله ملك لله، وهو الذي قدَّر أن تكون العاقبة للتقوى لا للعدوان والطغيان، وعلى هذا فالمستقبل للإسلام وللعاملين به في سلمهم وحربهم، وقد بدأ العد التنازلي لسقوط الظلم والإستبداد، في العالم بعامة وفي بلاد المسلمين بخاصة، وذلك هو النظام الإلهي الحتمي، وكل من يدفعه الغرور لوقف أحكامه فسيكون هو أول الخاسرين، وكان في النهاية عبرة للمعتبرين.

ولكن المفكر المسلم وهو يطالع أخبار مؤتمر «كولون» لا بد أن يشعر بصدمة المفاجأة فيتوقف ليتساءل: ولم اختار المؤتمرون ذلك البلد الألماني لاجتماعهم؟. . وهل ضاق العالم الإسلامي عن استيعابهم، فلجأوا إلى مكان لا تصلهم به أي قرابة من نسب أو دين؟!!.

ولكنه تساؤل موجع وجوابه أشد إيجاعاً، لأن واقع هذا العالم الإسلامي الجريح يحول دون قبول مثل ذلك الإجتماع في أي من أقاليمه، لا لأنه يتنكر لمطالب هذا المؤتمر، بل لأن معظم الذين بيدهم قرار القبول والرفض لا يرون من مصلحتهم ظهور ذلك التحرك الكردي بين أظهرهم، وإنْ كانوا على أتم اليقين بأحقيته بالعمل في كل بلد إسلامي، لو ترك الأمر لحكم الإسلام وللشعوب التي

يحكمونها... فللإخوة الأكراد إذن أن يُيمِّموا أي بلد أجنبي لبحث قضاياهم العادلة بحرية يحسدهم عليها معظم المسلمين الذين يشاركونهم في مظلوميتهم وفي الإيمان بقضيتهم، ولو كان ذلك البلد ألمانيا أو فرنسا أو حتى بريطانيا وأمريكا وغيرها ممَّنْ لايدَّخر وسعاً في نصرة إسرائيل ومحاربة كل تحرك إسلامي في كل مكان. لأن حرية الفكر أفرزت في هاتيك الأقطار جماعات ولو قليلة من المنصفين الذين يؤثرون الحق ولو على أممهم وأوطانهم...

وإنما على هؤلاء الإخوة أن يواصلوا سبيلهم في الذياد عن حقهم تحت راية الإسلام المصفَّى، واثقين بأن الله مع المتقين، وأنه ناصر المستضعفين، وأن فجر الحرية قادم ولو بعد حين..

إن مآسيكم لكبيرة وكثيرة أيها الإخوة، وقد تنكرت لكم كل الحكومات التي تقاسمت شعبكم ودياركم، فليس بينها مَنْ يقر لكم بحق الإستقرار في أي جزء من الوطن الذي توارثتموه منذ آلاف السنين، إلا أن تتخلوا عن لسانكم وقِيَمِكم وحتى نسبتكم القومية وما إلى ذلك من الحقوق الأساسية التي هي هبة الخالق الحكيم لكل أبناء آدم، وليست كوارث (حلبجة) وعشرات القرى التي سُويت بالأرض في شمال العراق وما تلا ذلك من تشتيت الآلاف المؤلفة من سكانها المعذبين، إلاّ حلقاتٍ في سلسلة الآلام التي كتب عليكم أن تتجرعوها بسبب رفضكم الظلم الذي يُراد منكم أن تتقبلوه شاكرين هاتفين بحياة أبطاله الميامين!!.

وليس في قرّاءِ التاريخ الحديث، من يجهل تلك الغَدْرة الرهيبة التي نفذها النظام البعثي في دياركم قبل الحرب الإيرانية، وكان قد أعلن اعترافه بحقكم في الحكم الذاتي، حتى إذا سكتت بنادقكم واطمأنت إلى ذلك الإعلان، فاجأت الخيانة قادتكم في حافلة تحمل كوكبة من الغَدَرَة يتسترون بمثل ألبستكم، ويطلقون من اللحى ما يخدع الناظرين، ثم ما لبثوا أن استلوا أسلحتهم وراحوا يمطرون أولئك القادة بقذائف الموت، التي كادت تأتي عليهم جميعاً لولا عناية الله التي أكبت الغادرين على مناخرهم، وفضحت نوايا القتلة حتى لم يبقَ للمجاهدين من

وسيلة سوى العودة إلى استئناف الكفاح.. ومع ذلك لا يتورع عملاء النظام والمخدوعون من ذوي النوايا الطيبة أن يبرئوا صاحبهم من كل إثم، ويعزوا كل حملة يشنها على قراكم المسالمة إلى أنها بدافع الضرورة للحفاظ على أمن المجتمع العراقي!.. كأن الأكراد دخلاء على هذا المجتمع، فليس لهم أي حق في كيانه وأمنه، وعليهم فقط أن يلتحقوا بمواكب الهتافين من مرتزقة النظام دون أن يمدوا أعينهم إلى ما وراء ذلك من حق الحياة والكرامة!....

ومما يضاعف الأسى أن تسمع اليوم هؤلاء المخدوعين يجهرون بالقول إِن صاحبهم قد ثابَ إلى الإسلام فأصبح في مقدمة الداعين إلى الله، ولا ينسون أن يؤكدوا ذلك بما يتناقله بعض حضور الحفل الذي أقامه قبل أشهر في بغداد، وقد حضره العديد من قادة الدول العربية، وعُرضت خلاله مشاهد القوات العسكرية على اختلاف أسلحتها، فلما حان وقت الصلاة أصدر أمره بوقف العرض، وأشار إلى أحد الجنود فتسلق ظهر دبابة ليطلق من أعلاها فقرات الآذان.. ومن ثم دعا كبار الضيوف لأداء الجماعة في ساحة العرض!.

وكان هذا المشهد كافياً عند أولئك المخدوعين بالرجل لتكثيف دعايتهم له؛ واستقبال كل ظاهرة من تصرفاته كدليل لا يُرد على توجهه الإسلامي البريء من كل شبهة.. ولو هم رجعوا بذاكرتهم إلى ما قبل نصف قرن لرأوا التمثيلية نفسها يلعب دورها الأكبر ابن الدونمة ـ أتاتورك ـ إذ يدخل المساجد ليحرِّض الشعب التركي على نصرته صارخاً بجماهير المصلين وفي يمينه نسخة من الكتاب الكريم: «أيها المسلمون انهضوا للدفاع عن هذا القرآن..» فما هو إِلَّا أن وجد الفرصة التي يترقب حتى أهوى على الخلافة فهدمها، وثنَّى بلغة القرآن فطمسها، فهل فكَّر مغفلو اليوم بما وراء تظاهر صاحبهم بالتوبة العارضة من العواقب المبيَّتة؟ وهلا فاؤوا إلى عقولهم فألقوا عليها هذه الأسئلة التي لا بدَّ منها في مثل هذا الموقف:

١ ـ إذا كان الرجل صادقاً في مُدَّعياته الجديدة فما يمنعه من إقامة شريعة الله في

دولته وهو يعلم أن سواد أهلها مع الإسلام، ولا يرضون عنه بديلاً لو أتيحت لهم حرية الكلام؟ .

٢ ـ أن العودة إلى الإيمان بعد الكفر البعثي تعني التوبة النصوح، وأول موجباتها الإقلاع الحاسم عن الذنب، بعد الندم الجاد ثم التصميم على عدم العودة إلى مقارفته، ثم رد المظالم إلى أهلها.

فأين هو من ذلك كله، وهو الذي لم يكد يفرغ من مذبحة الأكراد حتى أقدم على ضرب الكويت فشرد آمنيها ولا ينفكُّ مصراً على تجريدهم من كل حق.. وباحتلال الكويت عطل مَبَرَاتها التي كانت تغطي الكثير من مصالح المسلمين في كل مكان، وبخاصة في ساحة الجهاد الأفغاني.. وهاهم ضحاياه من أطفال الأكراد وشيوخهم ومخدراتهم لا تنقطع شكواهم بغيه إلى الله، دون أن يساوره الندم على ما اقترفت يداه، وأبسط صور الندم الحق أن يرد المشردين إلى مواطنهم التي اقتلعهم منها مع صادق الإعتذار وخالص الإستغفار!...

٣ ـ ثم إنكم تريدون أن تصوروا صاحبكم بمنزلة المنقذ الإسلامي العظيم صلاح الدين، وأنتم تعلمون ـ لو قرأتم التاريخ ـ أن ابن أيوب لم يقدم على خوض ملحمة حطين إلا بعد أن نجح في توحيد صفوف المسلمين، ورفع طاقاتهم إلى مستوى المواجهة الحاسمة، فاستجابوا لدعوته واثقين من صلاحيته لقيادة المعركة. فأين صاحبكم من بطل حطين وهو الذي بدأ بتمزيق المسلمين ومطاردة الآمنين واستباحة ديار الأبرياء من العجزة والمستضعفين؟!!.

ولندع المخدوعين وصاحبهم حتى توقظهم الأحداث فيبصروا الحقيقة عارية من الحجب، ويتذكروا خبر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «المستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزىء بربه».

ثم لنتساءل مع الإخوة المعذبين: إذا كان هذا حظكم من النظام البعثي في العراق الحبيب، فهل كنتم قط أحسن مصيراً في ظل غيره من السلطات المحيطة

بكم، وهي التي قد تختلف فيما بينها على كل شيء إِلاَّ اضطهادكم ومطاردتكم وحرمانكم من كل أمل بالأمن والإستقرار..؟!

وحتى في لبنان الذي نرجو له الشفاء من جراحه، حيث يقيم عشرات الألوف من قومكم، قد مرت عليهم عشرات السنين دون أن يحصلوا من مسؤوليه على أدنى اعتراف بحقهم في المواطنة.. وكل ذنبهم أنهم مسلمون، على حين يسجِّل المهاجر النصراني وهو من الجيل الثالث في أميركا على أنه لبناني، ولا ميزة له إِلاَّ هويته الطائفية.. وهكذا حق على الكردي في لبنان أن يقضي حياته كادحاً في أشقى الأعمال لإسعاد لبنان بما يحقق له من خدمات لا يطيقها غيره، ثم لا يتيسر له الوصول إلى ضروراته المعيشية إلا بشق الأنفس، حتى إنك لترى بين حماليهم ذوي المواهب التي تؤهلهم للمستويات العالية، لو وجدوا الفرصة التي تمكنهم من التفرغ للعمل الأدبي والفكري. أجل حتى هؤلاء الذين قُدر عليهم أن لا يفارقوا مرهقات الأعمال في شوارع بيروت ليسوا سوى شريحة من هذا الشعب المغبون المحروم في كل مكان من كل الوسائل التي تساعده على تنمية مواهبه، وإعمالها في بناء وطنه واستعادة فاعليته في إثراء الحياة.. ويا لها من مواهب لا تزال تثبت وجودها في كل مناسبة تمنحها مجالاً للتنفس الحر، ولا أدل على ذلك من بروز العديد من الشخصيات الفكرية المعاصرة من هذا الشعب الأبي على الصعيد الجامعي أساتذة وطلاباً، على الرغم من كل المثبطات التي تريد أن تغلق بوجوههم منافذ الإنطلاق في عالم العلم والفكر.. وهم في كل مكان مثال الذكاء والأخلاق والجد.

وحسبهم فضلاً أن يكون في أوائلهم تقي الدين ابن تيمية، وفي أواخرهم بديع الزمان الشيخ سعيد النورسي، ولو شئت لحشدت الأسماء الكثيرة لإخواننا من مقدمي رجال الإسلام، ماضياً وحاضراً، ولكن طالب المعرفة يستغني عن ذلك السرد بأن يعود بنفسه إلى كتاب (علماؤنا في خدمة العلم والدين) من تأليف الشيخ عبد الكريم محمد المدرس، والمطبوع في دار الحرية ـ بغداد عام ١٤٠٣ هـ ويضم في صفحاته الـ ٦٦٨ من تراجم هؤلاء العلماء ما يقارب المئآت

السبع من الأسماء المشهورة في سجل الفكر الإسلامي، ليعلم فداحة الجور الذي ينيخ بككله على صدر هذا الشعب الموهوب ليحرم مئات المسلمين من المآثر التي يمكن أن يحققها لأمته لو تحرر من سلطان القهر والإضطهاد.

أجل أيها الإخوة المظلومون.. إنها والله لمآس من شأنها أن تبعث المنكوبين بها على اليأس، إلا المؤمنين الذين يوقنون بإن الملك لله، وليس الطواغيت سوى نقاط سوداء في آفاقه المترامية، وهي مهما أبطأت منتهية إلى زوال، لأن بقاء الطغيان مناف لحكمة الله، وها أنتم أولاء ترون بأعينكم إلى طلائع الفجر الصادق ترسل أشعتها على العالم الإسلامي فتزلزل أعصاب الظَّلَمَة وتضيق عليهم مجال الرؤية فلا يكادون يبصرون سوى أشباح النهاية التي تتراءى لهم في كل شيء.. وفي انتصار الإسلام في الجزائر ومن قبل في باكستان ثم في أفغانستان، مؤشر لا يخطىء إلى أنّ المستقبل لهذا الدين فَـ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾

[آل عمران: ٢٠٠]

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾

[آل عمران: ١٣٩]

وأخيراً أما لهذا الليل الطويل من آخر!!!

وما أسعدها لحظة تلك التي وقع بصري فيها على هاتيك الأسطر التي احتلت نهاية الصفحة السابعة من جريدة عكاظ السابع من شوال ١٤١٢ هـ وفي وسطها صورة ذلك الرجل الوقور الشيخ علي عبد العزيز، الذي تقدمه الجريدة على أنه نائب المرشد العام للحركة الإسلامية في كردستان العراق.. وقد لمست من خلال تلك الكلمات الحية التي يمليها الشيخ بشريات جديدة تبعث السرور في صدور

المؤمنين وتشدد من آمالهم بتواصل العمل الإسلامي في أوساط أولئك الإخوة المظلومين، فلا تصرفهم آلامهم عن معالجة أدوائهم بما تقدمه صيدلية الإسلام، الذي لا حياة ولا استقرار ولا سلام إلا في كنفه، وفي ظلال أخوَّته الربانية التي تجعل من الشعوب الإسلامية، على اختلاف مواقعها وهوياتها الجغرافية واللسانية، ذلك الجسد الذي إذا اشتكى بعضُه اشتكى كلُّه.

وها أنذا أختم بهذه الأسطر (النورية) حديثي عن أولئك الأحبة الذين لا يملك لهم مثلي سوى الدعاء بظهر الغيب، والتذكير بمآسيهم، التي هي أكبر من الكلام. وشتان بين حديث يحاول تصوير الفجائع من بعيد، ونفثات قلب يعيش تلك الفجائع على رمضاء الواقع.. ورحم الله البطل الإسلامي العظيم عبد الله بن المبارك الذي وفَّى هذه الحقيقة حقها في خطابه الموجه إلى أخيه في الله الزاهد العابد الفضيل بن عياض حيث يقول:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا	لعلمت أنك بالعبادة تلعبُ
من كان يخضب خده بدموعه	فنحورنا بدمائنا تتخضَّبُ
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا	رَهَجَ السنابك والغبار الأطيبُ

قال محرر عكاظ: يقول الشيخ علي عبد العزيز الزعيم الكردي الإسلامي أن معظم أراضي كردستان العراق محررة من سيطرة النظام البعثي الحاكم في بغداد ولكن المواطنين الأكراد في منطقة أربيل يعانون من شدة وطأة الحصار الذي تفرضه قوات صدام حسين.

وقال إننا نعاني أحلك الظروف حيث يصادر جنود صدام أية أطعمة يحاول الأهالي إدخالها إلى المناطق الكردية، كما أنه لا يوجد نفط لدى المواطنين لأن الموصل لا زالت بيد النظام الحاكم في بغداد.

وقال الشيخ عبد العزيز وهو نائب المرشد العام بالحركة الإسلامية في كردستان العراق أن أكراد العراق لا يريدون الإنفصال عن العراق وإن كانت بعض العناصر الكردية تحت وطأة الظلم والقهر تسعى للإنفصال. وقال: «إن موقفنا هو

وحدة العالم الإسلامي والشعب الكردي جزء من هذا العالم الكبير».

وأضاف: إننا لا نريد تمزيق العراق إلا في حالة الإضطرار بوجود صدام حسين وأمثاله من الحكام المتسلطين.

وقال إن بينهم تنسيقاً مع كافة الجهات العراقية.

وقال إن بعض الأرزاق تصل إلى المواطنين الأكراد عن طريق إيران.

واستنكر سكوت العالم الإسلامي عما يتعرض له الشعب الكردي من مظالم وتجويع. وقال إن قوات الحركة الإسلامية في كردستان قد أسرت ٨٦٧ من الضباط والجنود العراقيين «وقد سلمناهم إلى الصليب الأحمر في منطقة شهرزور لأننا عاجزون عن إطعامهم».

ونحن معك أيها الشيخ الوقور نستنكر ما استنكرت.. ونتساءل في غصة لاذعة: أما لهذا الليل الطويل من آخر!!!

إنها مذكرات فقط وليست قيوداً جامدة لا تقبل التعديل

الرافضون لشريعة الله نظاماً للحكم بين الناس أفراداً وجماعات ودُولاً، لا يبرحون يرددون في كل مناسبة أن المطالبين بهذا النظام لا يملكون منهاجاً يحدد أهدافهم، التي على مثلها يقوم التعامل بين الراغبين في الحكم والجماهير التي يدعونها لتأييدهم، وهي كلمة حق لا ينشدون من ورائها سوى توكيد رفضهم والإحتجاج له.. ثم جهلهم أو تجاهلهم لمميزات الشريعة التي لم يُفَرط كتابها من شيء، والتي أثبتت صلاحيتها بل تفوقها على سائر النظم التي ابتدعتها تصورات الإنسان، من خلال تطبيقاتها العملية على امتداد القرون واختلاف المواطن، والشعوب التي نعمت في ظلها بكل عوامل الإستقرار والعدالة، وهي التي لم تتذوق لها أثراً قبل انضوائها إلى ظلالها الأخَوية الوارفة..

ولكن مهما تكن البواعث الكامنة وراء مُدَّعيات الرافضين، لا مندوحة لدعاة

الحكم الإسلامي من الإستجابة لتحدياتهم عن طريق مواجهتهم بالبرامج التي توضح مفهومهم للحكم والطرق التي يسلكونها لتحقيق هذا المفهوم. . بحيث يكون ذلك ميثاقا يحدد مسؤولية كل منهم وعلاقته بالاخر، ويعطي الجماهير المبايعة لهم حق الرقابة الفعلية على سائر تصرفاتهم بكل الوسائل التي تذكرهم بالعهد، وتحول دون تجاوزهم الحدود التي تلزمهم بها الشورى التي هي أساس الحكم الإسلامي. .

ومن هنا اتجه الرأي إلى تذييل هذا الكتاب ببعض المذكرات الصالحة لتحديد المنطلقات، التي يُنظم على أساسها البرنامج الإنتخابي. وطبيعي أنها مذكرات فقط وليست قيوداً جامدة لا تقبل التعديل، بل هي نقاط رئيسة قابلة للتطور وفق حاجات المجتمع وضمن نطاق المنظور الشرعي الذي يحدده الإدراك العميق لمقاصد الشريعة العليا، التي لا تفارق مصلحة الإنسان الملتزمة أبداً جانبَي العدالة والإحسان. .

والمذكرات هذه على صلة وثيقة بالأسس التي سيتضمنها دستور الحكم الإسلامي المستنبط من الوحيين الأعلَيَين كتابِ الله وسنةِ رسوله. . الدستور الذي عملت في صياغته جهود العمالقة من أساطين الدعوة الإسلامية أيام المحاولات الأولى لأسلمة الحكم في مصر وباكستان، وكانت قد أشرفت على النهاية الناجحة حين فاجأتها الأحداث المفتعلة فأوقفت مسيرتها بقوة الحديد والنار، لتنكفيء على نفسها في ضمائر المؤمنين بانتظار الفرصة التي يهيئها الله لقيام الحكم الصالح الذي يتطلع إليه أهل الإيمان في كل مكان. . والله الموفق والمستعان. . .

١ ـ الدين هو الأساس. عقيدةً وتعليماً وتربيةً واقتصاداً وحكماً. والدين الإسلامي هو الدستور الأساسي للدولة لا يحق لأي سلطة تجاوز أصوله.

٢ ـ الناس كلهم إخوة، لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، وهم أحرار كما ولدتهم أمهاتهم، ومتساوون في الحقوق

الأساسية، لهم كرامتهم الإنسانية ولهم حقهم في الأمن، لا يؤذَون ولا يروَّعون إلا بقدر جناياتهم على أنفسهم وعلى الآخرين بموجب القانون.

٣ ـ الحكم فيهم لإدارة شؤونهم الحيوية ولحمايتهم من البغي، ولتأمين حاجاتهم الأساسية من العمل المناسب والدخل الملائم، وإقامة التوازن العادل بينهم بحيث لا يطغى فريق على آخر ولا يحيف قوي على ضعيف.

٤ ـ النظام الأساسي الذي يشملهم جميعاً هو التعاون المنطلق من القاعدة الإلهية:

وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ

[المائدة: ٢]

حتى لا يهلك أحد تُخمةً ولا يَضوى أحد جوعاً، ويحصل كل على عمله المناسب، وكل مريض على دوائه وتعليمه دون تفاوت.

٥ ـ المال مال الله، يأخذ منه كلٌّ وفق جهده، ومَنْ قصر به الجهد فله حق العون من مال الموسرين وفق أحكام الشرع المطهر، والدولة هي المسؤولة عن تحقيق هذا العون.

٦ ـ المورد الأساسي للجميع هو في الأرض والعمل لاستخراج خيراتها متعاونين، كلٌّ في نطاق اختصاصه وإمكاناته.

٧ ـ الأساس التعاوني للحكم يقتضي إلغاء كل ظواهر الإستغلال الفردي والإجتماعي وفي مقدمتها الربا الذي حرمه الله على ألسنة كل أنبيائه لما يترتب عليه من الفتن والشحناء وتمزيق الوشائج الإنسانية، على أن تحل محل مؤسساته المؤسسات الإنسانية القائمة على القرض الحسن وأنواع المضاربة المشروعة مما يشدد الروابط الأخوية بين الأفراد والمجتمعات ويساعد على التنمية الإقتصادية السليمة.

٨ ـ السلام شعار المسلم فهو تحيته لكل مَنْ يلقاه، وتحيته في صلاته وختامها،

وعلى هذا المبدأ يقيم علاقته مع الجميع، ولكنه لا يسمح لأي قوة بتهديد سلامة مجتمعه، ولذلك يحرص الحكم الإسلامي على تنمية قوى الشباب بالرياضة القويمة وملء فراغه بالتربية الروحية والثقافية التي تجعل من المسلمين خير أمة أخرجت للناس من جديد.

٩ ـ ومن أهداف الحكم الإسلامي تأمين الكفاية الذاتية للمجتمع في كل الضروريات حتى يستغني عن الإستدانة التي ترهق كيانه، ويُعمِل كل إمكاناته لتشغيل الثروة العامة في المؤسسات الإنتاجية حتى لا يبقى وجود للمال المكنوز، بل يُفسح السبيل لإعمال كل المدخرات في سد الحاجات وزيادة الدخل العام.

١٠ ـ المجتمع الإسلامي يتميز بالطهارة داخلاً وخارجاً، لذلك على الحكومة التي تمثله أن تُعنى بنظافته من كل أسباب التردي الخُلُقي حتى لا يرى الفرد ولا يسمع أي تحرك نحو الفساد. .

١١ ـ ولتحقيق هذا الهدف يكون من واجبها السعي لتحصين الشباب من السقوط في حبائل الشيطان بتيسير الزواج الشرعي، وحماية الأسرة من الشذوذ عن جادة الفضيلة، ولها في هذا الصدد أن تكافح العزوبة بفرض الضرائب المناسبة على كل عَزَب، وتمد الراغب بالزواج بالعون الكريم.

١٢ ـ من مقومات الحصانة الإجتماعية إقامة الحدود التي شرعها الله في كتابه وسنة رسوله لكل خروج على أمن المجتمع، ولكن لا بد من مراعاة الواقع الذي بَعُدَ عهده بنظام الإسلام، فتُطَهر الحياة العامة من دواعي الإنحراف بالتي هي أحسن، عملاً بالقاعدة النبوية القائلة:

«**مَنْ كان آمراً بمعروف فليكن أمره بمعروف**».

حتى إذا تحققت طهارة الحياة العامة من دواعي الفاحشة بالزواج والتربية الإسلامية العاصمة جاء دور الحدِّ فأُقيم على الجاني دون هوادة، وكذلك الأمر في حد السرقة. فلا تُقطع يد سارق إلا بعد أن تؤمن الدولة لكلٍّ حقه

في العمل المجزي أو العون الكريم.. وهكذا يجري الأمر في سائر الحدود عملاً بالتوجيه الحكيم الذي زوَّد به رسول الله معاذاً عند بعثته لليمن، إذْ أمره بالتنفيذ التدريجي لأحكام الإسلام، وتأسياً بالحكمة العمرية، حيث أوقف الفاروق حد السرقة في عام الرمادة رعاية للضرورة التي دفعت ذوي الحاجة للإقدام على السرقة الموجبة للقطع..

١٣ ـ الملكيات العامة جميعها هي في الأصل هبة من الخالق الحكيم يبسطها لعباده ليأخذ منها كلٌّ ما يؤمن حاجته ويحقق طموحه بالطرق المشروعة البريئة من البغي والعدوان، والمحققة للعدالة الربانية بإخراج ما فرضه الله على أهل اليسار لسدِّ حاجة ذوي الإعسار، فإذا ضاقت الفريضة عن سدّ العوز فللدولة الحق في زيادتها إلى الحد الذي يدفع الضرر العام، ولو أدَّى ذلك إلى تساوي الجميع في الحد الأدنى من العيش. كما فعل أبو عبيدة في تقسيم الطعام بالسوية. وكشأن الأشعريين في المساواة التي حققوها بينهم عندما ضاق الموجود عن مقتضيات الوجود.

١٤ ـ يلحق بهذا التنظيم موضوع الثروة العامة من العقار ووسائل الإنتاج، فللدولة الحق بإعادة النظر في ملكيتها بين الحين والحين، فكل أرض تُعَطَّل عن الإنتاج لمدة محدودة تُرَدُّ ملكيتها إلى الدولة التي تسلمها للقادرين على استغلالها وأداء حقها، عملاً بالقاعدة الفقهية الصادرة عن رسول الله. وكذلك الحكم في الممتلكات الإنتاجية الأخرى فللدولة مراقبتها للتحقق من سيرتها الصحيحة لئلا تتعرض للشلل فالسقوط في حبائل الدائنين، فتكون سبباً في تسريب الخلل إلى الثروة العامة.

١٥ ـ كل ملك من عقار أو مال تقتضي المصلحة العامة نزع ملكيته الخاصة ينال صاحبه التعويض العادل، إلاّ إذا ثبت بالتحقيق العدل أن ملكيته مشوبة بحرام، فيكون تعويضه بقدر حقه فيه.

١٦ ـ التقارب المعقول في مستوى المعيشة من الأسس الرئيسة المميزة

للمجتمع الإسلامي، وإنما يدخل الخلل عليه عن طريق الترف المُطغي الذي هو من أخطر عوامل التدمير في حياة الأمم، ويكفي أن القرآن الكريم لم يذكره مرة إلا محفوفاً بالنُّذُر الرهيبة، لذلك على الدولة الإسلامية أن تتولى ترشيد الإستهلاك وتعمل على تضييق الفجوة بين الناس لتستقر الأخوَّة فيهم كما وصفهم الله:

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ

[الحجرات: ١٠]

١٧ ـ الإعلام مقروءاً ومسموعاً ومنظوراً من أهم وسائل التوجيه الإجتماعي تأثيراً في مسيرة المجتمع أفراداً وجماعات، ولكي يحقق مهمته في الكيان الإسلامي لا بد من الحفاظ على سلامته من التلوث بالمفاسد الشائعة في المجتمعات الأخرى.

١٨ ـ والمنطلق الأول للإعلام الإسلامي هو الوحي بمصدريه الرئيسيين من الكتاب والسنة الصحيحة، فعلى أولي الأمر نشرُهما على المستوى العام حفظاً وتلاوةً وتفسيراً، وتشجيع المُجَلين فيهما بمختلف الوسائل المناسبة، باعتبارهما أساس الثقافة الإسلامية جميعاً.

١٩ ـ التعليم على مختلف مستوياته حق كل فرد على الدولة ويُراعى فيه استعداد كل فرد، فيصنف الطلاب حسب مواهبهم الطبيعية ويُغذى أهل كل موهبة بالمناهج المناسبة وبذوي التخصص التربوي والعلمي.

٢٠ ـ يتناول حق التعليم كل أميٍّ من ذكر أو أنثى أينما كان موقعه، وذلك ضمن مخطط دقيق يتدرج بالطالب وفق قدرته، وتقام لهذا الطالب المكتبات التي توفر له كل المشوِّقات الدافعة إلى الأعلى، حتى ينتفي كل أثر للأمية في الأمة وتأخذ كل موهبة طريقها إلى الإنتاج الرشيد.

٢١ ـ الهدف الأسمى من التعليم هو إبراز حكمة الخالق العظيم في التنظيم

الكوني جميعاً، وترسيخ صلة الإنسان بربه، فكل درس أياً كانت مادته يجب إظهار دلالاته على تلك الحكمة الشاملة لكل شيء. وهكذا يرتبط التعليم بأصوله الطبيعية، ومن هنا كان الواجب على الجهة المسؤولة أن تُحسن اختيار المعلم فلا يتولّى العملية التعليمية إِلاَّ أهلها من ذوي الإيمان الصحيح والفكر النافذ السليم.

٢٢ ـ على هذا المحور تدور بقية الروافد الإعلامية فلا يعرض فيها شيء مجافٍ للحقيقة التي يقررها الوحي، إِلاَّ لغرض مناقشتها وإبراز عوارها في ضوء العلم الكوني الثابت المتفق عليه بين أساطين أهله.

٢٣ ـ وللفنون في الإسلام مميزاتها المفجرة للمواهب السامية، تمشياً مع النظرة الجمالية التي يؤكد عليها القرآن الكريم في كل أحاديثه عن الروائع المبثوثة في السماوات والأرض. وفي النّظم القرآني آيات تقدح في القلوب شرارة الإبداع الذي يجعل من الحروف المألوفة تراكيب لا نهاية لروائعها ودلالاتها. .

وبهذا الإتجاه المتسامي تتفتح أشواق النفس إلى الآفاق العليا، بدلاً من الهبوط إلى المزالق التي يسميها الضائعون بالفنون. .

٢٤ ـ التجارب المرة التي مرت بها دول المسلمين في هذا القرن أكدت وجوب استقلالها عن سائر الجهات الدولية، وهذا يقتضيها توجيه الإهتمام إلى الإكتفاء الذاتي في كل شيء، وبخاصة موضوع القروض والتصنيع والأسلحة وذلك وفق الأسس التالية:

أ ـ عند الحاجة إلى المال لدعم التنمية الإجتماعية يُستَعَان بأموال الموسرين من الأمة على أساس القرض الحسن أو المضاربة في المشروعات الإنتاجية مقابل ضمانات تطمئنهم على حقوقهم.

ب ـ لا بد من تخطيط برنامج زمني لإنفاذ المشروعات الصناعية يُدعى لتمويلها كل ذي مال في المجتمع على أن ينال نسبته العادلة من الأرباح. . ويكون

الإشتراك في ذلك التمويل حقاً لكل مسلم من سائر الأقطار.

جـ - يبدأ ذلك بالصناعات الضرورية دون الكمالية كصناعة الدواء والسلاح والورق وما إلى ذلك، بما يسد حاجة البلاد، وعند نجاحها وزيادة انتاجها عن الحاجة المحلية تُصَدَّر إلى أحوج الأقطار الإسلامية إليها.

د - يُستعان في هذه المشروعات بذوي الخبرات الفنية من أبناء البلاد وعند الحاجة يُستورد الخبراء من البلاد الإسلامية المتقدمة في هذه الميادين، ثم بما أمكن استقدامه من الأجانب المأمونين.

هـ - تخصص للعاملين في هذه المشروعات نسبة ثابتة من أرباحها يتناولونها في نهاية الحساب السنوي مضافة إلى رواتبهم العادلة وفق تخصصاتهم وأنشطتهم.

المحتويـات

دار الشـــوّاف للنّشر والتوزيع :
ص.ب: ٤٣٣٠٧ الرياض ١١٥٦١
هاتف: ٤٦٢٢٦٣٠ - ٤٦٢٢٦٦٧
تلكس: ٤٠١٢٤٩ إس. جي / فاكس: ٤٦٢٢٨٦٦
شارع الثلاثين العليا - الرياض
المملكة العربية السعودية